بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) ساعد بن حبول بن صالح المطرفي كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير في تخصص : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((ملا علي القاري وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات عرض ونقد))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٩/١١/١٤٢٠هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ أحمد سعد حمدان الغامدي	الاسم : د/ محمد عمر محمد حسن	الاسم : د/ أحمد السيد [illegible]
التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]

يعتمد

رئيس قسم : العقيدة

الاسم : د/ عبد العزيز بن أحمد الحميدي

التوقيع : [توقيع]

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

ملا علي القاري وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات

عرض ونقد

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب
مساعد بن مجيول بن صالح المطرفي

إشراف الأستاذ الدكتور :
أحمد بن سعد حمدان
الأستاذ في كلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة قسم العقيدة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : (ملا علي القاري وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات عرض ونقد).

تناول البحث في هذه الرسالة آراء ملا علي بن سلطان محمد القاري المتوفى سنة (١٠١٤هـ) في الإلهيات من مسائل العقيدة، ويعد القاري من أبرز علماء القرن الحادي عشر، لذا كان له اليد الطولى في التأليف في علوم شتى، وقد وقعت منه مخالفات في باب الإلهيات أوجبت دراسة آرائه الاعتقادية من منظور عقيدة السلف .

وقد اشتمل البحث على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة : -

المقدمة: كانت في دواعي اختيار الموضوع ومنهج البحث فيه .

الباب الأول: في ترجمة القاري، تحدثت فيه عن عصره من الناحية السياسية والعلمية والاجتماعية، وعن سيرته الشخصية والعلمية وعن منهجه في الاستدلال على مسائل العقيدة .

وأما **الأبواب الأربعة الأخرى** : فهي في عرض الإلهيات عند القاري ونقدها وتتلخص فيما يلي :

الباب الثاني: أوردت فيه عقيدة القاري في توحيد الربوبية، واشتمل على المسائل التالية: (تعريف التوحيد، معرفة الله عزوجل، دلالات معرفة الخالق وإثبات وحدانيته).

الباب الثالث: أوردت فيه عقيدة القاري في توحيد الألوهية، واشتمل على المسائل التالية: (مفهوم توحيد الألوهية، العبادة، بعض صور الشرك ووسائله).

الباب الرابع: أوردت فيه عقيدة القاري في أسماء الله وصفاته، واشتمل على المسائل التالية: (الاسم والمسمى، هل أسماء الله توقيفية أم اجتهادية؟، أسماء الله ليست محصورة في عدد معين، حقيقة الإلحاد في أسماء الله، معنى الإحصاء الوارد في حديث أبي هريرة ﷺ ، مذاهب الناس في صفات الله، مجمل كلام القاري في نصوص الصفات، تقسيم الصفات عند القاري، أقوال القاري المفصلة لبعض نصوص الصفات).

الباب الخامس: أوردت فيه عقيدة القاري في القضاء والقدر، واشتمل على المسائل التالية: (تعريف القضاء والقدر، التحذير من الخوض في القدر بمجرد العقل، مراتب القدر، أفعال العباد).

وكان منهجي في عرض هذه المسائل هو إيراد قول القاري ثم التعقيب عليه ببيان موافقته للسلف أو مخالفتهم.

وقد خلصت الدراسة إلى أن القاري في باب الإلهيات ماتريدي العقيدة في الجملة، لكن عنده اضطراب في بعض المسائل، فأحياناً يوافق المذهب السلفي بل ويدافع عنه، فمن أمثلة ذلك: تصريحه بتقديم النقل على العقل عند توهم التعارض، وقوله بأن معرفة الله فطرية ...

وفي بعض المسائل يوافق أهل التفويض كما في صفة الاستواء والوجه ...

هذا وقد ذيلت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها وبفهارس علمية .

** والله أعلم **

(Study Summarized.)

Study title (Mula Ali Gari and his beliefs opinions in Elahyat, presenting and criticize)

The search hand in this study the opionions of Mula Ali bin Sultan Mohammad Gari who was dead in 1014 H. in Elahyat of Agyda Cases,Mula Gari who was the best of the eleventh century specialist , so he has the longest hand in compositionin different knowledges . He has dissents in Elahyat , so I have studied his beliefs opinions of Agedat AL-Salaf view .

- Research contains of introdction , five sections and conclusion :

- Introduction :choosing the research and the study method.

(1) First Section : Traslation of Gani , I talked about his peiod of politics, knowledge and socials side . Although , his autobiography , knowledge and his method in deductively of Ageda cases .

(2) Second section : I wrote about AL- Gari Ageda of Tawheed AL – Robobiya , it contains (the defintion of Tawheed , Allah Knowledge , senses of Allah , proof his single .)

Third section : I wrote about Tawheed AL-Robobiya , it contains (Tawheed AL-Awlohaih ,concept Eibada, views of Sherk and itsways)

(4) Four section : I wrote about AL-Gari Ageda of the names and the features of Allah , it contains (the name and the named , Are the names depending at or interpretive ,they are not limited. The truth of Elhad of the names of Allah, the meaning of counts of Abu Hurairah Hadeeth , the faith of people of feature of Allah ,count of AL-Gari of features text. Dividing the features , AL_Gari saying of some features texts.

(5) The fifth section : I wrote about AL-Gari Ageda of AL –Gadha and AL-Gadar, it contains the definition of AL-Gadha and AL-Gadar , worning of saying AL-Gadar reasonably, AL-Gadar numbers ,AL-Ebad doing .

My way of exposing these cases is which AL-Gari said then commentary , Is he with Salaf or not .
The summary of this study in AL-Elaheyat Materedy AL-Agdah as awhole , he has confusion in some cases , sometimes he agree with Salaf as the knowing of Allah as nature , sometimes agree with Tafweedh as AL-Estwa and the face .


بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والتقدير

الحمد لله على إنعامه، والشكر له على إحسانه، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبدالله. أما بعد :

فانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1] أتوجه بالشكر لله تعالى الذي أنعم عليَّ بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[2]، وإن من نعم الله عليَّ أن وفقني لإتمام هذه الرسالة، فأسال الله جل وعلا أن يجعلني ممن إذا أعطى شكر، وإذا ابتلى صبر، وإذا أذنب استغفر .

وإن من تمام شكر الله تعالى أن أذكر بالثناء وألهجَ بالدعاء لكلِ من مدَّ إليَّ يدَ العون في هذا البحث، مع اعترافي بالعجز عن تقدير الشكر الذي أُكنه في ضميري لهؤلاء في عبارات أسطرها إذ لا توفيهم بعض حقهم .

فأتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ الدكتور **أحمد بن سعد حمدان الغامدي** المشرف على هذه الرسالة، على ما أولاني به من اهتمامه، وأحاطني به من رعايته وأسدى إليَّ ملاحظاته وأتحفني به من تصويباته القيمة في تواضع جمّ، وأدب رفيع، وكان له أثره البالغ في إنجاز الرسالة وتقويمها، فأسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يجزيه عني أحسن الجزاء، وأن يبارك له في وقته وعمله وذريته، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

(١) سورة إبراهيم، آية (٧) .

(٢) سورة إبراهيم، آية (٣٤) .

ولا يفوتني أن أشـــكر الدكتـــور: عبدالعزيز بن عبداللطيف المرشدي الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث في بدايته، وفتح لي قلبه وبيته، فجـــزاه الله عني خير الجزاء. كما أشكر أيضاً جامعة أم القرى ممثلة في كليـــة الدعـــوة وأصول الدين قسم العقيدة لما تقدمه من تسهيلات للدارسين بهـــا علـــى أداء رسالتهم وتحقيق طموحاتهم .

* * * * * *

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى، ودين الحقّ ليظهره على الدين كلِّه، وكفى بالله شهيداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليماً مزيداً.

أما بعد :

فإذا كانت العلوم تقاس بشرف موضوعاتها، فإن موضوع علم التوحيد أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم .

فأشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد الذي من أجله خلق الله الخلق كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١)، ومن أجله أرسل الله الرسل كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (٢).

وقد بيّن النبي ﷺ أمور التوحيد أتمّ بيان، فبلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فأقام الله به الحجة وأوضح به المحجة، فما مات ﷺ حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

(١) سورة الذاريات، آية (٥٦) .

(٢) سورة النحل، آية (٣٦) .

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [1]، فخلفه من بعده الصحابة -رضوان الله عليهم- فكان منهجُ التلقي عندهم في مسائل التوحيد وغيرِه كتابَ الله وسنة رسوله ﷺ ، فاهتموا بهذين المصدرين حفظاً وفهماً وعلماً وعملاً، ودعوا الناس إليهما فأعزهم الله بالإسلام، وأعز الإسلام بهم، فكان عصرهم أزهى العصور وأفضلها على الإطلاق، فهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ لم يكونوا يعرفون غير اتباع النبي ﷺ واتباع النور الذي أنزل معه مستمسكين لما جاء به من الحق .

وتتابع على ذلك الأفاضل من كل جيل وبقيت راية الحق مرفوعةً وطريقها مسلوكة .

ولكنه قد تخلل ذلك انحرافات في كل جيل أخذ بها طوائف من الأمة واتسعت دائرتها حتى كاد الحق يخفى في العصور المتأخرة .

فظهرت مدارس فكرية عقدية، كل مدرسة اتخذت لوناً يخصها في طرائق التفكير والنظر، وهذا الاختلاف مصداق لما أخبر به الصادق المصدوق: « ... وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة » [2].

وهذه الفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة السائرون على منهجِ السلف الصالح السالمون من البدع والأهواء في الدين، فكل ما خالف أهل السنة والجماعة فهو باطل مردود على صاحبه، مهما كان صاحب ذلك القول.

ولا يخفى على كل من أمعن النظر في كتب التفسير وشروح

---

(١) سورة المائدة، آية (٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه كتاب الإيمان، باب ما جاء في اقتراف الأمة (٥/٢٦/ رقم٢٦٤١) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحدث العصر الألباني (١/٣٥٨/ رقم٢٠٤) ورقم (٢٠٣، ١٤٩٢)، والمشكاة (١٧١) .

الأحاديث النبوية أن من هؤلاء المفسرين، وشراح الأحاديث النبوية من قد تأثر في تفسيره لنصوص الوحيين ببعض المدارس التي حادت عن الصراط المستقيم، فصاروا يقررون مسائل العقيدة إثباتاً أو نفياً على ما هو مقرر عند أصحاب تلك المدارس، ولذا كان من الضروري على أهل العلم وطلاب الدراسات العليا المتخصصين في العقيدة، أن يهتموا بهذا الجانب للكشف عن الأخطاء العقدية التي وقع فيها أولئك، نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ودفاعاً عن العقيدة الإسلامية من خلال كلام المحققين من أهل العلم وحملة الشريعة .

ولقد وقع اختياري في أول وهلة على علم من أعلام المعتزلة ألا وهو "الزمخشري"، وذلك من خلال تفسيره الكشاف، ولكن بعد البحث وجدت أن أحد الباحثين قد أخذ المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري في ضوء ما ورد في كتاب الانتصار لابن المنير، ثم وقع الاختيار أخيراً على علم من أعلام المدرسة الماتريدية، وهو العلامة ملا علي بن سلطان محمد القاري أحد علماء القرن الحادي عشر .

ولمّا كان القاري من العلماء الذين تعددت مواهبهم، وتنوعت مساهماتهم في علوم كثيرة -إذ ألف في التفسير، وعلوم التفسير، والحديث وعلومه، والعقيدة، والفقه، والسيرة، ونحوها- فقد اهتم بعض الباحثين في هذا العصر بكتبه، فحققوها في رسائل علمية[1]، كما قام بعضهم بدراسة

---

(١) - قام الباحث: عبدالله بن علي حسن الملا بتحقيق كتاب "رد الفصوص لملا علي القاري" في جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة .

- وقام الباحث: عبدالله رجب الفيلكاوي -رحمه الله- بتحقيق "رسالة فتح الأسماع في شرح =

شخصيته وأثره في علم الحديث [1]، كما أُخذ منهجه في التفسير [2]، ولكن لم تُدرس آراؤه الاعتقادية في رسالة علمية فيما أعلم، فأوجد ذلك عندي رغبة في أن أكتب عن آراء القاري الاعتقادية، لا سيما أن هذا الموضوع يتعلق بأصل الأصول وهو التوحيد، ولكن سعة هذا الموضوع تحول دون تلك الرغبة، لذا قصرت الكلام على جزء من مباحث العقيدة وهو ما يتعلق بـ"الإلهيات" .

* * * * * *

❖ أسباب اختيار الموضوع : -

مما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع -إضافة إلى ما سبق- ما يلي :

السماع" لملا علي القاري، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

- وقام الباحث: عبدالرحمن السديس، بتحقيق كتاب "الهبات السنية العلية على أبيات الشاطبية الرائية" للقاري، في جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة .

(١) قام الباحث: خليل بن إبراهيم قوتلاي، بإبراز شخصية القاري في علم الحديث في رسالته "الإمام على القاري وأثره في علم الحديث" في جامعة أم القرى بمكة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

(٢) قام الدكتور: عبدالباقي تُورَانْ، بإبراز منهج القاري في التفسير في رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه، من جامعة أرْضرُوم بتركيا، كلية الإلهيات، وعنوانها: "علي القاري، حياته وآثاره، ومنهجه في تفسير أنوار القرآن وأسرار الفرقان". وهذه الرسالة باللغة التركية، ولم تترجم إلى العربية.

١) كون القاري من أبرز علماء القرن الحادي عشر الهجري، الذي أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفات واسعة وعميقة في مجال العقيدة بخاصة، والعلوم الإسلامية بعامة متأثراً بعقيدة الماتريدية، مما دفعني للكتابة عن الجانب العقدي في الإلهيات في فكر القاري .

٢) اغترار بعض الناس بمدافعة القاري عن شيخي الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية –رحمهما الله– فيما رماهما به ابن حجر المكي من التجسيم، فظن بعض الناس أن القاري موافق لمنهج أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات جملة وتفصيلاً .

٣) أن في دراسة آراء القاري الاعتقادية في الإلهيات تيسيراً على الباحثين للاستفادة من كتبه دون توجّس مما خالف فيه القاري عقيدة السلف في بعض المسائل عن اجتهاد منه، وحسنِ نية .

٤) أنني أحببت وأنا في بداية التخصّص، أن يكون موضوعُ بحثي شاملاً لكثير من مسائل العقيدة، لكي يتأتى لي الإلمامُ بمسائلها والإطلاع على كلام أهل العلم فيها، فوجدت في هذا الموضوع ما يحقق تلك الرغبة.

* *   * *   * *

هذا وقد تكونت الرسالة من مقدمة، وخمسةِ أبواب، وخاتمة .

أما المقدمة : فبينت فيها أهمية علم التوحيد وبيان منزلته وشرفه وعلو مرتبته، وذكرت أسبابَ اختيار الموضوع، وخُطتَه، ومنهجَ العملِ فيه.

وأما الباب الأول : فخصصته لترجمة القاري، ويشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: عصر القاري ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: عصر القاري من الناحية السياسية .

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية بمكة المكرمة .

المبحث الثالث: عصر القاري من الناحية العلمية .

الفصل الثاني: سيرة القاري الشخصية ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: اسمه، ونسبه، وكنيته .

المبحث الثاني: ولادته، ونشأته .

المبحث الثالث: وفاته، وثناء العلماء عليه .

الفصل الثالث: سيرة القاري العلمية ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: طلبه للعلم ورحلته .

المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه .

المبحث الثالث: ثقافته ومؤلفاته .

الفصل الرابع: منهج القاري في الاستدلال على مسائل العقيدة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: قواعد القاري في الاستدلال .

المبحث الثاني: عرض القواعد التي ذكرها القاري على منهج السلف.

وأما الباب الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، فهي في عرض الإلهيات عند القاري ونقدها وهذا بيانها : -

الباب الثاني: عقيدة القاري في توحيد الربوبية، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعريف التوحيد ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: تعريف التوحيد لغة .

المبحث الثاني: تعريف التوحيد شرعاً .

المبحث الثالث: تعريف توحيد الربوبية .

الفصل الثاني: معرفة الله ﷻ ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: أقوال القاري في معرفة الله ﷻ .

المبحث الثاني: عرض القضايا التي وردت في كلام القاري على مذهب السلف .

المبحث الثالث: الميثاق الأزلي .

الفصل الثالث: دلالات معرفة الخالق وإثبات وحدانيته، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: أقوال القاري في دلالات معرفة الخالق .

المبحث الثاني: عرض الطرق التي سلكها القاري في معرفة الخالق على مذهب السلف .

الباب الثالث: عقيدة القاري في توحيد الألوهية، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم توحيد الألوهية ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية .

المبحث الثاني: حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الثالث: الأدلة العقلية النقلية لتوحيد الألوهية .

الفصل الثاني: العبادة ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: تعريف العبادة وشروط قبولها .

المبحث الثاني: بعض أنواع العبادة .

الفصل الثالث: بعض صور الشرك ووسائله ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: التوسل .

المبحث الثاني: التبرك .

المبحث الثالث: شد الرحل إلى القبور والمشاهد .

الباب الرابع: عقيدة القاري في توحيد الأسماء والصفات، وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأسماء ، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول: الاسم والمسمى .

المبحث الثاني: هل أسماء الله توقيفية أم اجتهادية ؟.

المبحث الثالث: أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين .

المبحث الرابع: حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

المبحث الخامس: معنى الإحصاء الوارد في الحديث .

الفصل الثاني: الصفات ، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: مذاهب الناس في صفات الله ﷻ كما ذكرها القاري .

المبحث الثاني: مجمل كلام القاري في نصوص الصفات .

المبحث الثالث: تقسيم الصفات عند القاري .

المبحث الرابع: أقوال القاري المفصلة لبعض نصوص الصفات .

الباب الخامس: عقيدة القاري في القدر ، وفيه فصلان:

الفصل الأول: الإيمان بالقدر ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: تعريف الإيمان بالقدر والقضاء .

المبحث الثاني: التحذير من الخوض في القدر بمجرد العقل .

المبحث الثالث: الإيمان بمراتب القدر الأربعة .

الفصل الثاني: أفعال العباد ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: رأي القاري في أفعال العباد .

المبحث الثاني: رد القاري على طائفتين ممن ضل في مسألة أفعال العبـــاد وهما الجبرية والقدرية .

الخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .

* * * * * *

❖ منهج البحث : -

يتضح منهج عملي الذي سلكته في بناء هـــذه الرســـالة وإعدادهـــا في النقاط التاليـــــة : -

١) قمت بجمع ما طبع من كتب القاري، والبحث عما لم يطبع منها مما قـــد يكون مخطوطاً حبيس الخزائن والدور، وقد استغرق ذلـــك مـــني زمنـــاً طويلاً؛ ذلك لأن بعض كتب القاري المطبوعة في حكم المفقـــود؛ لأنـــه مضى على طباعتها وقت طويل، ولم تطبع مرة أخرى ممــــا دعـــاني إلى الرجوع إلى المخطوطات التي لها صلة بموضوعي، فلما اجتمع عندي مـــا تيسر من كتبه المطبوعة والمخطوطة، انصبّ عملي على قراءتها واستخراج المسائل التي لها علاقة ببحثي في بطاقات حتى تحصل لـــدي مـــن هـــذه القراءات جمع مادة وافرة -ذات صلة بموضوعي- استعنت بها في عـــرض آراء القاري في الإلهيات، وتحليلها، والتعقيب عليها حسب قدرتي العلمية، ومبلغي من الفهم والمعرفة.

٢) اجتهدت في عرض آراء القـــاري كمـــا وردت في كتبـــه ورســـائله، والتزمت بألفاظه حتى تكون العبارة أدقّ في التعبير عن المـــراد .

٣) بعد عرض رأي القاري ثنيت بالنقد والتعقيب، ومناقشته وتقويمه علـــى ضوء كلام المحققين من أعلام المذهب السلفي .

٤) مناقشة القاري في كلامه قد أفردها بمبحث مستقل أو مطلب مستقل، وقد أجعل التعقيب والمناقشة في نفس المبحث أو المطلب الذي عرضت فيه رأي القاري .

٥) عند إحالتي لمخطوطة أنوار القرآن وأسرار الفرقان فإنني أرمز للنسخة المصورة من الجامعة الإسلامية بـ[خ ق] ثم أذكر رقم الصفحة، وهذه النسخة تبدأ من سورة الكهف إلى آخر المصحف. وأما النسخة المصورة من قسم المخطوطات بجامعة أم القرى فإنني أقول [رقم اللوح] وهذه النسخة تبدأ من فاتحة الكتاب إلى سورة الإسراء .

٦) عزوت الآيات الواردة في البحث إلى مواضعها في القرآن الكريم بذكر اسم السورة، ورقم الآية .

٧) خرجت الأحاديث والآثار التي وردت في الرسالة إلى مصادرها من كتب السنة المعتمدة، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به، وإلا خرجته من كتب السنة حسب الطاقة والوسع، والطريقة التي سلكتها في العزو تكون بذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث في الكتب التي التزمت هذه القاعدة، وإلا ذكرت ما به يتبين موضع الحديث.

٨) شرحت ما رأيت الحاجة إلى شرحه من الألفاظ الغريبة .

٩) عرفت بالفرق التي ورد ذكرها في الرسالة .

١٠) ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في صلب البحث ما عدا الصحابة لشهرتهم وقد أحيل عند الترجمة لذلك العلم إلى مصدر أو أكثر .

١١) تعاملت في بعض المراجع التي رجعت إليها مع أكثر من طبعة، وسأبين تلك الطبعات في فهرس المصادر .

١٢) ما ذكرته في هذا المنهج هو غالب صنيعي المتبع، وقد أخالفه -أحياناً- لاعتبارات ومناسبات تقتضي ذلك .

١٣) ذيلت البحث بتسعة فهارس، كلها مرتبة حسب حروف المعجم سوى الأول والأخير منها، وجاءت على النحو التالي :

أ - فهرس الآيات القرآنية، معزوة إلى سورها، ومرتبة حسب ورودها في القرآن الكريم .

ب - فهرس الأحاديث النبوية .

ج - فهرس الآثار .

د - فهرس الأشعار .

هـ - فهرس الألفاظ.

و - فهرس الفرق والطوائف .

ز - فهرس الأعلام .

ح - فهرس المصادر والمراجع .

ط - فهرس الموضوعات .

وختامًا.. فإني لا أدّعي أني وفيت الموضوع حقّه، ولا أنّي أصبت في كل ما قلت وقصدت، لأن الخطأ والنقصان من طبيعة البشر، ولكن حسبي أني بذلت وسعي، فما كان فيه من صواب فمحض فضل الله وتوفيقه، وما كان فيه من خطأ ومجانبة للصواب فلأن من طبيعة البشر الخطأ والنقصان .

هذا وأسأل الله جل وعلا أن يرزقني حسن القصد وصحة الفهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

* *   * *   * *

الباب الأول

ترجمة القاري

وفيه أربعة فصـــول :-

- الفصل الأول : عصـــــر القـــاري .
- الفصل الثاني : سيرة القاري الشخصية .
- الفصل الثالث : سيرة القاري العلميـــة .
- الفصل الرابع : منهج القاري في الاستدلال على مسائل العقيدة .

* *　　* *　　* *

الفصل الأول :

عصـــر القـــاري .

- وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: عصر القاري من الناحية السياسية .

- المبحث الثاني: الحالة الاجتماعيـــة بمكة المكرمـــة .

- المبحث الثالث: عصر القاري من الناحية العلميـــة .

* *   * *   * *

المبحث الأول : عصر القاري من الناحية السياسية[١].

شهد مطلع القرن العاشر الهجري وجود ثلاث دول إسلامية كبيرة تتصارع وتتقاتل من أجل السيطرة على الحكم على العالم الإسلامي. وهي: الدولة العثمانية، والدولة الصفويّة (الرافضة)، ودولة المماليك .

ولعلّي ألقي الضوء والحديث من الناحية السياسية على أفغانستان، حيث ولد القاري في إحدى مدنها، ثم على مكة المكرمة البلدة التي هاجر إليها فاراً بدينه .

❖ الأول : أفغانستان : -

لقد عانت أفغانستان خلال قرنين من الزمان (القرن العاشر، والحادي عشر) اضطرابات سياسية، وفوضى أمنية، من عدم الاستقرار السياسي، ويرجع ذلك إلى الصراع بين الدول المجاورة ذات الأطماع السياسية والاقتصادية، وذلك مثل :

- المغول في الهند .
- والصفويون (الرافضة) في إيران .
- وقبائل الأوزبك في ما وراء النهر .

ولما كانت مدن كابل، وقندهار، وهراة محل أنظار تلك الدول أو القبائل المجاورة لما تتمتع به من شهرة كبيرة، وصدى واسع، ومحل مرموق، ومكانة

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر (٨/٣٨٥-٣٨٦، ٤٠٤) وما بعدها، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث، لخليل قوتلاي (١٢-١٦) .

عظيمة، أضف إلى ذلك ما يرمي إليه أولئك من نشر ما هم عليه من مذاهب.
فقد بدأت فكرة الدولة الصفوية -المتمثلة في حاكمها الشاه إسماعيل- القضاء على جميع من ينازعه أو يشاركه في أمر تلك الدول .

- فبدأ يفكر في أمر الأسرة التيمورية (المغول) التي تمركزت في هراة، وجزء من إقليم خراسان، وفي أمر قبائل الأوزبك التي تمركزت في منطقة ما وراء النهر .

- وفي الوقت نفسه كان المغول يخشى من قبائل الأوزبك الهجوم عليه، وكذلك العكس .

- الأمر الذي جعل الأمراء التيموريون يُحدثون صداقة مع الشاه إسماعيل (الصفوي) كي تقيهم شر هجمات الأوزبك .

- ولما خشي (بابُر) المغولي هجوم الأوزبك حاول أن يستولي على ما وراء النهر (مقر الأوزبك) في سنة ٩٠٧هـ. لكن هزمه (شَيْبَك خان) رئيس الأوزبك، ثم استولى شيبك على سمرقند، وبخارى، وطاشقند، ثم قندهار وغيرها، واستقر فيها إلى سنة ٩١١هـ، ثم رجع إلى ما وراء النهر، ثم بعد ذلك بثلاث سنوات رجع شيبك للمرة الثانية إلى خراسان فطلب الأمير المغولي (بديع الزمان ميرزا) المساعدة من الشاه إسماعيل ضد الأوزبك .

- فالتقى الجيشان الصفوي والأوزبكي في محمود أباد سنة ٩١٦هـ. في معركة قوية وطاحنة انتصر فيها الشاه إسماعيل، وقتل شيبك خان، فدخل الشاه إسماعيل مرو فقتل من فيها، وأعلن في هراة المذهب الشيعي مذهب رسمياً، ونصب على مرو حاكماً، وكان الشاه

لا يدخل مدينة ويفتحها إلا ويقتل من فيها، وينهب أموالها ويمزقها، وقد قتل خلقاً لا يحصون يربو على ألف ألف نفس، وقتل من العلماء العدد الكثير، وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم .

- وفرض على الخطباء سب الصحابة على المنابر إلى غير ذلك من المنكرات والبدع والخرافات؛ مما دفع العلماء، وطلبة العلم إلى الهجرة إلى بلاد الهند أو إلى الحرمين الشريفين، وكان ملا علي قاري ممن توجه إلى أرض الحرمين إلى مكة المكرمة .

❖ الثاني : مكة المكرمة[1] : -

كانت مكة المكرمة ضمن الحجاز خاضعة للدولة العثمانية، وقد تولى الحكم في الحجاز عدداً من الأشراف، ولما جاء القاري مهاجراً من بلدته إلى مكة كان يحكمها آنذاك الشريف أبو نمي الثاني محمد بن بركات (٩٣١-٩٧٤هـ)، وامتاز وقت هذا الحاكم بالهدوء التام، والأمن، فقد هابته الأعراب والأهالي، واحترمه الحجاج والمجاورون .

واستمر أبو نمي حاكماً على مكة إلى سنة ٩٧٤هـ . حيث تنازل عن إمارته لكبر سنه لابنه الشريف حسن بن أبي نمي الذي حكمها من (٩٧٤-١٠١٠هـ) الذي تميزت ولايته بالعدل والاستقامة، حيث كان الشريف محباً للعلم والعلماء، راعياً ومشجعاً لهم، وكان جواداً يشجع المؤلفين، ويمنح الشعراء، وقد ساد الأمن والطمأنينة، والهدوء والاستقرار في الحاضر والبادي،

---

(١) انظر: تاريخ مكة لأحمد السباعي (٢/٣٩٥-٤٠٥)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (١٨-٢١).

بل كانت القوافل التجارية تسير دون حراسة .

واستعان الشريف بأكبر أولاده أبي طالب في الحكم، ثم عيّن عبدالرحمن ابن عبدالله الحضرمي وزيراً له، لكن الوزير أساء إلى الشريف فقد كان ظالماً، شديد الجرأة في الباطل، أكّالاً لأموال الناس والحجاج، ولما توفي الشريف حسن بن أبي نمي تولى ابنه أبو طالب بن حسن حكم مكة (١٠١٠-١٠١٢هـ) الذي بادر إلى القبض على وزير أبيه، وسجنه حيث قتل نفسه في السجن .

ثم أعاد نشر العدل في أرجاء البلاد، واشتهر بالدين والتقوى والصلاح، ثم بعد وفاته نشبت خلافات على الحكم بين أبناء الشريف في آخر عمر الشيخ ملا علي قاري، واستمرت تلك الخلافات وتغير الأوضاع إلى الأسوأ، والله المستعان .

* * * * * *

المبحث الثاني : الحالة الاجتماعية بمكة المكرمة .

❖ ا ـ الناحية العمرانية والتجارية :

كانت مكة في عهد المماليك (قبل الدولة العثمانية) صغيرة جداً، بل محدودة معالمها تبدأ من المعلاة وتنتهي إلى الشبيكة، وكان الناس قليلين جداً، بل كان سوق المسعى في وقت الضحى خالياً من الباعة، والأسعار كانت رخيصة جداً، ثم بعد أن تولت الدولة العثمانية الخلافة اختلف الأمر، فكثر الناس، وتوسع الرزق .

ففي عهد الشريف حسن بن أبي نمي كثر وفود الحجاج، وكثر المهاجرون إلى مكة المكرمة، والمجاورون فيها، فتنوعت أصنافهم، وتضاعف عدد السكان، وكان المعروف أن ينادي ولاة مكة بعد الفراغ من الحج (يا أهل الشام شامكم، ويا أهل اليمن يمنكم)، فلما تولى الشريف حسن ألغى ذلك، مما رغّب الكثير في المجاورة [(١)].

أما العمارة ودور مكة فقد ازدهرت وبلغت أعلى درجاتها، ويكفي في وصفها ما قاله القطبي[(٢)] في معرض كلامه عن عمارة مكة : (وهي الآن

---

(١) الأعلام بأعلام البيت الحرام (٣٩) .

(٢) هو قطب الدين محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد بن قاضي خان بهاء الدين بن يعقوب بن حسن بن علي النهرواني الهندي، ثم المكي، الحنفي. ولد سنة (٩١٧هـ). من مصنفاته: البرق اليماني في الفتح العثماني، والإعلام بأعلام بيت الله الحرام. انظر: شذرات الذهب (٦١٧/١٠).

بحمد الله -تعالى- في دولة السلطان الأعظم ... مرادخان خلد الله ملكه، وجعل بساط البسيطة ملكه في أعلى درجات العمارة، والأمن والرخاء، بحيث ما رأينا من أول العمر هذه العمارة ولا قريباً منها) [١].

❖ ٢ـ مساعدة السلطان الغذائية لأهل الحرمين[٢] :

اهتم السلاطين العثمانيون بالحرمين وأهلها، لما لها من المكانة والشرف والمنزل المرموق، ففي عهد السلطان سليم الأول :

١- أمر بإرسال سبعة آلاف أردب قمح (لأهل الحرمين: ألفان لأهل المدينة، وخمسة لأهل مكة) وتوزع بموجب قيود تدرج فيها أسماء البيوت في كل محله، مع بيان عدد الأفراد لكل بيت، ما عدا التجار والسوقة والعسكر كل فرد يأخذ أربع كيلات من القمح، إضافة على ذلك دينار من ذهب .

٢- أمر بشراء قرى من مصر بأمواله ووقف غلّتها لأهل الحرمين .

٣- أمر السلطان سليم الثاني بزيادة الغلة سبعة آلاف أردب تُحمل من الأوقاف السلطانية في مصر إلى مكة .

❖ الطوافة[٣] :

لم تكن الطوافة معروفة عند سلفنا ويرى بعض الباحثين أن الطوافة

(١) الأعلام بأعلام البيت الحرام (٤٠) .

(٢) انظر: تاريخ مكة لأحمد السباعي (٢/٣٩٢-٣٩٥)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (٢٤٠) .

(٣) انظر: تاريخ مكة (٢/٥٣٠)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث لقوتلاي (٢٣).

أحدثت في عهد المماليك وكان يتولى أمر الطوافة قاضي مكة .

ثم جاءت الدولة العثمانية، فاتسع أمر الطوافة، فكانت مهنة تطويف كبار ورجال الدولة يتولاها بعض العلماء، أو الكبراء، أو الأشراف من أهل مكة .

* * * * * *

المبحث الثالث : عصر القاري من الناحية العلمية [(١)].

نشطت الحركة العلمية في عهد الشيخ علي القاري بمكة المكرمة خاصة بعد دخول الحجاز تحت سيادة الدولة العثمانية في مطلع القرن العاشر الهجري، حيث بدأت الهجرة إلى مكة المكرمة تُفتّح أبوابها، فكثر المهاجرون ومنهم علماء كان لذهم أن يجاوروا بيت الله الحرام، وينشروا ما أكرمهم الله به من علوم ومعارف لما يتمتع به الحرمان الشريفان من المكانة والشرف والكرامة، مما جعلهما مركزين مهمين للمسلمين علمياً وثقافياً عبر العصور، أيّاً كانت الظروف السياسية والاجتماعية والعلمية .

➢ **ومن أهم الأنشطة العلمية في مكة المكرمة : -**

أ) حلقات الدروس العلمية في المسجد الحرام [(٢)] :

ولقد كان المسجد الحرام يزخر بحلقات الدروس العلمية في مختلف العلوم الشرعية لشيوخ وعلماء مكة، فمن علماء مكة :

١ - الشيخ أبو الحسن البكري محمد جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد الصديقي الشافعي المصري نزيل مكة (٩٥٢هـ) .

---

(١) انظر: تاريخ مكة للسباعي (٢/٥٣١) وما بعدها، وشرح ألفاظ الكفر لابن رشيد، تحقيق: الطيب بن عمر (٤٦) .

(٢) تاريخ مكة للسباعي (٢/٥٣١) وما بعدها، الإمام على القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (٣٢-٣٦) .

٢- الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي (ابن حجر الهيتمي) الأزهري المكي (٩٧٣هـ) [١].

٣- الشيخ علاء الدين علي بن حسام الدين عبدالملك بن قاضيخان المعروف بـ(علي المتقي الهندي) صاحب كنز العمال (٩٧٥هـ) [٢].

وهناك غيرهم الكثير من العلماء والمشايخ من أهل العلم والفضل.

ب) الإفتاء [٣] :

كان منصب الإفتاء يشغله العلماء من أهل مكة، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة مفتٍ خاص، ويتولى رئاستهم جميعا مفتي الأحناف .

وقد تعاقب منصب الإفتاء عائلة آل القطبي، ثم أعقبهم الشيخ عبدالرحمن المرشدي وهو من تلامذة الشيخ علي القاري وذلك في سنة (١٠٤٤هـ).

ج) المدارس السليمانية [٤] :

بدأ تأسيس المدارس السليمانية بأمر السلطان سليمان بن سليم بن بايزيد العثماني، وكانت تشمل أربع مدارس على المذاهب الأربعة، يدرس فيها علماء مكة المكرمة العلوم الشرعية، ولم تكتمل تلك المدارس وتفتح إلا في عهد ابنه السلطان سليم بن سليمان العثماني .

---

(١) انظر: (٣٣-٣٤) .

(٢) انظر: (٣٤-٣٥) .

(٣) راجع: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (٣٨-٣٩) .

(٤) انظر: المرجع السابق (٣٩-٤٠) .

ولقد كان لهذه المدارس العثمانية دور بارز، وأثر ملحوظ، في الحياة العلمية في هذا العصر بمكة المكرمة، فقد نشأ فيها وأخرجت علماء أجلاء، ومشايخ أفاضل قاموا بنشر العلم وتدريسه، والإفتاء، والقضاء، والدعوة والإرشاد في بلاد الحرمين وما جاورها من البلاد الإسلامية .

* *　　* *　　* *

الفصل الثاني:

سيرة القاري الشخصية .

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: اسمه، ونسبه، وكنيته .
- المبحث الثاني: ولادته، ونشأته .
- المبحث الثالث: وفاته، وثناء العلماء عليه .

* * * * * *

المبحث الأول : اسمه، ونسبه، وكنيته .

هو العلامة الشيخ علي بن سلطان محمد القاري الهروي، ثم المكي الحنفي، المعروف بـ" ملاّ علي القاري " المُكنى بأبي الحسن، الملقب بنور الدين[١] .

واختلف المترجمون له في إدخال "ابن" بين سلطان ومحمد .

فبعضهم أثبتها[٢]، وبعضهم لم يثبتها[٣]، وفصل الخطاب في ذلك هو

---

(١) انظر ترجمته في كل من: -

- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، لعبدالملك العصامي المكي (٤/٣٩٤) .
- وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي محمد أمين بن فضل الله (٣/١٨٥-١٨٦).
- والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (١/٤٤٥-٤٤٦) .
- والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، لأبي الطيب صديق بن حسن القنوجي (٣٩٨).
- وهدية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي (١/٧٥١-٧٥٣) .
- والأعلام، لخير الدين الزركلي (٥/١٢-١٣) .
- والمختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، للشيخ عبدالله مرداد أبو الخير (٢/٣١٨-٣٢١) .
- والبضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، للشيخ محمد عبدالحليم الجشتي (١/١-٢).
- والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث، لخليل إبراهيم قوتلاي (٤٢-٦٢) .

(٢) انظر: سمط النجوم للعصامي (٤/٣٩٤)، والبدر الطالع للشوكاني (١/٤٤٥) .

(٣) انظر: خلاصة الأثر للمحبي (٣/١٨٥)، وهدية العارفين للبغدادي (١/٧٥١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر (٢/٣١٨) .

ما ذكره القاري عن نفسه، فقد ورد اسمه على كثير من مصنفاته "علي بن سلطان محمد"[(١)].

وعلى هذا يكون اسم أبيه "سلطان محمد" وهو علم مركب من لفظين، وهذا جارٍ على عادة الأعاجم، فإن دأبهم جعل أكثر الأسماء مركبة نحو محمد صادق، ومحمد أسعد، ونحو ذلك[(٢)].

واشتهر علي بن سلطان بالقاري؛ لأنه اشتغل بعلم القراءات حتى صار حاذقاً فيها، عالماً بوجوه القراءات[(٣)].

قال الشيخ محمد عبدالحليم بن عبدالرحيم الجشتي: (وقرأ القرآن العظيم بمكة المكرمة على القراء الأجلاء، وأتقن الحفظ أبدع إتقان، وحفظ الشاطبية،

---

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر: مخطوطة أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (١/أ)، ومخطوطة شرح الأربعين النووية رقم اللوح (١/أ)، ومخطوطة تتميم المقاصد وتكميل العقائد رقم اللوح (١/أ)، وشرح الفقه الأكبر (٧)، والرد على القائلين بوحدة الوجود (١٣)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣/١)، والمصنوع في معرفة الحديث الموضوع (٤٣)، والمنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية (٢)، وتسلية الأعمى على بلية العمى (٢٣)، وفصول مهمة في حصول المتمة، تحقيق: مشهور حسن (٣٤)، وتحقيق: الكبيسي (٣٣)، وشفاء السالك في إرسال مالك (١٩)، ومعرفة النساك في معرفة السواك (٣٥)، وجمع الوسائل في شرح الشمائل (٢/١)، وفتح باب العناية بشرح النقاية (٣١/١) .

ففي هذه الكتب التي ذكرتها -وما لم أذكره من الكتب- نجد القاري ينص على اسمه بأنه (علي بن سلطان محمد القاري) دون إدخال (ابن) بين سلطان ومحمد. مما يدل على أن (سلطان محمد) علم مركب من لفظين .

(٢) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر، للشيخ عبدالله مرداد (٣٢١/٢)، والبضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، للشيخ محمد عبدالحليم الجشتي (١/١) .

(٣) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣٢١/٢) .

وقرأ السبعة من طريقها، وأتقن القراءات بوجوهها، وتلا ورتّل القرآن العظيم أحسن ترتيل، حتى اشتهر بالقاري) [١].

والقاري ذكر سنده للقراءات في آخر كتابه "المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية" حيث قال: (أما سندي في تحقيق القراءات، وتدقيق الروايات فعلى المشايخ العظام والقراء الكرام، من أجلهم في هذا الفن الشريف، وأكملهم شيخ القراء بمكة الغراء وحيد عصره، وفريد دهره، العالم العامل، والصالح الكامل الشيخ سراج الدين عمر اليمني الشوافي بلغه الله -سبحانه- المقام الوافي وجزاه عني وعن سائر المسلمين الجزاء الكافي. وقد قرأ على جماعة قرءوا على الإمام العلامة محمد بن القطان خطيب المدينة المنورة وإمامها) [٢].

وقيل له: "الهروي"؛ نسبة إلى هراة، وهذه المدينة من أشهر مدن خراسان، والقاري نسب إليها؛ لأنه ولد فيها، ونشأ في ربوعها [٣].

و"المكيّ" : نسبة إلى مكة؛ حيث إن القاري رحل إليها، واستوطنها، وتشرف بالسكن في بلد الله الحرام، وتوفي بها [٤].

و"الحنفي" : نسبة إلى المذهب الذي كان يعتنقه وهو المذهب الحنفي [٥].

---

(١) البضاة المزجاة (٣/١) .

(٢) المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية (٨٢) .

(٣) انظر: الإمام القاري وأثره في علم الحديث، لخليل إبراهيم قوتلاي (٤٦-٤٧) .

(٤) انظر: خلاصة الأثر (١٨٥/٣)، سمط النجوم العوالي (٣٩٤/٤)، الفوائد البهية في تراجم الحنفية (٢٥) .

(٥) انظر: سمط النجوم العوالي للعصامي المكي (٣٩٤/٤)، وخلاصة الأثر للمحبي (١٨٥/٣)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥١/١) .

مذهب النعمان بن ثابت[1]، وقد نص القاري على ذلك في كتابه "فتح باب العناية بشرح النقاية"، فقال: (أما بعد، فيقول الملتجى إلى حرم ربه الباري، علي بن سلطان محمد القاري الحنيفي الحنفي، عاملهما الله بلطفه الخفي، وكرمه الوفي)[2].

وكلمة "مُلاّ" كلمة فارسية، يستخدمها أهل إيران، وتركستان، وتركيا، وأفغانستان، والهند، وباكستان. وقيل: هي عربية مأخوذةٌ من المولى، ومعناها العالم الكبير[3].

وكنيته أبو الحسن[4]، وقد نص القاري على اسم ولده هذا في شرحه لحديث أسامة بن زيد –رضي الله عنهما– قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: أن ابناً لي قبض فأتنا. فأرسل يُقرئ السلام، ويقول: « إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجلٍ مسمى، فلتصبر ولتحتسب »، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب،

---

(١) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ابن زُوَطي التيمي، الكوفي، مولى بني تيم بن ثعلبة، فقيه الملة، عالم العراق. ولد سنة (٨٠هـ)، وتوفي في ليلة النصف من شعبان سنة (١٥٠هـ). قال عنه الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة.

انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤٤٩/٨)، والسير (٣٩٠/٦-٤٠٣) .

(٢) (٣١/١)، وانظر: الاستدعاء في الاستسقاء (١٠) .

(٣) انظر: الإمام القاري وأثره في علم الحديث (٤٨) .

(٤) كما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١٠٥٠/١)، والكتاني السيد محمد بن جعفر كما في الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة (١١٥)، والسيد عبدالحي الكتاني الفاسي في التراتيب الإدارية (١٧/١) .

وزيد بن ثابت ورجالٌ، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع[(١)]، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: « هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده فإنما يرحم الله من عباده الرحماء » [(٢)].

قال القاري: (ومن الأمور الغريبة، والقضايا العجيبة أنه في أثناء كتابتي هذا الكتاب، وقع من قضاء رب الأرباب أن مات لي ابن اسمه حسن وفي الصورة والسيرة حاوي الفواضل، وجامع الفضائل، حسن الله مثواه، وزيّن مضجعه ومأواه، فحصل لي بهذا الحديث تعزية كاملة، وتسلية شاملة، ونرجو من الله حسن الخاتمة مع الإثابة التامة) [(٣)].

فما ذكره المترجمون له بأن كنيته أبو الحسن موافق لما ذكره القاري عن نفسه كما في هذه القصة، فاسم ابنه الحسن ثابت ببنان القاري كما سطره في مرقاته .

* * * * * *

(١) تتقعقع: أي تضطرب وتتحرك، ولا تثبت على حالة واحدة. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤/٨٨) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته » (١/٣٩٦/ رقم١٢٨٥). ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (/٦٣٥-٦٣٦/ رقم٩٢٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/٢٠٥) .

المبحث الثاني : ولادته، ونشأته .

اتفق جميع من ترجم للقاري بأنه ولد في مدينة "هراة"، ولكن لم تحدد تلك السنة التي ولد فيها القاري، فاكتفى جميع من ترجم له بذكر محل ولادته فقط[١].

أخذ القاري يطلب العلم على علماء هذه المدينة العريقة "هراة" فتعلم القرآن الكريم، وحفظه عن ظهر قلب، وجوده، وتلقى علومه الأساس فكون بنيته العلمية في تلك المدينة العريقة[٢] التي انتسب إليها جمع من أهل العلم والفضل[٣].

عزم القاري على الهجرة من بلدة "هراة" إلى بلد الله الحرام "مكة المكرمة" ليكون من أهل البيت وساكنيه، وذلك حينما تغلب الشاة إسماعيل الصفوي -الرافضي- على هراة في سنة (٩١٦هـ)، وأحدث فيها فتناً عظيمة من قتلٍ للمسلمين ظلماً وعدواناً، ومن نشرٍ لشعائر الرافضة، وإلزامٍ للعلماء بأن يظهروا هذه الشعائر على المنابر، حين ذاك اضطر كثيرٌ من العلماء، وطلاب العلم إلى الهجرة من بلد أهل البدعة والخرافة إلى بلد الإسلام والسنة، وكان من هؤلاء المهاجرين علي بن سلطان محمد القاري، فقد هاجر إلى مكة،

---

(١) انظر: خلاصة الأثر للمحبي (١٨٥/٣)، وسمط النجوم العوالي للعصامي (٣٩٤/٤)، والبدر الطالع للشوكاني (٤٤٥/٢)، وهدية العارفين (٧٥١/١-٧٥٣) .

(٢) انظر: البضاعة المزجاة (١/٢-٣)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر، للشيخ عبدالله مرداد (٣١٨/٢)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٥٢)، ومقدمة الكبيسي لكتاب القاري فصول مهمة في حصول المتمة (١٨).

(٣) انظر بعض أسماء هؤلاء الأعلام في: كتاب الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٤٧).

وطاب له المقام بها، بل وحمد الله على ذلك كما في رسالته "شم العوارض" حيث قال:

(الحمد لله على ما أعطاني من التوفيق، والقدرة على الهجرة من دار البدعة إلى خير ديار السنة، التي هي مهبط الوحي وظهور النبوة، وأثبتني على الإقامة من غير حول مني ولا قوة) [1].

وفي مكة المكرمة لازم القاري جماعة من علماء البلد الحرام، وأخذ عنهم العلم، ويأتي بمشيئة الله -تعالى- الكلام عن طلبه للعلم ورحلته في سيرته العلمية.

وأما ما يتعلق بمورد عيشه فالقاري كان متعففاً زاهداً فيما عند الناس، يأكل من عمل يده [2]، وقد ذكر بعض من ترجم له أنه كان يكتب كل عام مصحفاً بخطه الجميل وعليه طُرَرٌ [3] من القراءات والتفسير، فيبيعه، ويكفيه قوتاً له من العام إلى العام [4].

* * * * * *

---

(١) شم العواض (٩٤) .

(٢) ولعل القاري كان متأسياً بحديث « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ». أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (٢/٨٠/ رقم٢٠٧٢) .

(٣) الطرر: بالضم، جانب الثوب الذي لا هُدبَ له، وطرَّةُ النهر والوادي: شفيره، وطُرَّةُ كل شيء: حرفه، والجمع طُرَرٌ. انظر: الصحاح للجوهري (٢/٧٢٤-٧٢٥)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٥٥٣).

(٤) انظر: الأعلام للزركلي (٥/١٢)، ومقدمة المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (١٠)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٥٦-٥٧) .

المبحث الثالث : وفاته، وثناء العلماء عليه .

وفيه مطلبـــــــان :

- المطلب الأول: وفاتـــــــــه .
- المطلب الثاني: ثناء العلماء عليـــــه .

*   *   *   *   *   *

المطلب الأول: وفاته.

توفي القاري -رحمه الله- بمكة المكرمة في شهر شوال[١] سنة أربع عشرة وألف (١٠١٤هـ)[٢] على الصحيح[٣]، ودفن بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة، ويذكر المحبي[٤] أنه لما بلغ خبر وفاة القاري علماء مصر صلوا عليه بجامع الأزهر صلاة الغيبة في مجمع حافل يجمع أربعة آلاف نسمة فأكثر[٥].

وهذا الصنيع من علماء مصر يدل على أن القاري كانت له مكانة في نفوس العلماء، وأن شهرته قد بلغت الأقطار الإسلامية، رحمه الله القاري رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

* * * * * *

---

(١) انظر: خلاصة الأثر للمحبي (١٨٦/٣)، والتعليقات السنية على الفوائد البهية، لعبد الحي اللكنوي (٢٥)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٦٥).

(٢) انظر: البدر الطالع (٤٤٦/٢)، وهدية العارفين (٧٥١/١)، والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (٣٩٨)، وخلاصة الأثر (١٨٦/٣)، والتعليقات السنيّة على الفوائد البهية (٢٥).

(٣) وقيل: إنه توفي سنة (١٠١٠هـ)، وهذا يرده قول القاري في آخر كتابه عين العلم وزين الحلم (٣٩٠/٢) حيث قال: (وكان الفراغ منه على يد مؤلفه ... آخر يوم الخميس المشرف على ليلة الجمعة المسماة بليلة الرغائب من شهر الله المعظم رجب المرجب أحد الأشهر الحرم من شهور عام أربعة عشر بعد الألف من هجرة خير البشر).

وقيل: (١٠١٦هـ)، وقيل: (١٠٤٤هـ). وهذه التواريخ الثلاثة رفضها العلامة اللكنوي. انظر: الرفع والتكميل في الجرح والتعديل (٧٧).

(٤) هو محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد المحبي، الحموي الأصل، باحث أديب، عني كثيراً بتراجم أهل عصره، فصنف خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، توفي بدمشق سنة (١١١١هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٤١/٦).

(٥) خلاصة الأثر (١٨٦/٣).

المطلب الثاني : ثناء العلماء على القاري .

أثنى على العلامة القاري كثير من أهل العلم، فوصفوه بصفات حميدة منهم المحبي فقال فيه :

(أحد صدور العلم، فريد عصره، الباهر في التحقيق وتنقيح العبارات، وشهرته كافية عن الإطراء بوصفه) [١].

وقال أيضاً: (واشتهر ذكره، وطار صيته، وألف التآليف الكثيرة، اللطيفة التأدية، المحتوية على الفوائد الجليلة) [٢].

وقال العصامي[٣] في وصفه :

(الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع من السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولى الحفظ والأفهام) [٤].

وقال اللكنوي[٥] :

(وقد طالعت تصانيفه المذكورة)، وسرد بعضاً منها ثم قال: (وغير

---

(١) خلاصة الأثر (٣/١٨٥) .

(٢) المصدر السابق (٣/١٨٥) .

(٣) هو عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي، المؤرّخ، ولد في مكة سنة (١٠٤٩هـ)، وتوفي بها سنة (١١١١هـ). من مصنفاته: الفوائد والعوائد، وسمط النجوم العوالي. انظر: الأعلام للزركلي (٤/١٥٧-١٥٨) .

(٤) سمط النجوم (٤/٣٩٤) .

(٥) محمد عبدالحي بن محمد عبدالحليم الأنصاري اللكنوي الهندي، أبو الحسنات، عالم بالحديث والفقه والتراجم. من مؤلفاته: "الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة"، و"الفوائد البهية في تراجم الحنفية"، و"الرفع والتكميل في الجرح والتعديل". انظر: الأعلام للزركلي (٦/١٨٧).

ذلك من رسائل لا تعد ولا تُحصى، وكلها مفيدة، بلّغته إلى مرتبة المجدّديّة[١] على رأس الألف)[٢].

وقد أشار القاري إلى أنه مجدد عصره كما في كتابه "شم العوارض في ذم الروافض" فقال بعد ذكره لحديث « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها »[٣] ما نصّه :

(فوالله العظيم، ورب النبي الكريم، إني لو عرفت أحداً أعلم مني بالكتاب والسنة، من جهة مبناهما، أو من طريق معناهما لقصدتُ إليه -ولو حبواً- بالوقوف لديه، وهذا لا أقوله فخراً، بل تحدثاً بنعمة الله وشكراً، وأستزيد من ربي ما يكون لي ذخراً)[٤].

ونقله ابن عابدين[٥] في "تنبيه الولاة والحكام" ضمن رسائله، وعلق عليه بقوله: (وفي كلامه إشارة إلى أنه مجدد عصره، وما أجدره بذلك، ولا ينكر

---

(١) لا شك أن القاري كان من العلماء المشهورين والأخيار المعتبرين الذين أضافوا عشرات المؤلفات إلى المكتبة الإسلامية، والتي تدل على سعة علمه وتنوع ثقافته. لكنه -رحمه الله- لم يصفو له منهجه في الجانب العقدي لمخالفته السلف في بعض مسائل الاعتقاد وتأييده لبعض طرق الصوفية مما يعكر على دعواه التجديد رحمه الله، وعفا عنا وعنه، ورفع درجته في جنات النعيم .

(٢) الفوائد البهية (٢٥) .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤/٤٨٠/ رقم٤٢٩١). والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم (٤/٥٢٢). والحديث صححه العلامة الألباني رحمه الله . انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٥٠-١٥١/ رقم٥٩٩) .

(٤) شم العوارض (٧٤-٧٥) .

(٥) هو إمام الحنفية في عصره محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز عابدين الدمشقي، ولد في دمشق سنة (١١٩٨هـ)، وتوفي بها سنة (١٢٥٢هـ). من مصنفاته: "رد المحتار على الدر المختار"، و"الرحيق المختوم". انظر: الأعلام للزركلي (٦/٤٢).

عليه ما هناك إلا كل متعصب هالك) [١].

فهذه نبذ من أقوال أهل العلم في الثناء على القاري، وثمة أقوال أخرى تنتقد القاري، بل وتصف مصنفاته بأنها ليس عليها نور العلم! فمن ذلك ما قاله العصامي: (لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة، لا سيما الشافعي وأصحابه، واعترض على الإمام مالك في إرساله يديه؛ ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم! ومن ثم نهى عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء) [٢].

أقول: الناس في القاري قديماً وحديثاً بين الغالي والجافي، فمنهم من جفى في حق القاري ووصف كل كتبه بأنها ليس عليها نور العلم! ومنهم من غلا في كتب القاري ووصفها بأنها كلها مفيدة بلغته إلى مرتبة المجددية على رأس الألف، والحق في القاري أن لا نغلوا فيه ولا نجفوه بل إنه من العلماء المجتهدين، فما وافق فيه الحق قبلناه، وما خالفه رددناه، وبيّنا خطأه مع مراعاة الأدب في ذلك .

فالقاري له رسائل وكتب نافعة ومفيدة كرسالته "أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام"، و"سلالة الرسالة في ذم الروافض من أهل الضلالة"، و"فصول مهمة في حصول المتمة"، و"تطهير الطوية بتحسين النية"، إلى غير ذلك من كتبه، وله رسائل وكتب فيها الغث والسمين، كشرحه "عين العلم وزين الحلم"، وشرحه للفقه الأكبر، وتفسيره ومرقاته، وضوء المعالي، ونحو ذلك .

---

(١) مجموعة رسائل ابن عابدين (١/٣٦٨) .

(٢) سمط النجوم (٤/٣٩٤)، وانظر: خلاصة الأثر (٣/١٨٥) .

فإن هذه الكتب فيها حق وباطل، لا سيما ما يتعلق بصفات الله ﷻ، فإن القاري نحى فيها منحى أهل التأويل من الماتريدية[١]، والأشاعرة[٢] ومن ضاهاهم، كما ستراه في فصل الصفات، وطالب الحق يأخذ من كتب القاري ما وافق الكتاب والسنة، ويرد ما يخالفهما .

* * * * * *

---

(١) هم الذين ينتسبون إلى أبي منصور الماتريدي الحنفي، المتوفى سنة (٣٣٣هـ)، كان صاحب جدل وكلام، ولم يكن من أهل السنن والآثار، تابع ابن كلاب في مسائل من الصفات منها: القول بالكلام النفسي، والقول عن القرآن بأنه حكاية عن كلام الله .

انظر: الماتريدية دراسةً وتقويماً، للحربي (٧٩، ٢١٩، ٣٧٥)، والعقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية، للجديع (٢٧٩-٢٨٠)، والماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات، للشمس الأفغاني رحمه الله (١/٢٠٩-٢٥٥) .

(٢) اسم لفرقة تنتسب إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المتوفى في البصرة سنة (٣٢٤هـ). وذكر أهل العلم أن أبا الحسن الأشعري مرّ بأطوار ثلاثة: طور اعتزالي، وطور كلابي، وطور سلفي. وهذا هو الذي استقر عليه في آخر حياته.

انظر: مقدمة الشيخ حماد الأنصاري لكتاب "الإبانة عن أصول الديانة" لأبي الحسن الأشعري (٩-٤٢)، وتعليق الشيخ محب الدين الخطيب على المنتقى من منهاج الاعتدال، للذهبي (٤٤) هامش رقم (٢) .

الفصل الثالث:

سيرتـــــه العلميـــــة .

- وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: طلبه للعلم ورحلتـــــــه .
- المبحث الثاني: شيوخـــه وتلاميـــــذه :
- المبحث الثالث: ثقافتـــه ومؤلفاتـــــه .

* * * * * *

المبحث الأول : طلبه للعلم ورحلتــه .

اهتم القاري بالعلم وتحصيله منذ نعومة أظفاره، ويمكن تقسيم طلبه للعلم إلى قسمين :

الأول : طلبه للعلم في مسْقِطِ رأسه "هـــــراة" .

والثاني : طلبه للعلم في مُهاجره "مكـــة المكرمـــة" حيث أخذ عن زمرة من أهل العلم والتحقيق .

أما القسم الأول: وهو طلبه للعلم في مدينة "هراة"، فقد حفظ القـــاري القرآن في هذه الفترة، وتعلم علم التجويد، والقراءات، وتلقى مبادئ العلوم عن شيوخ عصره في بلده "هراة". ولهذا يقول الجشتي في القاري: (وقرأ الكتـــب الدراسية، وأخذ العلوم المتعارفة عن شيوخ عصره بهراة)[١].

ولكن لم تذكر المصادر التي بين أيدينا هؤلاء العلماء الذين أخذ عنـــهم القاري إلا ما ذكره القاري عن نفسه، فقد نص على بعض مشـــايخه منـــهم الشيخ معين الدين بن الحافظ زين الدين الهروي، فقد ذكره القاري في رســالته "شم العوارض" حيث قال: (أستاذي المرحوم في علم القراءة، مولانا معـــين الدين بن الحافظ زين الدين)[٢].

وكما نص على أستاذه ابن معين الدين بن الحافظ زين الدين الهـــروي حيث قال: (وكان ولد الخطيب -يقصد ابن معين الدين- الذي هو أســتاذي

---

(١) البضاعة المزجاة (١/٣) .

(٢) شم العوارض (   ) .

الأديب، كان يقول إن زيادة التعصب والعناد في هذه الطائفة اللعينة -يعني الرافضة- إنما وقعت من تعصبات الطائفة الأزبكية)[١].

وأما ما يتعلق بالقسم الثاني: وهو طلبه للعلم في مُهاجره مكة، فالكلام فيها يكون من جهتين : -

الأولى : رحلته إلى مكة : -

رحل القاري من بلده "هراة" -بعد أن أخذ عن جملة من العلماء بعض العلوم الشرعية- إلى مكة، حيث طاب له المقام بها، واستوطنها إلى أن توفي بها، ولكن لم تذكر لنا المصادر التي بين أيدينا تأريخ هذه الرحلة، ومتى قدم القاري مكة؟ ولكن من المؤكد أن القاري في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة (٩٣٥هـ) وما بعدها كان موجوداً بمكة؛ لأن أقدم مشايخه وفاة هو الشيخ محمد بن علي بن أحمد الجُناجي -كما ستأتي ترجمته في شيوخه[٢]- وقد كانت وفاة هذا العالم في السنة المذكورة، وأما احتمال وجوده قبل هذه السنة في مكة فهو وارد.

الثانية : طلبه للعلم بمكة : -

لّما استقرّ القاري بمكة أخذ يطلب العلم على علمائها، فقرأ القرآن على القراء الأجلاء، وأتقن الحفظ أبدع إتقان، وحفظ "الشاطبية"، وقرأ السبعة من طريقها، وأتقن القراءات بوجوهها، ثم بعد ذلك اشتغل بسماع الحديث، ودرس الفقه، والأصول، والتفسير، والتصوف، والمعقول حتى حذق فيها،

---

(١) شم العوارض ( ) .

(٢) انظر: (٣٦) .

وصار إماماً شهيراً، كما برع وحذق في علوم اللغة، والبلاغة، والنحو [١].

وأما هؤلاء الأعلام الذين أخذ عنهم القاري ببلد الله الحـــرام فســيأتي الحديث عنهم -بمشيئة الله تعالى- في المبحث الثاني .

* * * * * *

(١) انظر : البضاعة المزجاة (١/٣٠) .

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه .

وفيه مطلبان :

- المطلب الأول: شيوخه .
- المطلب الثاني: تلاميذه .

* *   * *   * *

المطلب الأول : شيوخـــه .

سبق أن ذكرت أن المصادر التي بين أيدينا لم تذكـــر شـــيوخ القـــاري الذين أخذ عنهم في مدينة "هراة" إلا ما ذكره عن نفسه من أنه أخـــذ علـــم القراءات والقرآن من الخطيب في جامع "هراة"، وعن ابن الخطيب المذكور.

وأما شيوخه الذين أخذ عنهم في "مكة المكرمـــة" فكثـــيرون، يتعـــذر استقصاؤهم؛ ذلك لأن القاري من منة الله عليه أنه استوطن بلـــد الله الحـــرام "مكة المكرمة" التي يقصدها الناس من كل فج عميـــق لأداء شـــعيرتين مـــن شعائر الإسلام الحج والعمرة .

وقد ذكر الله ﷻ أن من فوائد زيارة بيت الله الحرام أن فيه منافع كثـــيرة دينية، ودنيوية، كما قـــال تعـــالى ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ (١).

فـــ"منافع" : نكرة في سياق الامتنان، فتفيد العمـــوم منـــافع دينيـــة، ومنافع دنيوية، وإن من المنافع الدينية: هي قدوم العلماء لينهل طـــلاب العلـــم من علومهـــم.

ومما لا شك فيه أن القاري قد أخذ منهم بالحظ الوافر ما داموا بـــاقين في بلد الله الحرام إلى أن ينصرفوا إلى ديارهم وأوطـــانهم، كيـــف لا يكـــون القاري قد أخذ بالحظ الوافر وهو القائل عن نفسه بعدما بلغ من العلم ما بلـــغ

---

(١) سورة الحج، آية (٢٧-٢٨) .

أنه لو علم أن أحداً أعلم منه بالكتاب والسنة من جهة مبناهما، أو معناهما، لقَصَدَه ولو حبواً كما سبق النقل عنه .

والكلام عن هؤلاء الأعلام الذين أخذ عنهم القاري ببلد الله الحرام يطول جداً، وسأكتفي هنا بإيراد بعض هؤلاء الأعلام لاسيما المشهورين منهم :

١) ابن حجر الهيْتمي[١] :

هو العلامة الشيخ شهاب الدين أبو العباس، أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الوائلي السعدي الأنصاري، الشافعي المصري، ثم المكي الشهير بـ"ابن حجر الهيتمي" .

ولد سنة (٩٠٩هـ) في محلة أبي الهيتم من إقليم الغربية بمصر. أخذ العلم عن جملة من العلماء، منهم: شيخ الإسلام شهاب الدين الرملي[٢]. وأخذ عنه جملة من العلماء، ومن هؤلاء العلماء: علي بن سلطان محمد القاري، وقد نص القاري على ذلك في مرقاته، فقال عن شيخه ابن حجر: (شيخنا العالم العلامة، والبحر الفهامة، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، صاحب التصانيف الكثيرة، والتآليف الشهيرة، مولانا وسيدنا وسندنا، الشيخ شهاب الدين ابن حجر المكي)[٣].

---

(١) انظر ترجمته: خلاصة الأثر (١٦٦/٢)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي (٥٤١/١٠-٥٤٣)، والبدر الطالع (١٠٩/١)، ومعجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، لعمر رضا كحالة (١٥٢/٢) .

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب لابن العماد (٣٥٩/٨) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧٥/١) .

وكان القاري مع إجلاله لشيخه ابن حجر يتعقبه، ويناقشه إذا رأى أنه أخطأ[١]، ومن ذلك ما حصل من ابن حجر الهيتمي من تشنيعه على شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، ودفاع القاري عنهما كما يأتي بيانه في فصل الصفات [٢].

وله مصنفات كثيرة منها :

١- الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والضلال والزندقة .

٢- شرح الأربعين النووية .

٣- الزواجر عن اقتراف الكبائر .

٤- شرح المنهاج للنووي .

وتوفي ابن حجر الهيتمي -رحمه الله- سنة (٩٧٣هـ)، وقيل (٩٧٤هـ) بمكة المكرمة.

٢) علي المتقي الهندي[٣] :

هو العلامة المحدث الفقيه مسند الحرم، علي بن حسام الدين بن القاضي عبدالملك بن قاضي خان، القرشي، الحنفي، المشهور بـ"علي المتقي الهندي" كان على جانب كبير من التقوى والصلاح، ولذا سمي بالمتقي.

(١) البضاعة المزجاة للحشتي (٩/١) .

(٢) انظر: (٤٠٤-٤٠٧) .

(٣) انظر ترجمته في كل من: شذرات الذهب (٣٩٩/٨)، والأعلام للزركلي (٢٧١/٤)، والبضاعة المزجاة (٨/١) .

له مصنفات عديدة منها :

١- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال .

٢- مختصر النهاية لابن الأثير .

٣- ترتيب الجامع الصغير على أبواب الفقه .

توفي -رحمه الله- بمكة المكرمة سنة (٩٧٥هـ) .

وصفه القاري بالعالم العامل، والفاضل الكامل، فقال :

(قرأت هذا الكتاب المعظم -يقصد مشكاة المصابيح- على مشايخ الحرم المحترم، نفعنا الله بهم وببركات علومهم ... ومنهم العالم العامل، والفاضل الكامل، العارف بالله الولي، مولانا الشيخ علي المتقي)[١].

٣) عطية السلمي[٢] :

هو العلامة زين الدين عطية بن علي بن حسن السلمي المكي، مفسر مكة وفقيهها في عصره، المتوفى سنة (٩٨٢هـ) .

وقد أخذ عنه القاري علم الحديث، والتفسير، فقد قال القاري في حق شيخه عطية السلمي حينما سرد أسماء العلماء الذين قرأ عليهم المشكاة، فقال: (منهم فريد عصره، ووحيد دهره، مولانا العلامة الشيخ عطية السلمي)[٣].

من كتبه : تفسير القرآن العظيم .

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣/١) .

(٢) انظر ترجمته في: معجم المؤلفين لكحالة (٢٨٧/٦)، والأعلام للزركلي (٢٣٨/٤) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣/١) .

٤) عبدالله السندي[١] :

هو العلامة المحدّث المسند الشيخ عبدالله بن سعد الدين العُمَري، السندي، ثم المكي الحنفي، كان من العلماء المحققين، الذين قدموا إلى مكة المكرمة وطلب جوار البيت العتيق، انتفع بعلمه خلق كثير، ومن هؤلاء: العلامة القاري، حيث صرح باسمه، وأنه شيخه كما في "تتميم المقاصد" حيث قال:

(وقال شيخنا ومولانا عبدالله السندي -رحمه الله تعالى- على ما وجدنا بخطه)[٢].

وله جملة من المصنفات، منها :

١- حاشية على كتاب "مصباح الهداية ومفتاح الكفاية" للشيخ عز الدين محمود بن علي الكاشي .

٢- مجمع المناسك ونفع الناسك .

توفي السندي -رحمه الله- بمكة سنة (٩٨٤هـ) في شهر ذي الحجة .

٥) الجُناجي[٣] :

وهو الشيخ العلامة المسند شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن سالم الجُناجي -بجيمين الأولى مضمومة، بينهما نون مخففة- نسبة لجناج، قرية بين البحرارية، وسنهور من الغربية، ثم القاهري، الأزهري، المكي .

---

(١) شذرات الذهب (٤٠٣/٨)، البضاعة المزجاة (١/٩-١١) .

(٢) تتميم المقاصد الملحق بشرح الفقه الأكبر للقاري (٢٢٣) .

(٣) انظر ترجمته في: النور السافر (١٨٠)، وشذرات الذهب (٢٠٨/٨) .

وشمس الدين الجُناجي يعد من أقدم شيوخ القاري وفاة. وقد نص القاري على اسم شيخه هذا في مقدمة "مرقاة المفاتيح" حيث قال:

(وقد حصل لي إجازة عامة، ورخصة تامة من الشيخ العلامة علي[١] ابن أحمد الجُناني الأزهري، الشافعي، الأشعري، الأنصاري، وقد قال: قرأت على شيخ الإسلام، وإمام أئمة الأعلام، الشيخ جلال الدين السيوطي كتباً من الحديث، وغيره من العلوم: كالبخاري، ومسلم وغيرهما من الكتب الستة وغيرها، البعض قراءة، والبعض سماعاً، وقد أجازني بجميع مروياته، وبما قرئ به، وبما أجازه خاتمة المحدثين: مولانا الشيخ ابن حجر العسقلاني، قراءة وسماعاً، ورواية وإجازة)[٢].

وتوفي الجناجي –رحمه الله– بمكة سنة (٩٣٥هـ) .

* *　　* *　　* *

---

(١) قال الجشتي: (أظن أن هناك قد سقط من المطبوعة، بل من النسخ المخطوطة التي رأيتها في مكتبات باكستان الغربية اسم شيخ علي القاري محمد الذي أخذ عن: السخاوي، والسيوطي، والديمي، وغيرهم. وقد ثبت مكانه اسم أبيه وهو علي بن أحمد، ولم يكن هو مسنداً معروفاً وشيخاً له، وقد وقع التصحيف في نسبته الجناني والصحيح الجناجي كما ضبطه السخاوي في كتابه ضوء اللامع (١٦١/٨)) أهـ. البضاعة المزجاة (١/١٤-١٥).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٤/١) .

المطلب الثاني : تلاميذه .

القاري –رحمه الله– اهتم بجانبين من جوانب الدعوة إلى الله ﷻ :

الجانب الأول: التأليف، وهذا استغرق جل وقته، وأكبر شاهد على ذلك كتبه المطبوع منها والمخطوط .

والجانب الثاني الذي اهتم به القاري: جانب التدريس، فقد كان للقاري حلقات علمية يفد إليها الطلاب، ويستفيدون منها، ولا أدل على ذلك مما قاله القاري في كتابه "شم العوارض" : (إنه صدر عني في بعض مجالس درسي، ومجامع أنسي أن سب الصحابة ليس كفراً بالدليل القطعي، بل بالظني(١)، وإنما يقتل السَّبَّاب للأصحاب)(٢).

ومع شيوع هذه الحلقات العلمية، ومعرفة الخاص والعام للقاري، إلا أن المصادر التي ترجمت للقاري لم تذكر هؤلاء التلاميذ الذين أخذوا عنه في ترجمة القاري بل في تراجم أولئك التلاميذ .

فمن هؤلاء التلاميذ(٣) :

١) عبدالقادر الطبري(٤) :

هو الشيخ محي الدين عبدالقادر بن محمد بن يحيى بن مكرم الحسيني

---

(١) التفريق بين الدليل القطعي والظني مخالف لمذهب السلف. انظر: (٦٨) وما بعدها .

(٢) شم العوارض في ذم الروافض (٥٧) .

(٣) انظر: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث (٨٤–٩٠) .

(٤) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر للمحبي (٤٥٧/٢)، ومختصر نشر النور والزهر (٢٢٢/٢)، والبدر الطالع للشوكاني (٣٧١/١)، وهدية العارفين (٦٠٠/١)، والأعلام للزركلي (٤٤/٤).

الطبري المكي، الشافعي، الخطيب المفتي ببلد الله الحرام .

قرأ على جملة من علماء عصره، ومن هؤلاء العلماء الذين قرأ عليهم الشيخ علي بن سلطان القاري .

له عدة مصنفات، منها :

١- شرح قطعة من ديوان المتنبي .

٢- حسن السريرة في حسن السيرة .

٣- تفصيل المقالة في التفصيل بين النبوة والرسالة .

وتوفي الشيخ الطبري في ليلة عيد الفطر سنة (١٠٣٣هـ)، ودفن بالمعلاة.

٢) عبدالرحمن المُرشدي [1] :

هو الشيخ عبدالرحمن بن عيسى بن مرشد، العمري، الحنفي، المكي، الفقيه القاضي، نشأ بمكة وأخذ عن علمائها، ومن هؤلاء العلماء الشيخ علي بن سلطان القاري فقد جود عليه القرآن العظيم .

له عدة مصنفات منها :

١- براعة الاستهلال فيما يتعلق بالشهر والهلال .

٢- تعميم الفائدة بتتميم سورة المائدة من تفسير الجلالين .

٣- شرح عقود الجمان للسيوطي .

قتل خنقاً ليلة الجمعة الحادي عشر من ذي الحجة سنة (١٠٣٧هـ).

---

(١) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر (٣٦٩/٢)، والأعلام للزركلي (٣٢١/٣) .

٣) ابن فروخ المُورُوي [1] :

هو الشيخ محمد بن منلا فروخ بن عبدالمحسن بن عبدالخالق المـوروي، نسبة إلى "مورة" بلدة بالروم، المكي. ولد بمكة وبها نشأ، وأخذ عن علمائها منهم الملا علي القاري، وغيره .

له عدة مصنفات منها :

١- القول السديد في مسائل الاجتهاد والتقليد .

٢- إعلام القاصي والداني بمشروعية تقبيل الركن اليماني .

٣- رسالة في حكم صوم الست من شوال .

توفي ليلة الأحد السادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (١٠٦١هـ) بمكة المكرمة، ودفن بمقبرة المعلاة .

* * * * * *

(١) انظر: مختصر نشر النور والزهر (٢/٤٣٣) .

المبحث الثالث : ثقافته ومؤلفاته .

لقد أفنى القاري -رحمه الله- حياته في العلم والمعرفة، حتى اتسعت ثقافته في علوم شتى، فبرع في العلوم النقلية والعقلية، ولهذا يقول عبدالملك العصامي في وصفه :

(الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع في السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولى الحفظ والأفهام)[(١)].

ولسعة ثقافة القاري واطلاعه على كلام الأئمة المتقدمين والمتأخرين نجده لم يترك فناً من الفنون إلا كتب فيه بأسلوبه المتين الرصين، فألّف التآليف الكثيرة التي تُنبئ عن سعة ثقافته، وتمكنه من كثير من العلوم الإسلامة، فقد ألف في التوحيد -على ما فيه من الغث والسمين- ، وفي التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والسيرة النبوية، والتراجم، واللغة، والنحو.

ومن الصعب في هذا المقام حصر هذه الكتب[(٢)]، وسأقتصر في هذا المقام على بعض هذه الكتب، وفيما يلي قائمة ببعض أسماء هذه الكتب وبيان ما طبع منها وما هو مخطوط[(٣)].

---

(١) سمط النجوم العوالي للعصامي (٣٩٤/٤)، وانظر: خلاصة الأثر للمحبي (١٨٦/٣) .

(٢) وقد كفانا مؤنة الكلام على هذه الكتب ووجودها في مكتبات العالم، الباحث في مركز جمعه الماجد للثقافة والتراث، قسم المخطوطات، محمد عبدالرحمن الشماع .

انظر: مجلة آفاق الثقافة والتراث - ع (١) - المحرم ، ١٤١٤/ يونيو ١٩٩٣م، (٦٢-٩٥).

والباحث خليل إبراهيم قوتلاي، في كتابه "الإمام على القاري وأثره في علم الحديث" (١١٥) وما بعدها .

(٣) رمزت للمطبوع بحرف "ط"، وللمخطوط بحرف "خ" .

❖ أ) مؤلفاته في التوحيد : -

١- "الأجوبة المحرّرة في البيضة الخبيثة المنكرة" [(١)] خ .

٢- "أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام" [(٢)] ط .

٣- "تتميم المقاصد وتكميل العقائد" [(٣)] ط .

٤- "الذخيرة الكثيرة في رجاء المغفرة للكبيرة" [(٤)] ط .

---

(١) انظر: هدية العارفين (١/٧٥١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٠) .

(٢) انظر: خلاصة الأثر للمحبي (٣/١٨٦)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٠).

وهذه الرسالة طبعت في مكة المكرمة، في المطبعة السلفية عـام ١٣٥٣هـ. وطبعـت أخـيراً بتحقيق مشهور بن حسن بن سلمان، في مكتبة الغربـاء الأثريـة، ط: الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٣) انظر: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٠) .

وقد طبع الكتاب برمّته مع "شرح الفقه الأكبر"، تحقيق: علي محمـد دنـدل، دار الكتـب العلمية، ط: الأولى (١٤١٦هـ- ١٩٩٥م)، ولكن المحقق لم يُشر إلى أن هذا الكتاب مسـتقل ألفه القاري بعد شرحه للفقه الأكبر، وكان الغرض منه كما قال القاري (١٩٤): (لتتم بهـا المقاصد وتكمل بها العقائد).

فالقاري لما انتهى من شرحه للفقه الأكبر أحب أن يلحق مسائل تتعلق بالاعتقاد لم تذكـر في شرح الفقه الأكبر لتتم الفائدة، وضمن هذا الكتاب تعرض القاري لشرح ألفاظ الكفر لابـن رشيد، ويأتي الكلام على هذا الشرح قريباً بمشيئة الله تعالى .

(٤) انظر: إيضاح المكنون (١/٥٤١)، وهدية العارفين للبغـدادي (١/٧٥٢)، والإمـام علـى القاري وأثره في علم الحديث (١٢١) .

طبعت هذه الرسالة في المكتـب الإسـلامي، دار عمـار، الأردن، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، بتحقيق مشهور حسن .

٥- "رد الفصـــــوص"[١] ط .

٦- "سلالة الرسالة في ذم الروافض من أهل الضلالة"[٢] ط .

٧- "شرح رسالة ألفاظ الكفر لابن رشيـــد"[٣] ط .

---

(١) هذا الكتاب رد به القاري على "فصوص الحِكَم" لابن عربي .

انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبـــدالله مرداد (٣٢٠/٢).

وهذه الرسالة طبعت بتحقيق: علي رضا بن عبدالله بن علي رضا، باسم "الرد على القـــائلين بوحدة الوجود"، دار المأموم للتراث، دمشق، ط: الأولى، (١٤١٥هـ- ١٩٩٥م).

(٢) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والبضاعة المزجاة (٨٩/١)، والإمام علي القـــاري وأثره في علم الحديث (١٢٢) .

وهذه الرسالة مختصرة من كتاب "شم العوارض في ذم الروافض" للمؤلف، كما نص علـــى ذلك القاري في كتابه "شرح الشفاء" (٥٥٥/٢) .

هذه الرسالة طبعت بتحقيق مشهور حسن، في دار عمـــار، الأردن، ط: الأولى، (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م).

(٣) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبـــدالله مرداد (٣١٩/٢)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٢٢) .

وهذه الرسالة موجودة في كتاب "تتميم المقاصد وتكميــــل العقـــائد" للقـــاري،كمـــا في المخطوطة التي بين يدي، والتي مصورة من المكتبة المحمودية برقم (٢٧٣٦/٦) -

فالقاري لما تكلم على مسألة المرتد هل تقبل توبته أم لا؟ وذكر أقوال أهل العلـــم في هـــذه المسألة، ذكر بعد ذلك أن العلامة ابن رشيد جمع أكثر الكلمات الكفرية، فأحب القـــاري في هذا المقام أن يشرح هذه الرسالة فشرحها ضمن كتابه "تتميم المقاصد وتكميل العقائد".

ورسالة "شرح ألفاظ الكفر لابن رشيد" أخذت أطروحة دكتوراة للباحث: الطيب بن عمـــر ابن الحسين بن عمر. ولم يتنبه الباحث إلى أن هذه الرسالة مأخوذة من كتاب "تتميم المقاصد وتكميل العقائد"، والعجب من الباحث أنه عرَّف بكتاب "تتميم المقاصد وتكميل العقـــائد"، بل وذكر أنه يوجد منه نسخة في المكتبة المحمودية برقم (٢٧٣٦/٦) في (٤٠ق)، ولو رجـــع لهذه المخطوطة لوجد كتابه الذي يقوم بتحقيقه موجوداً برمّته في "تتميم المقاصد وتكميـــــل =

٨- "شرح الفقه الأكبر" [(١)] ط .

٩- "شم العوارض في ذم الروافض" [(٢)] ط .

١٠- "ضوء المعالي لبدء الأمالي" [(٣)] ط .

١١- "القول السديد في خُلْف الوعيد" [(٤)] ط .

= العقائد"، بل إنه لو رجع لآخر كتاب "شرح الفقه الأكبر" للقاري، بتحقيق: علـــي محمـــد دندل، لوجد كتابه الذي يقوم بتحقيقه موجوداً في "تتميم المقاصد وتكميل العقائد"!.

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والأعلام للزركلي (١٣/٥)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبد الله مرداد (٣١٩/٢)، والإمام على القاري وأثره في علـــم الحديـــث (١٢٣).

طبع هذا الكتاب في دلهي عام (١٣١٤هـ)، ومطبعة التقدم في القاهرة ســنة (١٣٢٣هـ)، وفي المطبعة الميمنية سنة (١٣٢٧هـ)، ومطبعة مصطفى البابي الحلبي دون تـــاريخ، ودار الكتـــب العلمية، بيروت سنة (١٤٠٤هـ) مصورة الطبعة المصرية .

وطبع أخيراً في دار الكتب العلمية، بـــيروت - لبنـــان، ط: الأولى، (١٤١٦هـ- ١٩٩٥م)، تحقيق: علي محمد دندل .

(٢) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والبضاعة المزجاة للحشتي (٨٩/١)، والإمام علـــى القاري وأثره في علم الحديث (١٢٣) .

طبعت هذه الرسالة في السعودية، نشر دار الهجرة، ســـنة (١٤١٠هـ)، بتحقيـــق: مشـــهور حسن.

(٣) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والأعلام للزركلي (١٣/٥).

طبع هذا الكتاب في المطبعة العامرة في استنبول سنة (١٣١٩هـ)، ومصطفى البابي الحلبي ســـنة (١٣٤٩هـ)، وأخيراً طبع بعنوان "شرح ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي" بتعليق صـــالح فرفور، في دمشق سنة (١٣٧٩هـ) .

(٤) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، وكشف الظنـــون (١٣٦٤/٢)، والإمـــام علـــي القاري وأثره في علم الحديث (١٢٤). =

١٢- "كشف الخدر في حال الخضر" [١] ط .

١٣- "المشرب الوردي في مذهب المهدي" [٢] ط .

١٤- "المقدمة السالمة في خوف الخاتمة" [٣] ط .

❖ ب) مؤلفاته في التفسير وعلوم القرآن : -

١٥- "أنوار القرآن وأسرار الفرقان" [٤] خ .

=

وقد طبع هذا الكتاب في دار الصحابة للتراث بطنطا، بقسم التحقيق بالدار، ط: الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م .

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢).

وقد طبع الكتاب في قازان في روسيا قديماً، بدون تاريخ .

(٢) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣٢٠/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٦).

وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة محمد شاهين، القاهرة، ١٢٧٨هـ- ١٨٦١م .

(٣) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (١٨٠٢/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٦) .

وقد طبع هذا الكتاب في المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩، تحقيق: مشهور حسن .

(٤) انظر: الأعلام للزركلي (١٢/٥)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤٠) .

ويوجد عندي نسخة من هذا التفسير مصورة من قسم المخطوطات جامعه أم القرى، من أول الفاتحة إلى الإسراء، ونسخة مصورة من قسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، من أول الكهف إلى آخر الناس .

١٦- "الجمالين على الجلالين" [(١)] خ .

١٧- "حاشية على تفسير البيضاوي" [(٢)] خ .

١٨- "العلامات البينات في بيان بعض الآيات" [(٣)] خ .

١٩- "المسألة في البسملة" [(٤)] خ .

٢٠- "شرح الشاطبيــة" [(٥)] ط .

٢١- "الفيض السماوي في تخريج قراءات البيضاوي" [(٦)] خ .

٢٢- "المنح الفكرية بشرح المقدمة الجزرية" [(٧)] ط .

---

(١) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٨/٢)، والأعلام للزركلي (١٣/٥)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٤٠-١٤١) .

ويوجد عندي نسخة كاملة لهذا التفسير مصور من قسم المخطوطات بمكتبة الحرم المكي.

(٢) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٤١) .

(٣) انظر: هدية العارفين (٧٥٢/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٤٢).

(٤) انظر: هدية العارفين (٧٥٣/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٤٢).

(٥) انظر: سمط النجوم العوالي للعصامي (٣٩٤/٤)، والبضاعة المزجاة لمحمد عبدالحليم الجشتي (٨٦/١). وقد طبع في المطبعة العامرة، سنة (١٣٠٢هـ) .

(٦) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤٣).

(٧) انظر: البضاعة المزجاة (٨٦/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٤٣-١٤٤).

وطبعت هذه الرسالة في مصر سنة (١٣٠٢هـ- ١٨٨٤م)، وفي قازان في روسيا سنة (١٨٨٧م)، وفي مكة المكرمة سنة (١٣٠٣هـ- ١٨٨٥م)، وفي مصر في المطبعة الميمنية سنة (١٣٠٨هـ- ١٨٩٠م)، وفي دار إحياء الكتب العربية سنة (١٣٤٤هـ- ١٩٢٥م)، وفي مكتبة مصطفى البابي الحلبي سنة (١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م)، وفي بومباي سنة (١٩٦٧م). انظر: =

٢٣- "الهبات السنية العلية على أبيات الشاطبية الرائية" [١] خ .

❖ جـ) مؤلفاته في الفقه : -

٢٤- "الاستدعاء في الاستسقاء" [٢] ط .

٢٥- "شفاء السالك في إرسال مالك" [٣] ط .

٢٦- "فتح باب العناية بشرح كتاب النُقاية" [٤] ط .

٢٧- "الفصول المهمة في حصول المتمة" [٥] ط .

= مقدمة المحقق على كتاب أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام (٥٣).

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والبضاعة المزجاة (٩١/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٤٤) .

وقد أخذ هذا الكتاب أطروحة دكتوراة للباحث: عبدالرحمن السديس، في جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة .

(٢) انظر: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٧) .

طبعت هذه الرسالة في المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، بتحقيق مشهور حسن .

(٣) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (١٠٥٠/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١).

وطبعت هذه الرسالة في المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، بتحقيق: مشهور حسن .

(٤) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١).

وقد طبع المجلد الأول منه بتحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، عام (١٣٨٧هـ) .

وطبع أخيراً كاملاً باعتناء: محمد نزار تميم، وهيثم نزار تميم، شركة دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م .

(٥) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/٢)، والأعلام للزركلي (١٢/٥).

=

٢٨- "معرفة النساك في معرفة السواك" [١] ط .

٢٩- "تطهير الطوية بتحسين النية" [٢] ط .

٣٠- "تزيين العبارة لتحسين الإشارة" [٣] ط .

❖ د) مؤلفاته في الحديث وعلومه : -

٣١- "الأحاديث القدسية الأربعينية" [٤] ط .

= وقد طبعت هذه الرسالة بتحقيق مشهور حسن، المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م .

وطبعت أيضاً بتحقيق الدكتور: أحمد عبدالرزاق الكبيسي سنة (١٤٠٩هـ)، بمطابع الصفا في مكة المكرمة .

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، وإيضاح المكنون (٥١٣/٢) .

وقد طبعت هذه الرسالة، بتحقيق: نظر محمد الفريابي، دار الراية للنشر والتوزيع، ط: الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م .

وطبعت أخيراً بتحقيق مشهور حسن، المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩١م .

(٢) انظر: إيضاح المكنون (٢٩٤/١)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٥٦-١٥٧) .

(٣) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١). وقد أشار الباحث خليل إبراهيم قوتلاي في كتابه "الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث" (١٣٠) إلى أن هذه الرسالة طبعت بكاملها ضمن مجموعة رسائل ابن عابدين، وتبعه على ذلك الباحث: الطيب بن عمر بن الحسين في تحقيقه كتاب "شرح القاري لرسالة ألفاظ الكفر لابن رشيد"، وليس الأمر كذلك، بل إن ابن عابدين نص على أنه نقل بعض عبارات القاري، ولهذا قال بعد ذكره لاسم ذلك الكتاب والثناء على مؤلفه (فأردت أن أنقل بعض عباراته المهمة ...). انظر: مجموعة رسائل ابن عابدين (١٣٠/١) .

(٤) انظر: الأعلام للزركلي (١٣/٥)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبدالله مرداد =

٣٢- "الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى" [1] ط.

٣٣- "جمع الوسائل في شرح الشمائل" [2] ط.

٣٤- "شرح الشفاء" [3] ط.

(٣١٩/٢)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (٤٢٣).

وهذه الرسالة طبعت في استنبول سنة (١٣٢٤هـ)، وفي حلب سنة (١٣٤٥هـ).

وطبع أخيراً في مؤسسة الكتب الثقافية، ط: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، بتحقيق: كمال ابن بسيوني الأبياني المصري، ضمن كتابه معجم الأحاديث القدسية الصحيحة.

وطبع الكتاب أيضاً بتحقيق: أبو إسحاق الحويني، نشرته مكتبة الصحابة، جدة، بدون تاريخ الطبعة.

(١) انظر: البضاعة المزجاة (٨٧/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (٢٢٧-٢٢٩).

طبع هذا الكتاب بتحقيق: الأستاذ محمد الصباغ في عام (١٣٩١هـ - ١٩٧١م)، بمطابع دار القلم، بيروت، ونشرته دار الأمانة، ومؤسسة الرسالة، بيروت.

وطبع أخيراً بتحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، نشرته دار الكتب العلمية، بيروت، وللكتاب عدة طبعات أخرى. انظر: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٣٠).

(٢) انظر: خلاصة الأثر للمحبي (١٨٥/٣)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (٣٤٨-٣٤٩).

طبع في الأستانة سنة (١٢٩٠هـ)، وطبع أيضا على جزيين وبهامشه "شرح الشيخ عبدالرؤوف المناوي على الشمائل" بالمطبعة الأدبية بمصر، في سنة (١٣١٧هـ).

وطبع مرة أخرى بالمطبعة الشرفية، على نفقة مصطفى البابي الحلبي بمصر، في (١٣١٨هـ)، ومن ثم صُوّر في دار الأقصى، بدون تاريخ الطبعة.

(٣) انظر: خلاصة الأثر للمحبي (١٨٥/٣)، وسمط النجوم للعصامي (٣٩٤/٤)، والأعلام للزركلي (١٢/٥).

طبع عدة طبعات، ومن هذه الطبعات ما طبع في المطبعة العثمانية في استنبول عام

٣٥- "شرح نخبة الفكر" [١] ط .

٣٦- "المبين المعين لفهم الأربعين" [٢] ط .

٣٧- "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" [٣] ط .

* *　　* *　　* *

(١٣١٩هـ)، ومن ثم صور في دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، بدون تاريخ .

انظر هذه الطبعات في كتاب "الإمام على القاري وأثره في علم الحديث" (٣٧٣-٣٧٤).

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والبضاعة المزجاة لمحمد الجشتي (٨٦/١)، والتعليقات السنية على الفوائد البهية للكنوي (٢٥)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٧٤-١٧٧) .

طبع الكتاب في مطبعة "أُخُوت" باستنبول، في سنة (١٣٢٧هـ)، وصوّرته دار الكتب العلمية، بيروت، عام (١٣٩٨هـ) .

وطبع الكتاب أخيرا بتحقيق: محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، في شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة، بدون تاريخ الطبعة .

(٢) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والأعلام للزركلي (١٣/٥)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (٤١٠) وما بعدها .

وقد طبع الكتاب في المطبعة الجمالية بمصر، سنة (١٣٢٧هـ)، ثم طبع أيضاً سنة (١٣٢٩هـ) بمصر. ويوجد عندي منه نسخة مخطوطة مصورة من مركز الملك فيصل للبحوث العلمية.

(٣) انظر: سمط النجوم العوالي للعصامي (٣٩٤/٤)، والبدر الطالع للشوكاني (٤٤٥/١)، والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول للقنوجي (٣٩٨)، والأعلام للزركلي (١٢/٥)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (٣٠٠-٣٠٦) .

وقد طبع الكتاب في المطبعة الميمنية في القاهرة، سنة (١٣٠٩هـ)، وفي مطبعة المعارف في باكستان، سنة (١٣٩٢هـ) نشرته المكتبة الإمدادية، ومن ثمّ صوّر في بيروت، سنة (١٤١٢هـ)، بتعليق صدقي محمد جميل العطار .

الفصل الرابع :

منهج القاري في الاستدلال على مسائل العقيدة .

وفيه مبحثـــــان :

- المبحث الأول: قواعد القاري في الاستـــــــدلال .

- المبحث الثاني: عرض القواعد التي ذكرها القاري على منهج السلف .

* * * * * *

المبحث الأول: قواعد القاري في الاستدلال .

لقد تعددت الطرق، واختلفت المناهج في الاستدلال على مسائل العقيدة[(١)]، فقد ذهب فئام من الناس إلى تقديم الجانب العقلي على الجانب السمعي فضلوا، وأضلوا، وانتهى الأمر بكثير منهم إلى الشك والحيرة، كما يأتي بمشيئة الله ذكر نماذج منهم .

والذي يهمنا الآن في هذا المقام هو منهج القاري في الاستدلال على مسائل العقيدة ويمكن أن أجمل كلام القاري في جملة من القواعد التي تؤخذ من كلامه -رحمه الله- ثم أبين بعد ذلك -بمشيئة الله تعالى- هل هذه القواعد التي ذكرها القاري موافقة لما عليه أهل السنة والجماعة أم لا؟ في المبحث الثاني.

* *　　* *　　* *

القاعدة الأولى: تقريره أن الاعتماد في مسائل العقيدة إنما هو على النقل[(٢)].

قال القاري في أثناء ردّه على رسالة لابن كمال الباشا[(٣)] في أبوي

---

(١) انظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات، للدكتور أحمد بن عطية الغامدي (٨٥) .

(٢) يقصد بالنقل: الكتاب والسنة؛ لأنهما منقولان عن الرسول ﷺ، وينقله الناس خلفاً عن سلف .

أما الكتاب فمنقول كله بالتواتر، وأما السنة فنمها ما نقل بالتواتر، ومنها ما نقل عن طريق الآحاد. انظر: تقريب الأصول إلى علم الأصول للغرناطي (٢٦٨، ٢٨٥)، والنكت على نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (٥٨-٦٢) .

(٣) هو أحمد بن سليمان بن كمال باشا، شمس الدين، قاضي، من العلماء بالحديث ورجاله، =

النبي ﷺ: (قلت: ما ثبت بالكتاب والسنة يجب اعتقاده مجملاً ومفصلاً)[١].

وقال أيضاً في تفسيره لقوله تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[٢] : (﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ أي: كونوا على وفق الكتاب والسنة)[٣].

وقال أيضاً في الرد على القائلين بوحدة الوجود :

(فإن كنت أيها الأخ من المجتهدين فاعمل بما في الكتاب والسنة من أمر الدين، وإن كنت من المقلدين فتقلد قول العلماء العاملين، والمشايخ الكاملين، المجمع على ديانتهم، وتحقيق أمانتهم، وتصديق إمامتهم عملاً بقوله ﷺ: « عليكم بالسواد الأعظم »[٤]. والحاصل أنه لا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر الاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فقد روى

تركي الأصل، مستعرب، له تصانيف كثيرة منها: "طبقات الفقهاء"، و"طبقات المجتهدين" و"رسالة في الجبر والقدر" .

انظر: الأعلام للزركلي (١/١٣٣)، وهدية العارفين للبغدادي (١/١٤١).

(١) أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول ﷺ (١٤١) .

(٢) سورة آل عمران، آية (٣٢) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٩٠/ب) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (٢/١٣٠٣/ رقم٣٩٥٠) .

وفيه: أبو خلف الأعمى وهو متروك، ورماه ابن معين بالكذب. انظر: تقريب التهذيب (٦٣٧/ رقم٨٠٨٣) .

وقال الألباني رحمه الله : ضعيف جداً . انظر: ضعيف سنن ابن ماجه (٣١٨)، والضعيفة رقم (٢٨٩٦) .

البخاري[١] عن الزهري[٢] أنه قال: « من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم »[٣]، وهذا الكلام جامع مانع، وعن جميع البدع مانع، فمن رام علم ما أخطر عن علمه، ولم يقنع بالتسليم بما فهمه حَجَبَهُ مرامهُ عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح التفريد، ولم يترق إلى مقام التحقيق بل تنزل إلى حضيض التقليد، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[٤]، وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق كما قال ابن المبارك[٥]:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك إحسانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها)[٦]

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبه البخاري، أخذ الحديث عن مشاهير الحفاظ، وأخذ عنه الحديث خلق كثير. له من المصنفات: "الجامع الصحيح"، و"التاريخ الكبير". توفي سنة (٢٥٦هـ). انظر: السير (٣٩١/١٢) .

(٢) هو الإمام أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب القرشي الزهري، من أحفظ أهل زمانه للسنن وأحسنهم لها سياقاً، وكان فقيهاً فاضلاً، مات سنة (١٢٤هـ).
انظر: مشاهير علماء الأمصار لابن حبان البستي (٦٦) .

(٣) ذكره البخاري في صحيحه، معلقاً مجزوماً به، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٤١٢/٤)، ووصله الحميدي وغيره. انظر: فتح الباري لابن حجر (٥١٣/١٣) .

(٤) سورة القصص، آية (٥٠) .

(٥) هو شيخ الإسلام، عالم زمانه، أمير المؤمنين في الحديث، أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك الحنظلي التميمي بالولاء، ولد سنة (١١٨هـ)، وتوفي سنة (١٨١هـ). انظر: السير (٣٧٨/٨).

(٦) الرد على القائلين بوحدة الوجود (٤٧-٤٩) .

وقال أيضاً في شرح الفقه الأكبر: (ثم العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع الذي هو الأصل، وإن كانت مما يستقل فيه العقل، وإلا فعلم إثبات الصانع وعلمه وقدرته لا تتوقف من حيث ذاتها على الكتاب والسنة، ولكنها تتوقف عليهما من حيث الاعتداد بها؛ لأن هذه المباحث إذا لم يعتبر مطابقتها للكتاب والسنة كانت بمنزلة العلم الإلهي للفلاسفة فحينئذٍ لا عبرة بها على ما ذكره المحققون)[1].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾[2]: (﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: مبناه ومعناه، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: السنة... ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: بالفكر، والنظر أن لا طريق إلى معرفته سوى الوحي والخبر)[3].

نصوص القاري السابقة تدل على أنه يعتمد على السنة -في باب الاعتقاد- سواء كانت متواترةً أو آحاداً. فهل هذا الإطلاق مراد القاري أم أن القاري يريد بالسنة -التي يعمل بها في باب العقائد- إنما هي السنة المتواترة؟.

هذا ما يتبين من القاعدة الثانية بمشيئة الله تعالى.

* *   * *   * *

---

(١) شرح الفقه الأكبر (٢٤).

(٢) سورة البقرة، آية (١٥١).

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٩/ب - ٤٠/أ).

القاعدة الثانية : أخبار الآحاد عند القاري لا يحتج بها في العقائد .

قال القاري بعد أن أورد كلام الإمام أبي حنيفة في أن أبوي رسول الله ﷺ ماتا على الكفر : (فأقول -وبحوله أصول- إن هذا الكلام من حضرة الإمام لا يتصور في هذا المقام، لتحصيل المرام، إلا أن يكون قطعي الدراية، لا ظني الرواية؛ لأن في باب الاعتقاد لا يعمل بالظنيات، ولا يكتفى بالآحاد من الأحاديث الواهيات، والروايات الوهميات)[(١)].

وقال أيضاً: (واعلم أن ما جاء في كلام الإمام الأعظم، وغيره من علماء الأنام من تكفير القائل بخلق القرآن فمحمول على كفران النعمة لا كفر الخروج من الملة ... وأما حديث « من قال إن القرآن مخلوق فقد كفر »[(٢)]، فغير ثابت مع أنه من الآحاد، وقابل للتأويل في بيان المرام)[(٣)].

فالقاري يرى أن هذا الحديث لو فرض ثبوته فإنه لا يعمل به لأنه خبر آحاد؛ ولهذا قال في موضع آخر من شرحه للفقه الأكبر: (فإن الآحاد لا تفيد الاعتماد في الاعتقاد)[(٤)].

* *　　* *　　* *

---

(١) أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول ﷺ (٦٢-٦٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٣٧٣/١) عن أبي الدرداء، وقال: (ورُوي ذلك عن معاذ بن جبل، وعبدالله بن مسعود، وجابر بن عبدالله ﷺ مرفوعاً، ولا يصح شيء من ذلك، أسانيده مظلمة، لا ينبغي أن يحتج بشيء منها، ولا أن يستشهد بشيء منها). وقد حكم بوضع هذا الحديث ابن الجوزي وتبعه الصغاني. انظر: كشف الخفاء للعجلوني (٩٤-٩٥).

(٣) شرح الفقه الأكبر (٥٢) .

(٤) شرح الفقه الأكبر (١٠١)، وانظر: شرح القاري على شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر (٢١٢)، وشرح الفقه الأكبر (١٨٩) .

القاعدة الثالثة : تقديم النقل على العقل عند توهم التعـارض .

من القواعد التي قررها القاري في بعض كتبه قاعدة: تقديم النقل على العقل عند توهم التعارض، وإليك نص عبارته .

قال القاري: (من القواعد أن معارضة النص بالدليل العقلي غير مقبول عند الأعيان)[١].

وقال أيضاً: (لا عبرة بقول من يقول العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل، والعقل أصل النقل، فإذا عارضه قدمنا العقل، بل إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل؛ لأن النقل في نفس الأمر لا يكون مطابقاً للعقل، فإن العقول مختلفة ولذا ترى أصحابها متفرقة؛ ولذا قيل في المثل: العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد)[٢].

وقال أيضاً: (ومن جملة العلوم المذمومة علم المنطق الذي هو يسمى بدهليز الكفر، فقد صنف شيخ مشايخنا جلال الدين السيوطي[٣] رسالة مستقلة في تحريمه، ونقل عن الأئمة الأربعة ما يدل على تسليمه)[٤].

---

(١) شرح ضوء المعالي (١٣٦) .

(٢) الرد على القائلين بوحدة الوجود (٤٦-٤٧) .

(٣) هو الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد السيوطي، ولد بالقاهرة ليلة الأحد مستهل رجب سنة (٨٤٩هـ). صنف التصانيف الكثيرة، حتى بلغت مصنفاته نحو (٦٠٠) ما بين رسائل في ورقة أو ورقتين، وكتب في عدة مجلدات. توفي سنة (٩١١هـ). انظر: مقدمة ذيل تذكرة الحفاظ (٥/٦-١٠).

(٤) شرح عين العلم وزين الحلم (١/٤٣) .

وقال أيضاً في معرض تحذيره من علم الكلام :

(فالواجب على المسلمين أجمعين اتباع سيد المرسلين المطابق لما جاء به عقيدة سائر النبيين، وعين التبيين للكتاب المبين، وقد بيّن سبحانه أمره وعظيم شأنه، وقدره حيث أقسم بنفسه فقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[1]، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره وأنهم إذا دعوا إلى الله، أي: كتابه، ورسوله، أي: حكمه، صدوا عنه صدوداً أي: أعرضوا عنه إعراضاً مبعوداً، وأنهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً، وإيقاناً وتحقيقاً، كما يقوله كثير من المتكلمين، والمتفلسفة وغيرهم: إنما نريد أن نحسن الأشياء بالجمع بين كلام الأنبياء والحكماء. وكما يقوله كثير من المبتدعة من المتنسكة إنما نريد الإحسان بالجمع بين الإيمان والإيقان، والتوفيق بين الشريعة والطريقة والحقيقة، ويدسون فيها دسائس مذاهبهم الباطلة ومشاربهم العاطلة ... فكل من طلب أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما ثبت عن النبي الأمين ﷺ، ويظن أن ذلك مستحسن في باب اليقين، وأن ذلك جامع بين ما جاء به الرسول ﷺ وبين ما يخالفه من العقول، فله نصيب من ذلك، وحرام عليه الترقي إلى ما هنالك إذ ما جاء به الرسول ﷺ كافٍ شافٍ كامل، تبين فيه حكم كل حق وباطل)[2].

وقال أيضاً: (وخلاصة الكلام وسلالة المرام أن العقائد الصحيحة، وما يقويها من الأدلة الصريحة كما تؤثر في قلوب أهل الدين، وتثمر كمال الإيمان

---

(١) سورة النساء، آية (٦٥) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (١٩) .

واليقين، كذلك العقائد الباطلة تؤثر في القلب وتقسيه، وتبعده عن حضور الرب وتسوده، وتضعف يقينه، وتزلزل دينه، بل هي أقوى أسباب سوء الخاتمة نسأل الله العفو والعافية، ألا ترى أن الشيطان إذا أراد أن يسلب إيمان العبد بربه فإنه لا يسلبه منه إلا بإلقاء العقائد الباطلة في قلبه، ومنها الخوض في علم، الكلام وترك العلم بأحكام الإسلام المستفادة من الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة)[1].

* * * * * *

(١) شرح الفقه الأكبر (١٤)، وانظر: الرد على القائلين بوحدة الوجود (٤٩) .

المبحث الثاني : عرض القواعد التي ذكرها القاري على منهج السلف.

القاري -رحمه الله- مع أنه ماتريدي العقيدة -كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد -بمشيئة الله تعالى- إلا أن قواعده التي ذكرها في منهج الاستدلال علـــى مسائل العقيدة توافق ما عليه أهل السنة والجماعة، ما عدا القــاعدة الثانيــة، كما سيأتي بيانه .

* *   * *   * *

القاعدة الأولى : الاعتماد في مسائل العقيدة على النقل .

من خلال تلك النقول التي نقلتها من كلام القاري يتبين لنا أنه يـرى أن الاعتماد على مسائل الاعتقاد لا يكون إلا على وفق مـــا جــاء في الكتــاب والسنة، وهذا حق موافق لما عليه أهل السنة والجماعة [1].

فمن القواعد المقررة عند أهل السنة والجماعة اتباع السلف الصالح أنهــم يعتمدون في تقرير العقيدة على الكتاب، وصحيح السنة، وما أجمع عليه سـلف الأمة؛ وما ذاك إلا لأن مسائل أصول الدين التي يحتــاج النــاس إلى معرفتــها واعتقادها، والتصديق بها قد بينها الله ورسوله ﷺ بياناً شافياً، فتبيــين أصــول الدين من أعظم ما بلغه الرسول ﷺ البلاغ المبين، وهو من أعظم ما أقـــام الله الحجة على العباد فيه، وذلك بإرسال الرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذيــن بينوه وبلغوه [2]، وعلى هذا سار الصحابة ﷺ ، فليس ثمة عند أحد منهم مـــا

(١) انظر: الفتاوى (٣/١٥٧، ٣٤٦-٣٤٧)، (١٦/٤٦٩)، ومنهج الاستدلال علـــى مســائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان بن علي حسن (١/٥١-١٠٨) .

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/٢٧) .

يستدل به في أصول الدين سوى الكتاب العزيز، وسنة النبي ﷺ، سواء كانت سنته القولية، أو الفعلية، أو التقريرية .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١] رحمه الله :

(وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم -يعني: أهل السنة والجماعة- اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم)[٢].

فهؤلاء أصحاب القرون المفضلة المنهج المعتمد عندهم في تقرير العقيدة هو الكتاب وصحيح السنة، فليس لنا بعد هؤلاء -أصحاب القرون المفضلة- إلا أن نسير على هذا المنهج، وأن نتّبع ولا نبتدع، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ

---

(١) هو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله الحراني، أبو العباس، إمام الأئمة ومفتي الأمة، وسيد الحفاظ وبحر العلوم، ولد سنة (٦٦١هـ). وكان إماماً في التفسير والحديث والفقه واللغة العربية، والعقائد والنقليات، زاهداً عابداً ورعاً شجاعاً قوالاً بالحق. من مصنفاته: الاستقامة، والإيمان، ومنهاج السنة النبوية، وغيرها. توفي -رحمه الله- سنة (٧٢٨هـ).

انظر: طبقات علماء الحديث، لابن عبدالهادي (٤/٢٧٩-٢٩٦)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤/١٤٩٦-١٤٩٧)، وذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي (٢/٣٨٧-٤٠٨)، والنجوم الزاهرة، لابن تغري بردي (٩/٢٧١-٢٧٢) .

(٢) الفتاوى (١٣/٢٨) .

وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١) .

وقال ابن مسعود ﷺ : « إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع ولن نضل ما تمسكنا بالأثر » (٢).

فالكتاب العزيز، وصحيح السنة النبوية هما المصدران الأساسان في تلقي العقيدة الصحيحة، وعلى ذلك جرى السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وفيما يلي أذكر بعضاً من تلك النصوص التي تتضح بها هذه القاعدة .

١) قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

قال ابن بطة(٤): (لقد دلنا مولانا الكريم تعالى على طريقة محبته، وأرشدنا إلى سبيل هدايته بأقصد المذاهب، وأقرب المسالك حين أعلمنا أن محبة الله هي متابعة نبيه ﷺ حين قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ ، فمن اتبع رسوله في سنته أورثه ذلك محبة الله ﷻ بكسبه البصيرة في إيمانه فيما أحكمه في

---

(١) سورة النساء، آية (١١٥) .

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨٦/١/ رقم١٠٦) .

(٣) سورة آل عمران، آية (٣١) .

(٤) هو الإمام القدوة، العابد الفقيه المحدّث، شيخ العراق، أبو عبدالله عبيد الله بن محمد بن حمدان العكبري الحنبلي ابن بطة. ولد سنة (٣٠٤هـ)، كان في زمنه من أئمة أهل السنة الداعين إلى عقيدة السلف الصالح. توفي يوم عاشوراء سنة (٣٨٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥٢٩/١٦-٥٣٣)، وميزان الاعتدال كلاهما للذهبي (١٥/٣)، وطبقات الحنابلة لأبي يعلى (١٥٣/٤).

قلبه ولسانه بالمغفرة، والرضوان في ميعاده)[١].

وقال ابن كثير[٢] رحمه الله :

(هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله)[٣].

٢) وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٤].

قال أبو المظفر السمعاني[٥] رحمه الله : (﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ بمعنى: سائر الملل سوى ملة الإسلام، وقيل هو الأهواء والبدع)[٦].

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (١/٢٢١) .

(٢) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصروي الدمشقي، عماد الدين أبو الفداء، الإمام المحدّث، المفسر المؤرّخ، الفقيه صاحب التصانيف، ولد سنة (٧٠١هـ). له من المصنفات: "تفسير القرآن العظيم" و"البداية والنهاية". توفي سنة (٧٧٤هـ).

انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١١/٩٨-٩٩)، وشذرات الذهب (٦/٢٣١-٢٣٢)، والدارس في تاريخ المدارس (١/٢٧-٢٨) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٥٣٦) .

(٤) سورة الأنعام، آية (١٥٣) .

(٥) هو منصور بن محمد بن عبدالجبار بن أحمد التميمي السمعاني المروزي، الإمام العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، ولد سنة (٤٢٦هـ)، كان حنفياً ثم صار شافعياً، وكان ناصراً لأهل السنة والجماعة. من مصنفاته: "التفسير"، و"قواطع الأدلة". توفي سنة (٤٨٩هـ).

انظر: السير (١٩/١١٤-١١٩)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٣٣٩-٣٤٠) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٢/١٥٧) .

٣) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله :

(قال مجاهد[٢] وغير واحد من السلف أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه في أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة)[٣].

٤) وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[٤].

قال ابن سعدي[٥] رحمه الله : (اتباع الهدى: بتصديق الخبر وعدم

---

(١) سورة النساء، آية (٥٩) .

(٢) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، ولد سنة (٢٠هـ)، وكان أحد الأعلام من التابعين، والأئمة المفسرين، قرأ على ابن عباس رضي الله عنه وغيره، وقرأ عليه ابن كثير وغيره، توفي وهو ساجد سنة (١٠٣هـ) .

انظر: غاية النهاية في طبقات القراء للجزري (٢/٤١-٤٢)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٣٠٥-٣٠٨)، والسير (٤/٤٤٩-٤٥٧) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/٧٨٥) .

(٤) سورة طه، آية (١٢٣-١٢٦) .

(٥) هو العلامة الورع الزاهد، الفقيه الأصولي المحقق المدقق، الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي. له مصنفات عديدة منها: "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام =

معارضته بالشبه، وامتثال الأمر بأن لا يعارض بشهوة) [(١)].

ونظائر هذه الآيات في هذه المسألة التي تأمر بتحكيم الكتاب والسنة كثيرة جداً لمن تدبر القرآن الكريم .

وأما النصوص التي تتضح بها هذه القاعدة من سنة النبي ﷺ فمنها :

١) حديث العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: « أوصيكم بتقوى الله ﷻ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي، وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » [(٢)].

٢) وعن عبدالله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « خير الناس قرني،

المنان"، و"القواعد الحسان"، و"القواعد والأصول الجامعة". توفي سنة (١٣٧٦هـ). انظر: معجم المؤلفين لكحالة (٣٩٦/١٣-٣٩٧)، والأعلام للزركلي (٣٤٠/٣)، والشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة بقلم الدكتور عبدالرزاق العباد (١٣) وما بعدها.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٩٧/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة (١٣/٥-١٤/ رقم٤٦٠٧). والترمذي في جامعه كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٤٣/٥/ رقم٢٦٧٦). وقال الترمذي: هذا حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١٥/١-١٦/ رقم٤٢).

وصحح هذا الحديث العلامة الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٤٧/٢-٦٤٨/ رقم٩٣٧).

ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته »[١].

والأحاديث في هذه المسألة أكثر من أن تحصر .

ولأجل هذه الأدلة الدالة على الاعتماد على الكتاب والسنة كان صحابة رسول الله ﷺ من أشد الناس تمسكاً، وتعظيماً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والعمل بهما .

عن عائشة -رضي الله عنها- أن أبا بكر الصديق ﷺ قال: « لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ »[٢].

قال ابن بطة : (هذا يا إخواني الصديق الأكبر يتخوف على نفسه الزيغ إن هو خالف شيئاً من أمر نبيه ﷺ فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم، وبأوامره، ويتباهون بمخالفته، ويسخرون بسنته، نسأل الله عصمة من الزلل، ونجاة من سوء العمل)[٣].

وقال الإمام أحمد[٤] رحمه الله : (أصول السنة عندنا التمسك بما كان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جورٍ إذا أُشهد (٢/٢٥١/ رقم٢٦٥٢). ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٤/١٩٦٢/ رقم٢٥٣٣) .

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (١/٢٤٥-٢٤٦).

(٣) المصدر السابق (١/٢٤٦) .

(٤) هو أبو عبدالله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي، ولد سنة (١٦٤هـ)، ناصر السنة، وقامع البدعة، أحد الأئمة الأعلام، ثقة حافظ متقن فقيه حجّة، كان عالماً =

عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك المراء والجدل، والخصومات في الدين، والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ ، والسنة تفسر القرآن وهي دلائل القرآن، وليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول ولا بالأهواء، وإنما هو الاتباع وترك الهوى) [1].

وقال الأوزاعي[2] رحمه الله :

(خمس كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله) [3].

فهذه النصوص التي سقتها من كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ، وكلام السلف الصالح تدل دلالة واضحة على أنه لا سعادة للمرء في دنياه وآخرته إلا بالاعتصام بالكتاب، وصحيح السنة، وما كان عليه سلف الأمة، فالكتاب

زاهداً ورعاً، رأساً في السنة. من مصنفاته: "المسند"، و"التفسير"، و"فضائل الصحابة". توفي سنة (٢٤١هـ).

انظر: تاريخ بغداد (٥/١٧٨-١٩٠)، وتهذيب الكمال (١/٤٣٧-٤٧٠)، وحلية الأولياء (٩/١٦١)، والسير (١١/١٧٧-٣٥٨) .

(١) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن بدران (١٩) .

(٢) هو شيخ الإسلام أبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو بن يُحْمد الأوزاعي، عالم أهل الشام. قال ابن مهدي: ما كان بالشام أعلم بالسنة منه. مات سنة (١٥٨هـ)، وقيل: (٥٥)، وقيل: (٥١)، وقيل: (٥٦).

انظر: تهذيب التهذيب (٦/٢٣٨-٢٤٢)، والسير (٧/١٠٧-١٣٤).

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/٦٤/ رقم٤٨) .

والسنة هما المعيار الذي توزن به الأقوال والأعمال والمعتقدات، ولا يستقيم إيمان المرء إلا بتعظيمها، فلا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان [١].

وبهذا يتضح لنا أن القاري موافق لما عليه أهل السنة والجماعة.

* * * * * *

القاعدة الثانية: أخبار الآحاد لا يحتج بها في العقائد.

من خلال النقل السابق عن القاري في القاعدة الثانية يظهر لنا بوضوح أن القاري لا يرى حجية أخبار الآحاد في العقيدة مطلقاً، وهذا موافق لطريقة أهل الأهواء والبدع[٢]: من المعتزلة[٣]، والأشاعرة، والماتريدية، وغيرهم، ومخالف لطريقة السلف الصالح، فالسنة عند السلف قرينة للقرآن في الأصول والفروع، فهي مفسرة وموضحة، وشارحة، ومخصصة، ومقيدة لما جاء

---

(١) العقيدة الطحاوية بتعليق ابن مانع (٣١).

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية، لسعد الدين التفتازاني (٢٦-٢٧)، وتمهيد الأوائل، للباقلاني (٤٤١-٤٤٢)، والمستصفى للغزالي (١/١٤٥)، والماتريدية دراسةً وتقويماً، للحربي (١٧٧-١٨٥)، والماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات، للشمس الأفغاني رحمه الله (١/٥٤٤-٥٤٥).

(٣) المعتزلة: اسم لفرقة من المتكلمين ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري، وهم أتباع واصل بن عطاء الغزال الذي كان بينه وبين الحسن البصري خلاف في القدر، وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمرو بن عبيد في بدعته، فطردهما الحسن عن مجلسه، فاعتزلا عن سارية من سواري مسجد البصرة فقيل لهما ولأتباعهما معتزله؛ لاعتزالهم قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر.

انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (١٥)، والملل والنحل للشهرستاني (١/٥٦) وما بعدها.

في القرآن الكريم، ولذا كان سلفنا الصالح لا يفرقون بين ما سمي بأخبار آحاد أو متواتر، بل إنهم يؤمنون بذلك كله، ويعملون بظاهر هذه الأحاديث من غير تأويل لشيء منها؛ وما ذاك إلا لأن من مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. فيجب على كل مسلم أن يصدق الرسول ﷺ فيما أخبر به سواء كان ذلك الخبر عن الله، أو صفاته، أو عن مخلوقاته، أو ما يتعلق باليوم الآخر ... إلخ.

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل -رحمه الله- في أحاديث الصفات:

(نؤمن بها، ونصدق بها، ولا نرد شيئاً منها إذا كانت بأسانيد صحاح)[(١)].

وقال في أحاديث الرؤية: (أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر، وكلما روي عن النبي ﷺ بأسانيد جيدة نؤمن به ونقر)[(٢)].

وقال أبو بكر الخلال[(٣)]: حدثنا أبو بكر المروذي[(٤)] رحمه الله: قال:

---

(١) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٥٣/٣/ رقم٧٧٧) .

(٢) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥٠٧/٣/ رقم٨٨٩)، وانظر: السنة للإمام أبي عبدالرحمن عبدالله بن أحمد بن حنبل الشيباني (٢٢٩/١) .

(٣) هو أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال، الفقيه العلامة المحدث، شيخ الحنابلة وعالمهم. ولد سنة (٢٣٤هـ)، أو في التي تليها. مات سنة (٣٢١هـ). له من المصنفات: "الجامع لعلوم أحمد"، و"كتاب السنة". انظر: السير (٢٩٧/١٤-٢٩٨)، وتذكرة الحفاظ (٧٨٥/٣-٧٨٦) .

(٤) هو أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبدالعزيز أبو بكر المرُّوذي، ولد في حدود (٢٠٠هـ)، وكان إماماً في السنة، عالماً محدّثاً فقيهاً من أجل أصحاب الإمام أحمد، له مسائل كثيرة عن الإمام أحمد وكان شديد الاتباع، توفي سنة (٢٧٥هـ). انظر: طبقات الحنابلة لأبي يعلى (٥٦/١-٦٣)، والأنساب للسمعاني (٢٦٣/٥)، والسير (١٧٣/١٣-١٧٥).

(سألت أبا عبدالله عن الأحاديث التي تردها الجهمية في الصفات والرؤية، وقصة العرش، فصححها أبو عبدالله، وقال: قد تلقتها العلماء بالقبول، نسلم الأخبار كما جاءت)[١].

وقال ابن عيينة[٢] في أحاديث الرؤية: (حق نرويها على ما سمعناه ممن نثق به، ونرضى به)[٣].

وبهذه النقول عن هؤلاء الأعلام نعلم أن منهج سلفنا الصالح قبول خبر الآحاد في العقيدة إذا صح عن النبي ﷺ، فالسلف الصالح يحتجون بالسنة الثابتة عن النبي ﷺ بلا تقسيم ولا تفريق. ويتبين ذلك من مصنفاتهم التي صنفوها في باب الاعتقاد[٤]. فإنهم عرضوا في هذه الكتب العقيدة الصحيحة المأخوذة من الكتاب وصحيح السنة، ولم يفرقوا في منهج عرضهم للعقيدة الصحيحة بين المتواتر والآحاد، بل إنهم ساقوا تلك الأحاديث، واستدلوا بها على مسائل

---

(١) انظر: المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل، للأحمدي (٢٧٦/١).

(٢) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ثم المكي، أحد الثقات الأعلام، أجمعت الأمة على الاحتجاج به. ولد بالكوفة سنة (١٠٧هـ)، كان فقيهاً، واسع العلم، كبير القدر. قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز.

انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٢/١)، ومشاهير علماء الأمصار لابن حبان البستي (١٤٩-١٥٠)، والسير (٤٥٤/٨-٤٧٥)، وميزان الاعتدال (١٧٠/٢-١٧١).

(٣) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣/٥٠٤/ رقم٨٧٧).

(٤) كالسنة لابن أبي عاصم (ت٣٧٧هـ)، والسنة لعبدالله بن الإمام أحمد (ت٢٩٠هـ)، والسنة لمحمد بن نصر المروذي (ت٢٩٤هـ)، والسنة لأحمد بن محمد بن هارون الخلال (ت٣١١هـ)، والتوحيد لابن خزيمة (ت٣١١هـ)، والشريعة لأبي بكر الآجري (ت٣٦٠هـ)، وكتاب الصفات، وكتاب رؤية الله ﷻ لأبي الحسن الدارقطني (ت٣٨٥هـ).

انظر: خبر الواحد في التشريع الإسلامي وحجيته، لأبي عبدالرحمن القاضي براهون (١٢٣/١-١٢٤).

العقيدة دون تفريق بين المتواتر والآحاد، فدل ذلك على أنّهم يرون حجّية خبر الآحاد في العقيدة إذا صح عن النبي ﷺ.

قال ابن قيم الجوزية[(١)] -رحمه الله- فيمن يفرق بين العقائد والأحكام في الأخذ بأخبار الآحاد: (وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريات العلميات كما يحتج بها في الطلبيات العمليات، ولاسيما والأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا وأوجبه ورضيه ديناً ... ولم تزل الصحابة، والتابعون، وتابعوهم، وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات، والقدر، والأسماء، والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم البتة أنه جوز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار عن الله وأسمائه وصفاته)[(٢)].

وخلاصة الكلام في هذا المرام أن القاري بتلك القاعدة التي ذكرها -وهي عدم الاحتجاج بخبر الآحاد في العقيدة- مخالف لمنهج السلف الصالح، بل ومخالف لمنهج إمام مذهبه الإمام أبي حنيفة وأصحابه الأوائل. ولهذا قال الإمام أبو حنيفة: (وخبر المعراج حق فمن رده فهو ضال مبتدع)[(٣)].

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حزيز الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي، المعروف بابن قيم الجوزية، أبو عبدالله، كان إماماً متفنناً، برع في التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والعربية، والنحو. لازم ابن تيمية فأخذ عنه علماً كثيراً حتى صار أحد أفراد زمانه. من مصنفاته: "زاد المعاد"، و"إعلام الموقعين"، و"روضة المحبين". توفي سنة (٧٥١هـ).

انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/٤٤٧-٤٥٢)، والنجوم الزاهرة (١٠/١٩٥)، وشذرات الذهب (٦/١٦٨-١٧٠)، وبغية الوعاة (١/٦٢-٦٣).

(٢) مختصر الصواعق (٢/٥٦٣).

(٣) الفقه الأكبر بشرح القاري (١٨٩).

وقال أيضاً: (وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عليه السلام من السماء، وسائر علامات يوم القيامة على ما وردت به الأخبار الصحيحة حق كائن)[١].

فهذه الأمور التي نص عليها هذا الإمام كلها من أمور العقيدة، ولم يفرق رحمه الله تعالى بين ما هو من قبيل خبر الآحاد، أو التواتر. فدل ذلك على أن الإمام أبا حنيفة يرى الاحتجاج بجميع ما صح عن النبي ﷺ ومن ذلك خبر الآحاد الذي لا يحتج به القاري .

فالقاري حينما يرد أخبار الآحاد يخالف إمام مذهبه، الإمام أبو حنيفة، بل ويخالف أصحابه الأوائل كأبي يوسف[٢]، ومحمد بن الحسن[٣].

قال الإمام الطحاوي[٤] فيما ذكره عن الإمام أبي حنيفة وصاحبيه

---

(١) المصدر السابق (١٩٠-١٩٢) .

(٢) هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، القاضي الكوفي، صاحب أبي حنيفة. ولد سنة (١١٣هـ). قال ابن معين: كان أبو يوسف القاضي يميل إلى أصحاب الحديث كثيراً، وكتبنا عنه ولم يزل الناس يكتبون عنه. مات سنة (١٨٣هـ). انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي (٩/٢٠١-٢٠٢)، وميزان الاعتدال للذهبي (٤/٤٤٧)، والسير (٨/٥٣٥) .

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني الكوفي، فقيه العراق. ولد سنة (١٣٢هـ)، أخذ العلم عن أبي حنيفة، ومالك، وأبي يوسف، وغيرهم. مات بريّ سنة (١٨٩هـ).

انظر: السير (٩/١٣٤) .

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبدالملك الأزدي الحَجْري المصري الطحاوي، نسبة إلى طحا، قرية من قرى الصعيد بمصر. ولد سنة (٢٣٩هـ). قال عنه ابن كثير رحمه الله: صاحب المصنفات المفيدة، والفوائد الغزيرة، وهو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة. توفي في مستهل ذي القعدة سنة (٣٢١هـ).

انظر: السير (١٥/٢٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (١١/١٤٧).

الإمامين أبي يوسف ومحمد -رحمهم الله- في أحاديث الرؤية: (وكل ما جاء من ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد الله تعالى، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا)[1].

وقال أيضاً في موضع آخر: (وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق)[2].

فمن خلال هذين النصين نعلم أن الإمام أبا حنيفة وصاحبيه يرون أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ يستدل به على إثبات العقيدة دون قيد التواتر. وبهذا يتبين لنا أن الماتريدية على العموم والقاري على الخصوص مخالفون لمنهج إمامهم وأصحابه الأوائل[3] بل ومخالفون لمنهج السلف الصالح .

* * * * * *

القاعدة الثالثة : تقديم النقل على العقل عند توهم التعارض.

هذه القاعدة التي ذكرها القاري أصل من أصول أهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهج السلف الصالح، فالسلف الصالح يقدمون الشرع على العقل عند توهم التعارض[4]، فهذه القاعدة من المسلمات عند اتباع

---

(١) العقيدة الطحاوية بتعليق العلامة ابن مانع (٩) .

(٢) المصدر السابق (١٧) .

(٣) انظر: الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات للشمس الأفغاني رحمه الله (٢/٧٥-٧٩).

(٤) هذه القاعدة التي مفادها أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، وأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح هي التي بنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابه العظيم "درء تعارض العقل والنقل" فمن رام البسط في هذه المسألة فعليه بهذا الكتاب.

السلف الصالح، وإلا في الحقيقة ليس ثمة تعارض بين الشرع والعقل؛ لأن من عرف قول الرسول، ومراده به كان عارفاً بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول؛ ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل، قال: معرفة الحديث والفقه فيه أحب إليّ من حفظه، أي: "معرفته" بالتمييز بين صحيحه وسقيمه، "والفقه فيه" معرفة مراد الرسول ﷺ، وتنزيله على المسائل الأصولية، والفرعية أحب إليّ من أن يحفظ من غير معرفة وفقه. وهكذا قال علي بن المديني[1] وغيره من العلماء فإنه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول ﷺ، أو بلفظ ثابت عن الرسول ﷺ وحمله على ما لم يدل عليه فإنما أتى من قبل نفسه[2].

فالذين زعموا تقديم العقل على الشرع عند تعارضهما إنما أتوا من قبل جهلهم بحكم العقل ومقتضى السمع، فظنوا ما ليس بمعقول معقولاً، وهو في الحقيقة شبهات توهم أنه عقل صريح وليست كذلك، أو من جهلهم بالسمع، إما لنسبتهم إلى الرسول ما لم يرده بقوله، وإما لعدم تفريقهم بين ما لا يدرك بالعقول وبين ما تدرك استحالته بالعقول، فهذه أربعة أمور أوجبت لهم ظن التعارض بين السمع والعقل:

أحدها: كون القضية ليست من قضايا العقول.

---

(١) هو الإمام الحجة، أمير المؤمنين في الحديث، أبو الحسن علي بن عبدالله بن جعفر بن نجيح السعدي، مولاهم البصري المعروف بابن المديني. قال أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني عَلَماً في الناس في معرفة الحديث والعلل. وقال البخاري: ما استصغرت نفسي عند أحدٍ إلا عند علي بن المديني. ولد سنة (١٦١هـ)، ومات سنة (٢٣٤هـ).

انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٩٣/٦-١٩٤)، والسير (٤١/١١-٦٠)، والعبر (٣٢٩/١).

(٢) الفتاوى لابن تيمية (٨١/١٢).

الثاني : كون ذلك السمع ليس من السمع الصحيح المقبول .

الثالث : عدم فهم مراد المتكلم به .

الرابع : عدم التمييز بين ما يحيله العقل وما لا يدركه [(١)].

فصريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول؛ لأن الأصل في الدين الاتباع، والمعقول تبع ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي ولقال من شاء ما شاء [(٢)].

فمنهج السلف وطريقتهم إخضاع العقل للشرع خلافاً لما عليه أهل الكلام: من المعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية الذين قدموا المعقول على المنقول[(٣)]، وحاولوا تأويل النصوص لتوافق معقولهم الفاسد، الذي من قبله حصل لهم الحيرة والاضطراب؛ ولهذا يقول الفخر الرازي[(٤)] :

نهاية اقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تُروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات:

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٥٩) .

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/٣١٥) .

(٣) انظر: المستصفى للغزالي (٢/١٣٧، ١٣٨)، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي (٥١).

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، يُلقب بفخر الدين الرازي، ويُعرف بابن الخطيب، وبابن خطيب الري. ولد سنة (٥٤٤هـ). وتوفي سنة (٦٠٦هـ). قال الذهبي عنه: (وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم، وسحر، وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر). انظر: السير (٢١/٥٠٠-٥٠١).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[١]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٢]. واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[٣]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[٤]. من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)[٥].

وقال أبو المعالي الجويني[٦]: (لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته، فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي)[٧].

فهؤلاء الحيارى هم الذين قدموا العقل على الشرع، وهذه نتيجتهم الحيرة والاضطراب، والشك، أمّا أهل السنة والجماعة، اتباع السلف الصالح، الذين قدموا المنقول على المعقول فإنهم ولله الحمد والمنة لم يحصل عندهم اضطراب ولا شك ولا حيرة؛ وما ذاك إلا لأنهم عملوا بالشرع والعقل، وقدموا الشرع على العقل، وعلموا أن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول .

وهنا سؤال مفاده: هل القاري يوافق السلف الصالح في تطبيق هذه

---

(١) سورة طه، آية (٥) .

(٢) سورة فاطر، آية (١٠) .

(٣) سورة الشورى، آية (١١) .

(٤) سورة طه، آية (١١٠) .

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٠١/٢١) .

(٦) هو عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيويه، أبو المعالي الجويني، الملقب بإمام الحرمين. ولد سنة (٤١٩هـ)، وتوفي سنة (٤٧٨هـ). من تصانيفه: "الشامل في أصول الدين"، و"البرهان في أصول الفقه"، و"العقيدة النظامية".

انظر: البداية والنهاية (١١٤/١٢-١١٥)، والسير (٤٦٨/١٨-٤٧٧) .

(٧) الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٣)، والسير (٤٧١/١٨) .

القاعدة في جميع النصوص الشرعية ؟.

تفصيل الجواب عن هذا السؤال في الفصل الثاني من باب الأسماء والصفات، ولكن أجمل الجواب هنا لمنهج التطبيق عند القاري .

القاري اتفق مع السلف في تطبيق هذه القاعدة في بعض الصفات: كصفة المحبة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر. وخالفهم في بعضها الآخر: كصفة العلو، والكلام، والنزول، والاستواء، والضحك، والقدم، ونحو ذلك من الصفات حيث أولها، أو فوضها، وأتى بشبه أهل الكلام المذموم تجاه هذه الصفات، كما يأتي بيانه -بمشيئة الله تعالى- في فصل الصفات .

فالقاري لو عمل بهذه القاعدة العظيمة في جميع النصوص الشرعية لسلم من الاضطراب كما يأتي بيانه في مسائل هذه الرسالة بمشيئة الله تعالى .

* * * * * *

الباب الثاني

عقيدة القاري في توحيد الربوبية

وفيه ثلاثة فصول :-

- الفصل الأول : تعريف التوحيد .
- الفصل الثاني : معرفة الله ﷻ .
- الفصل الثالث : دلالات معرفة الخالق وإثبات وحدانيته .

* *   * *   * *

الفصل الأول

تعريـــف التوحيـــــــد

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: تعريف التوحيد لغة .
- المبحث الثاني: تعريف التوحيد شرعاً .
- المبحث الثالث: تعريف توحيد الربوبية .

* * * * * *

المبحث الأول : تعريف التوحيد لغـة .

قال القاري: (التوحيد في اللغة الحكم، والعلم بأن الشيء واحد)[(١)].

هذا الذي قَرره القاري في تعريف التوحيد في اللغة موافق لما قرره علماء اللغة، فكلمة التوحيد تدور معانيها على الوحدة، والانفراد، والتفرد .

قال الجوهري[(٢)] رحمه الله :

(الوَحْدَة : الانفراد. تقول: رأيته وحدَه .

وهو منصوبٌ عند أهل الكوفة على الظرف، وعند أهل البصرة على المصدر في كل حال، كأنك قلت: أوْحَدْتُـهُ برؤيتي إيحاداً، أي لم أر غيره، ثم وضعِتْ وحدَه هذا الموضع)[(٣)].

وقال ابن فارس[(٤)] رحمه الله : (وَحُدَ : الواو، والحاء، والدال: أصل

---

(١) الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٦) .

(٢) هو إمام اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي، أحد من يُضرب به المثل في ضبط اللغة، كان يحب الأسفار والتغرّب، دخل بلاد ربيعة ومضر في تطلب لسان العرب، ودار الشام والعراق، ثم عادَ إلى خراسان، فأقام بنيسابور يُدرِّس ويصنف فصنف الصحاح، مات متردّياً من سطح داره بنيسابور سنة (٣٩٣هـ).

انظر: السير (١٧/٨٠-٨٢)، ولسان الميزان لابن حجر (١/٤٠٠-٤٠٢)، والأعلام (١/٣١٣).

(٣) الصحاح (٢/٥٤٧-٥٤٨) .

(٤) هو أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني الشافعي ثم المالكي، الإمام العلامة اللغوي المحدث، كان رأساً في الأدب بصيراً بفقه مالك، له معجم المقاييس، ومجمل اللغة، وحلية الفقهاء. توفي سنة (٣٩٥هـ) .

=

واحد يدل على الانفراد من ذلك الوَحْدَة. وهو واحدُ قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله، قال:

يا واحد العُرب الذي ... ما في الأنام له نظير)[1]

وقال ابن منظور[2] رحمه الله :

(وحكى سيبويه[3] : الواحدة في معنى التوحُّد، وتوحَّدَ برأيه: تفرد به ودخل القومُ موْحَدَ مَوْحَدَ، وأحادَ أُحادَ أي فرادى، واحداً واحداً معدول عن ذلك)[4].

وقال الراغب الأصفهاني[5] رحمه الله : (الوَحْدَةُ: الانفراد. والواحدُ

انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠٣/١٧-١٠٦)، ومعجم الأدباء (٨٠/٤-٩٨)، والديباج المذهب لابن فرحون (٩٤) رقم (٣٠)، وشذرات الذهب (١٣٢/٣-١٣٣) .

(١) معجم مقاييس اللغة (٩٠/٦) .

(٢) هو أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، إمام في اللغة، ولد بمصر، وقيل بطرابلس الغرب سنة (٦٣٠هـ)، من آثاره لسان العرب، مختصر تاريخ بغداد للسمعاني. توفي سنة (٧١١هـ) .

انظر: الأعلام (١٠٨/٧)، ومعجم المؤلفين (٤٦/١٢) .

(٣) أبو البشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، ثم البصري، إمام النحو، حجة العرب، طلب الفقه والحديث مدَّة، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، توفي سنة (١٨٠هـ).

انظر: السير (٣٥١/٨-٣٥٢)، وشذرات الذهب (٢٥٢/١-٢٥٥) .

(٤) لسان العرب (٤٤٩/٣) .

(٥) هو الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني الملقب بالراغب أبو القاسم، صاحب التصانيف، كان عالماً مفسراً حكيماً أديباً لغوياً له المفردات، والذريعة إلى مكارم الشريعة. توفي سنة (٥٠٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٢٠/١٨-١٢١)، وبغية الوعاة

في الحقيقة الذي لا جزء له البتة، ثم يُطلَقُ على كل شيء موجود حتى إنه ما من عدد إلا ويصح وصفه به فيقال: عشرةٌ واحدةٌ، ومائة واحدةٌ، وألف واحدٌ)[1].

* * * * * *

= للسيوطي (٢/٢٩٧)، وكشف الظنون (١/٣٦، ١٣١، ٣٧٧، ٤٧٧، ٤٦٢)، وهدية العارفين (١/٣١١) .

(١) المفردات في غريب القرآن (٥٣٠)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٧٢٠).

المبحث الثاني: تعريف التوحيد شرعاً.

قال القاري في تعريف التوحيد شرعاً :

(التوحيد : اعتقاد أن لا شريك له في الإلهية، والصفات الذاتية، والفعلية، واستحقاق العبودية بمقتضى النعوت الربوبية) [(١)].

هذا التعريف الذي ذكره القاري من أجمع التعاريف لكلمة التوحيد في الشرع لاشتماله على أنواع التوحيد الثلاثة .

فقوله: (اعتقاد أن لا شريك له في الإلهية) هذا يشمل توحيد الألوهية الذي يسمى بتوحيد القصد والطلب .

وقوله: (الصفات الذاتية والفعلية) هذا يتناول توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: (بمقتضى النعوت الربوبية) هذا يتناول توحيد الربوبية الذي هو إفراد الله ﷻ بأفعاله .

قال السفاريني[(٢)] رحمه الله : (التوحيد الشرعي: هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً) [(٣)].

---

(١) شرح الشفاء (٥١٩/١) .

(٢) هو العلامة أبو العون شمس الدين محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني، نسبته إلى سفارين، قرية من قرى نابلس بفلسطين، ولد بها ورحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها حتى صار عالماً بالحديث والأصول والأدب. توفي بنابلس سنة (١١٨٨هـ). من مصنفاته "لوائح الأنوار السَّنيّة ولواقح الأفكار السُنية"، و"كشف اللثام شرح عمدة الأحكام".

انظر: الأعلام للزركلي (١٤/٦)، والرسالة المستطرفة للكتاني (٧٣) .

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية (٥٧/١) .

فقوله: (إفراد المعبود بالعبادة) هذا يتناول توحيد الألوهية -العبادة- الذي يسمى بتوحيد القصد والطلب .

وقوله: (مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً) هذا يتناول لنوعي توحيد الربوبية والأسماء والصفات، الذي يُسمى بتوحيد المعرفة والإثبات .

إذاً فالتوحيد في الشرع ورد على نوعين[1] :

الأول : توحيد القصد والطلب . وهذا النوع يُسمى بتوحيد الألوهية، ويُسمى بتوحيد العبادة، فباعتبار إضافته إلى الله يقال له توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى العابد يقال له توحيد العبادة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[4]، وهكذا قال كل نبي لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة،

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٣٣/١)، (٤٦٨/٣-٤٦٩) .

(٢) سورة النحل، آية (٣٦) .

(٣) سورة الأنبياء، آية (٢٥) .

(٤) سورة هود، آية (٥٠) .

وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان »[١].

وفي رواية: « بني الإسلام على خمسة: على أن يوحدوا الله ... »[٢].

وفي رواية: « بُنِي الإسلام على خمس: على أن يُعبد الله ويُكفر بما دونه »[٣].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: إنك تقدم على قومٍ من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يُوحدوا الله تعالى .... »[٤].

وفي رواية: « إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ... »[٥].

وفي رواية: « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ... »[٦].

فهذه الروايات يفسر بعضها بعضاً، فلفظ التوحيد المراد به العبادة .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم (١/ ٢٠/ رقم٨).
ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١/ ٤٥/ رقم١٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١/ ٤٥/رقم١٦).

(٣) المصدر السابق .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٤/ ٣٧٨/ رقم٧٣٧٢) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة (١/ ٤٥٠-٤٥١/ رقم١٤٥٨).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين (١/ ٥٠/ رقم١٩).

الثاني : توحيد المعرفة والإثبات. وهذا يراد به نفي الشركة عن الله ﷻ في ذاته وأفعاله وأسمائه وصفاته .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[١].

قال ابن قيم الجوزية: (فسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب -تعالى- من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، وغناه وأحديته، ونفي الكيف المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه. وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يُباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك، ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن)[٢].

نخلص مما سبق أن تعريف التوحيد في الشرع هو :

إفراد الله ﷻ بما يختص به من الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات[٣].

من خلال هذا التعريف يظهر لنا أن التوحيد ينقسم إلى قسمين باعتبار، وينقسم إلى ثلاثة أقسام باعتبار .

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣١٦/١) .

(٣) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد لشيخنا ابن عثيمين رحمه الله (٨/١) .

فتقسيمه إلى قسمين: باعتبار إضافته إلى العبد .

فنقول: توحيد المعرفة والإثبات، وهـــذا يتنـــاول إثبـــات ذات الله ﷻ وأسمائه وصفاتـــــه .

ونقول: توحيد القصد والطلب، وهذا يتناول توحيد العبادة .

وأما تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، فذلك باعتبار إضافته إلى الله ﷻ .

فتوحيد الربوبية: مشتق من كلمة "رب" ، أي: إثبات أن الله ﷻ هـــو الخالق الرازق، المحيي المميت ...... إلخ .

وتوحيد الألوهية: هو نفسه توحيد القصد والطلب، وهـــو إفـــراد الله بالعبـــادة.

وتوحيد الأسماء والصفات: أي إثبات أسماء الله ﷻ وصفاته .

وهذا التقسيم لأنواع التوحيد الذي ذكره أهل العلم هو نتيجة لاستقراء النصوص الشرعية، وقد أشار القاري إلى هذه الأنواع الثلاثة كما في تعريفـــه المتقدم، بل إنه نص على هذه الأنواع الثلاثة حيث قال :

(أقول: فابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العـــالمين، يشير إلى تقرير توحيد الربوبية المترتب على توحيد الألوهية المقتضي من الخلـــق تحقيق العبودية ..... بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة لنوعي التوحيـــد، بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانهما وتحقيق شأنهما، فإن القرآن إما خبر عـــن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوته إلى عبادتـــه وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر وهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيـــد ومكملاتـــه،

وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في العقبى فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب والسلاسل والأغلال، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد، وحقوق أهله، وثنائهم. وفي شأن ذم الشرك وعقوق أهله وجزائهم) [١].

فالقاري من خلال هذا النص الذي بين أيدينا، ومن خلال تعريفه السابق للتوحيد شرعاً. يرى أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهذا موافق لما عليه أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن شنع عليهم في تقسيمهم ذلك، وزعم أن هذا التقسيم لا يُعرف عند السلف البتة، وإنما اخترع هذا التقسيم ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، ومن تأثر بهم، وهذه فرية لا صحة لها من الواقع، بل هذا التقسيم ورد في كلام أئمة السنة قبل ابن تيمية كابن جرير الطبري [٢]، وابن منده [٣]،

---

(١) شرح الفقه الأكبر (٢٢-٢٣)، وانظر أيضاً ذكره لبعض أنواع التوحيد في كل من: الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٤-١٥)، وشرح ضوء المعالي على منظومه بدء الأمالي (٣٠).

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الإمام العالم المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطبري، ولد سنة (٢٢٤هـ)، كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً، كان حافظاً، عالماً بالقراءات بصيراً بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها. له مصنفات كثيرة منها: "تهذيب الآثار"، و"أخبار الأمم وتاريخهم"، و"جامع البيان"، وغيرها. توفي سنة (٣١٠هـ). انظر: معجم الأدباء (١٨/٥٠-٩٤)، وغاية النهاية (٢/١٠٦-١٠٨)، والسير (١٤/٢٦٧-٢٨٢).

(٣) هو الإمام الحافظ الجوال محدث العصر، أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده، ولد سنة (٣١٠هـ) أو (٣١١هـ) بأصبهان. وهو من أعلام أهل السنة له كتاب "الإيمان" و"الرد على الجهمية". توفي سنة (٣٩٥هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/١٠٣١-١٠٣٦).

والطحاوي، وغيرهم[١]، ثم شاع هذا التقسيم في كلام العلماء وأشهرها كثيراً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد حفظه الله: (هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وقرره الزبيدي[٢] في تاج العروس، وشيخنا الشنقيطي[٣] في أضواء البيان في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تامٌ لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فن)[٤].

فالقول بتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هو نتيجة لاستقراء النصوص الشرعية. فمن تلك النصوص :

---

(١) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن جرير (١/١٦٠-١٦١) (١٣/٢٥)، وما ذكره محقق كتاب التوحيد لابن منده في وصفه للكتاب ومباحثه (١/٢٥-٤٢)، وعقيدة الطحاوي مع شرحه لابن أبي العز (١/٢١-٧٥)، والقول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد للشيخ الدكتور: عبدالرزاق العباد (٢٨) وما بعدها .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، عالم في اللغة والحديث والرجال والأنساب، أصله من واسط في العراق، ومولده بالهند، ومنشأه في زبيد (باليمن)، ولد سنة (١١٤٥هـ)، وتوفي بالطاعون في مصر سنة (١٢٠٥هـ). من آثاره "تاج العروس في شرح القاموس"، "أسانيد الكتب الستة". انظر: الأعلام (٧/٧٠) .

(٣) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر بن محمد الجكني، ولد سنة (١٣٠٥هـ)، حفظ القرآن صغيراً ثم تلقى الفقه وأصوله واللغة وعلومها، حتى أصبح عالماً بالتفسير والأصول والفقه والحديث واللغة والأدب وعلومها، فدرّس وعلّم وصنّف، وأفتى في المسجد النبوي، له مصنفات منها: "أضواء البيان". توفي في مكة بعد الحج سنة (١٣٩٣هـ). انظر: مقدمة أضواء البيان لتلميذه عطية محمد سالم رحمه الله .

(٤) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير (٣٠) .

١) قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير :

(شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة ... ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال:﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾)[3]. أي: إنه خالقكم وخالق السموات والأرض[4]، فدل على أن الكفار يؤمنون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية .

٢) وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا

---

(١) سورة البقرة، آية (٢١-٢٢) .

(٢) سورة غافر، آية (٦٤) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/٨٨) .

(٤) تفسير القرآن العظيم لأبي المظفر السمعاني (١/٥٨) .

ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [(١)].

قال ابن كثير :

(يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ...... ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم .

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ ﴾ أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة) [(٢)].

٣) وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [(٣)].

قال ابن سعدي: (فالله ﷻ يقول لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المكذبين بالبعث العادلين بالله غيره، محتجاً عليهم بما أثبتوه وأقروا به، من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، بما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك ... ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم

---

(١) سورة يونس، آية (٣١-٣٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٦٤٥) .

(٣) سورة المؤمنون، آية (٨٤-٨٩) .

عندكم مستقر في فطركم ...)[١].

فهذه الآيات العظيمة تبين أن ثمة فرقاً بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فالمشركون أثبتوا توحيد الربوبية، وأقروا به وآمنوا به، بخلاف توحيد الألوهية فإنهم أنكروه كما قال تعالى: عنهم ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٢].

فتوحيد الألوهية معناه غير توحيد الربوبية، لأن توحيد الألوهية هو إفراد الله بأفعال العبيد -إفراد الله بالعبادة- أما توحيد الربوبية فهو إفراد الله ﷻ بأفعاله ﷻ ، فالفرق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية هو الحق الذي يجب اعتقاده خلافاً لما عليه علماء الكلام الذي خلطوا معنى الألوهية بالربوبية، وظنوا أن توحيد الألوهية معناه لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا مستغني عن كل ما سواه ولا مفتقر إليه كل ما عداه إلا الله تعالى، فصار توحيد الألوهية عندهم هو توحيد الربوبية، وهذا من أبطل الباطل؛ لأنه ترده النصوص الكثيرة التي فرقت بين الألوهية والربوبية .

فالآيات السابقة ذكرت نوعين من أنواع التوحيد وهو توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

أما الآيات التي ذكرت النوع الثالث من أنواع التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات فكثيرة منها :

١) قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٣٧٢) .

(٢) سورة ص، آية (٥) .

نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ ...... ﴾ [(١)].

ففي هذه الآية الكريمة إثبات اسم الحي، وصفة الحياة لله ﷻ ، واسم (الحي مستلزم لجميع الصفات وهو أصلها، ولهذا كان أعظم آية في القرآن ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[(٢)] وهو الاسم الأعظم، فاستلزم جميع الصفات، فلو اكتفى في الصفات بالتلازم لاكتفى بالحي) [(٣)].

وفي هذه الآية أيضاً إثبات اسم القيوم، وصفة القيومية، ومعنى (القيوم، القائم المقيم لما سواه) [(٤)]، فهذان الاسمان ﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ يجمعان أصل معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا [(٥)].

٢) وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [(٦)].

هذه الآيات الكريمات، قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، فالله -جل وعلا- في أول هذه الآيات أخبر أنه "الله" المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وأن كل إله غيره فإنه باطل، لا يستحق من العبادة

---

(١) سورة البقرة، آية (٢٥٥) .

(٢) سورة البقرة، آية (٢٥٥) .

(٣) انظر: الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣١١/١٨) .

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠٩/٢) .

(٥) انظر: التوسل والوسيلة لابن تيمية (٩٣) .

(٦) سورة الحشر، آية (٢٢-٢٣) .

مثقال ذرة، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه. وبعموم رحمته، التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي، ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، ثم ذكر جملة من أسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته العليا [١].

فهذه الآيات اشتملت على ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وقد جمع الله ﷻ هذه الأقسام -توحيد الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات في آية واحدة، قال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾[٢] [٣].

فقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ هذا توحيد الربوبية .

وقوله: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ ﴾ هذا توحيد الألوهية الذي يسمى بتوحيد العبادة .

وقوله: ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ هذا يتناول توحيد الأسماء والصفات .

وجمعها أيضاً في سورة الفاتحة وفي سورة الناس قال تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾[٤]، فذكر الله ﷻ في هذه السورة الألوهية، والربوبية، والملك .

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧/٣٤٥) .

(٢) سورة مريم، آية (٦٥) .

(٣) انظر: تقريب التدمرية لشيخنا ابن عثيمين (١٢٥) .

(٤) سورة الفاتحة، آية (٢-٤) .

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[١]، فهذه ثلاثة أوصاف لربنا تبارك وتعالى، ذكرها مجموعة في موضع واحد في أول القرآن، ثم ذكرها مجموعة في موضع واحد في آخر ما يطرق سمعك من القرآن[٢].

فتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هو نتيجة لاستقراء كتاب الله ﷻ والأدلة الدالة على ذلك كثيرة جداً يطول حصرها .

* * * * * *

(١) سورة الناس، آية (١-٣) .

(٢) انظر: مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب (٥/١١-١٢) .

المبحث الثالث : تعريف توحيد الربوبيـــة .

أ) المدلول اللغوي لتوحيد الربوبية .

توحيد الربوبية مركب من كلمتين: مضـــاف، ومضـــاف إليـــه. أمـــا المضاف فقد تقدم الكلام عليه لغة وشرعاً[١]. وأما المضاف إليه وهي كلمـــة "الربوبية" فهي المقصود في هذا المبحث .

"الرب" في الأصل التربيةُ، وهو إنشاء الشيء حـــالاً فحـــالاً إلى حـــد التمام، يقال رَبَّهُ وَرَبَّاهُ وَرَبَّبَهُ وَرَبَّبَهُ، فالرب مصـــدر مســـتعار للفـــاعل، ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الوجودات نحو قولـــه تعـــالى: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[٢]، وبالإضافة يقال له ولغيره نحـــو قولـــه: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣]، وقوله: ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٤]، ويقـــال: رب الدار ورب الفرس لصاحبهما[٥].

وكلمة "الرب" في اللغة تطلق على المالك، وعلى السيد المطاع، وعلـــى المصلح للشيء .

قال ابن الأنباري[٦]: ("الرب" ينقسم إلى ثلاثة أقسام: يكون الـــرب

(١) راجع (٨٠) وما بعدها .

(٢) سورة سبأ، آية (١٥) .

(٣) سورة الفاتحة، آية (٢) .

(٤) سورة الصافات، آية (١٢٦) .

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغـــب الأصفـــهاني (١٩٠)، والصحـــاح للجوهـــري (١٣٠/١).

(٦) هو الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري المقـــريّ =

المالك، ويكون الرب السيد المطاع، قال تعالى: ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾[(١)]، أي: سيده، ويكون الرب المصلح، رب الشيء إذا أصلحه)[(٢)].

فهذه ثلاث معاني ترجع إليها كلمة الرب .

◂ المعنى الأول: المالك والصاحب :

قال الجوهري: (رب كل شيء: مالكـــه)[(٣)].

وقال ابن منظور: (ورب كل شيء: مالكه ومستحقه، وقيل صاحبـــه، ويقال: فلان رب هذ الشيء أي مِلْكُه له، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، يقال: هو رب الدابة، ورب الدار، وفلان رب البيت ...)[(٤)].

ومن هذا المعنى ما جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في ضالة الإبـــل: (فذرها حتى يلقاها ربها ...)[(٥)].

النحوي، ولد سنة (٢٧٢هـ). ألف الدواوين الكبار مع الصدق والدين وسعة الحفظ. تـوفي سنة (٣٠٤هـ). له "كتاب الوقف والابتداء"، و"كتاب المشكل".

انظر: السير (١٥/٢٧٤-٢٧٩) .

(١) سورة يوسف، آية (٤١) .

(٢) لسان العرب (١/٤٠٠-٤٠١) .

(٣) الصحاح (١/١٣٠) .

(٤) لسان العرب (١/٣٩٩) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى مـــا يكره (١/٤٩-٥٠/ رقم٩١). ومسلم في صحيحه في كتاب اللقطـــة (٣/١٣٤٦-١٣٤٨/ رقم١٧٢٢).

◄ المعنى الثاني : السيد المطـــــاع :

قال الجوهري: (ربيت القوم: سُستهم أي: كنت فوقهم. قال أبو نصـر وهو من الربوبية، ومنه قول صفوان: لأَنْ يَرُبّني رجل من قريـــش أحـب إلي من أن يَرُبّني رجل من هوازن) [١]، يعني أن يكـــون ربــاً فوقـي وسـيداً يملكني [٢]، ومن هذا المعنى قوله ﷺ في حديث جبريل الطويل: « أن تلد الأمـة ربَّها » [٣] أي سيدها، قال ابن الأثير[٤] رحمه الله: (أراد به في الحديث المـولى والسيــد) [٥].

◄ المعنى الثالث: المصلح للشـــيء :

قال ابن فارس: (الرب: المصلح للشيء، يقال: ربَّ فــلان ضيعتـه إذا قام على إصلاحها) [٦].

---

(١) الصحاح (١٣٠/١) .

(٢) لسان العرب (٤٠٠/١) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (٣٣/١/ رقم٥٠). ومسلم في صحيحه، في كتـاب الإيمـان، بـاب الإيمـان والإسلام والإحسان (٣٦/١-٣٧/ رقم١).

(٤) هو مجد الدين أبو السعادات، المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكـريم الشـيباني الجـزري المعروف بابن الأثير، كان فقيهاً، محدثاً، أديباً، نحوياً، ورعاً، عاقلاً، مهيباً، ذا برّ وإحسـان. ولد سنة (٥٤٤هـ)، وتوفي سنة (٦٠٦هـ). من مصنفاته: "جامع الأصول"، و"الشـافي في شرح مسند الشافعي".

انظر: طبقات الشافعية للأسنوي (٧٠/١-٧١)، والأعلام للزركلي (٢٧٢/٥-٢٧٣).

(٥) النهاية في غريب الحديث (١٧٩/٢) .

(٦) معجم مقاييس اللغة (٣٨١/٢) .

وقال الجوهري: (ربَّ الضيعة أي: أصلحها وأتمّها، وربَّ فلان ولده يَربُّهُ ربّاً ورَبَّبَهُ، وتَربَّبَهُ، بمعنى أي ربّاهُ ...) [١].

* * * * * *

ب) المعنى الاصطلاحي لتوحيد الربوبية .

توحيد الربوبية : هو إفراد الله ﷻ بالخلق، والملك، والتدبير [٢].

فمن أقر بأن الله -تعالى- رب كل شيء، ومالكه، وخالقه، ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على كل شيء، ليس له في ذلك شريك ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر فقد حقق توحيد الربوبية [٣].

فالرب ﷻ هو المالك المدبر المعطي المانع الضار، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع، أو الضار أو النافع، أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته [٤].

إذاً نخلص من ذلك إلى أن توحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله -يعني اعتقاد أن الله جل وعلا- واحد في أفعاله، واحد في خلقه لا شريك له، واحد في جميع معاني الربوبية فهو سبحانه المتفرد بالخلق، والرزق، وبالإحياء، والإماتة، وبتدبير الأمر، وتصريف الملكوت، ونحو ذلك من معاني الربوبية .

* * * * * *

---

(١) الصحاح (١٣٠/١) .

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد لشيخنا ابن عثيمين رحمه الله (٩/١) .

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان التميمي (٣٣) .

(٤) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٩٢/١) .

الفصل الثاني

معرفـــــــة الله ﷻ

- وفيه ثلاثة مباحث :

– **المبحث الأول**: أقوال القاري في معرفة الله ﷻ .

– **المبحث الثاني**: عرض القضايا التي وردت في كلام القاري على مذهب السلف.

– **المبحث الثالث**: الميثـــــاق الأزلـــــي .

* * * * * *

المبحث الأول: أقوال القاري في معرفة الله.

قال القاري -رحمه الله- في "شرحه على الفقه الأكبر"[١]: (فوجود الحق ثابت في فطر الخلق كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[٢]، ويومئ إليه حديث « كل مولود يولد على فطرة الإسلام »[٣])[٤].

وقال أيضاً: (المقصود من كلمة التوحيد نفي كون الشيء يستحق العبودية وإثبات الربوبية لمن له استحقاق الألوهية، وإلا فالكفار كانوا عارفين للوجود ومغايرته لما سواه كما أخبر به ﷻ عنهم بقوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[٥] أي: أوجد العلويات والسفليات من حيز العدم إلى صفحة الوجود، ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٦] أي: الذات الواجب الوجود المستجمع

---

(١) في صحة نسبة كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة خلاف بين أهل العلم، فقد نسبه الذهبي في العلو للعلي الغفار (١٠١) لأبي مطيع الحكم بن عبدالله البلخي. وانظر: كتاب العبر في خبر من غبر للذهبي أيضاً (٢٥٨/١). وانظر حول إسناد الكتاب لأبي حنيفة كتاب أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة للدكتور الخميس (١١٦-١٢٣). وعلى كل حال سواء صحت نسبة الكتاب للإمام أبي حنيفة أو لم تصح فالبحث هنا ليس في كلام الإمام وإنما في كلام من شرح كلامه وهو ملا علي قاري .

(٢) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (٤١٧/١/ رقم١٣٥٩). ومسلم في صحيحه في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٠٤٧/٤/ رقم٢٦٥٨) .

(٤) شرح الفقه الأكبر (٢٣-٢٤)، (٨٣-٨٤) .

(٥) سورة لقمان، آية (٢٥) .

(٦) سورة لقمان، آية (٢٥) .

لصفات الجلال والكمال من الكرم والجود)[١].

وقال أيضاً في تفسيره المسمى بـ"أنوار القرآن وأسرار الفرقان" عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢] : (فطرة الله أعني خلقة الله أو ألزموا فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي ملة الإسلام، فإنهم لو خُلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها، ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي: لا تبدلوا خلقته)[٣].

وقال أيضاً: (﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ لا تبدلوه إشارة إلى أن النفي معناه النهي)[٤].

وقال أيضاً عند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج[٥] البهيمة بهيمة جمعاء[٦] هل تحسون فيها من جدعاء[٧]؟ ثم يقول:

---

(١) الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٤-١٥) .

(٢) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٨٤)، وانظر أيضاً: تفسير الجمالين على الجلالين (١٤٠/٢).

(٤) تفسير الجمالين على الجلالين (١٤٠/٢) .

(٥) تنتج: أي تلد، يقال: نتجت الناقة إذا ولدت فهي منتوجة. النهاية لابن الأثير (١٢/٥).

(٦) الجمعاء: السليمة من العيوب المجتمعة الأعضاء. المرجع السابق (٢٩٦/١).

(٧) الجدع: قطع الأنف، والأذن، والشفة، وهو بالأنف أخص، فإذا أطلق غلب عليه. المرجع السابق (٢٤٦/١).

﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ »[١].

وقال أيضاً : (وفي معنى هذا الحديث « خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم »[٢]، والمعنى ما أحد يولد إلا على هذا الأمر الذي هو تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك على تمكنه وتهيؤه المذكورين لاستمر على الهدى والدين ولم يفارقه إلى غيره؛ لأن حسنه ركز في النفوس، فلم يقع لها عدول عنه إلا لآفة بشرية، أو تقليد للغير، ولذا قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾[٣]، فجعل الهدى رأس المال الحاصل عندهم ثم عرضوه للزوال ببذله في أخذهم الضلالة البعيدة عنهم)[٤].

وقال أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكࣱّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ... ﴾[٥]: (والمعنى إنما ندعوكم إليه وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة الظاهرة عليه كما أشار إليه بقوله ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ...)[٦].

وقال أيضاً: (الفطرة تدل على نوع من الابتداء والاختراع الذي هو

---

(١) سبق تخريجه (١٠١) .

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢١٩٧/٤/ رقم٢٨٦٥) .

(٣) سورة البقرة، آية (١٦) .

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٦١/١) .

(٥) سورة إبراهيم، آية (١٠) .

(٦) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٠٠/ب ، ٤٠١/أ) .

معنى الفطرة كالجلسة)[١].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...... ﴾[٢]: (أي: أبدع العلويات والسفليات من الموجودات)[٣].

وقال في موضع آخر: (أي: مبديهما ومبدعهما ومخترعهما لا عن مثال سبق فيهما)[٤].

من خلال هذا العرض الذي نقلته من كلام القاري -رحمه الله تعالى- أخلص إلى أنه نبه على قضايا مهمة :

القضية الأولى : معنى الفطرة لغة وشرعاً .

القضية الثانية : موافقة القاري لمذهب السلف في فطرية معرفة الله ﷻ .

القضية الثالثة : إرسال الرسل لم يكن لتقرير توحيد الربوبية بل لتقرير توحيد الألوهية .

وكل هذه القضايا التي نبه عليها القاري تدل دلالة واضحة على أن معرفة الله ﷻ فطرية -وسوف يأتي بيان ذلك بمشيئة الله ﷻ - والكلام مع القاري سيكون من خلال هذه القضايا .

* *   * *   * *

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/١٦١-١٦٢) .

(٢) سورة الأنعام، آية (٧٩) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢١٢/أ) .

(٤) المصدر السابق .

المبحث الثاني : عرض القضايا التي وردت في كلام القاري على مذهب السلف .

وفيه ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول: معنى الفطرة .

- المطلب الثاني: موافقة القاري لمذهب السلف في فطرية معرفة الله ﷻ .

- المطلب الثالث: إرسال الرسل لم يكن لتقرير توحيد الربوبية بل لتقرير توحيد الألوهية –العبادة– .

* *   * *   * *

المطلب الأول : معنى الفطـــــرة .

١) الفطرة في اللغة : -

تكلم القاري -رحمه الله تعالى- عن معنى الفطرة في اللغة وذكر أن المراد بها الخلقة والاختراع والابتداع، وهذا الذي قرره القاري -رحمه الله تعـــالى- هو ما قرره علماء اللغة :

قال الجوهري رحمه الله تعالى :

(الفطرة بالكسر: الخِلْقة، وقد فَطَر يفْطُرُه بالضم فطراً، أي: خلقه)[1].

وقال ابن فارس رحمه الله تعالى :

(فطر: الفاء والطاء والراء أصل صحيح يدل على فتح شـــيء وإبـــرازه ... والفطرة: الخلقـــة)[2].

وقال ابن الأثير رحمه الله تعالى :

(الفطْرُ: الابتداع والاختراع، والفِطرة الحالة كالجلسة والرِّكْبة...)[3].

إذاً الفطرة في اللغة: هي الابتداع والاختراع والخلقة .

---

(١) الصحاح (٧٨١/٢) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥١٠/٤) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (٤٥٧/٣)، وانظر: لسان العرب لابن منظور (٥٨/٥) .

٢) الفطرة في الشرع :

اختلف أهل العلم في معنى الفطرة التي جاء ذكرها في الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴾ [١]، وحديث « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ... » [٢] على أقوال.

ومن أجمع من ذكر هذه الأقوال ابن عبدالبر[٣] كما في "التمهيد"[٤]، ونقلها عنه جمع من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في "درء تعارض العقل والنقل"[٥].

وكذلك تلميذه ابن قيم الجوزية في كتابيه "أحكام أهل الذمة"[٦] و"شفاء العليل"[٧].

والمقام هنا لا يقتضي عرض تلك الأقوال ومناقشتها[٨]، ولكن الذي

---

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) سبق تخريجه (١٠١) .

(٣) هو شيخ الإسلام، حافظ المغرب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي، ولد سنة (٣٦٨هـ). قال أبو الوليد الباجي: لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث. توفي سنة (٤٦٣هـ). له من المصنفات: "التمهيد"، "الاستذكار".
انظر: تذكرة الحفاظ (١١٢٨/٣-١١٣٢)، والأعلام للزركلي (٢٤٠/٨) .

(٤) التمهيد (٦٨/١٨-٩٥) .

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٣٨٤/٨) وما بعدها .

(٦) (٥٦٨/٢) وما بعدها .

(٧) (٢٩٧/٢) وما بعدها .

(٨) ومن أراد الاطلاع على تلك الأقوال، فعليه بكتاب درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٨٤/٨) وما بعدها، فقد ناقش تلك الأقوال وبين الراجح منها .

يهمنا هنا هو رأي القاري -رحمه الله- في معنى الفطرة التي ورد ذكرها في نصوص الكتاب والسنة .

القاري يفسر الفطرة بالإسلام، ولهذا قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ... ﴾[١]: (فطرت الله ...... وهي ملة الإسلام فإنهم لو خُلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها)[٢].

وقال عند شرحه لحديث « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ... »[٣] : (وفي معنى هذا الحديث « خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم »[٤] والمعنى ما أحد يولد إلا على هذا الأمر الذي هو تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك على تمكنه وتهيؤه المذكورين لاستمر على الهدى والدين و لم يفارقه إلى غيره؛ لأن حسنه ركز في النفوس فلم يقع لها عدول عنه إلا لآفة بشرية أو تقليد للغير ...)[٥].

فالقاري من خلال هذين النصين نراه يفسر الفطرة بالإسلام، وهذا موافق لما عليه السلف .

١) قال مجاهد -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ... ﴾

---

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٨٤) .

(٣) سبق تخريجه (١٠١) .

(٤) سبق تخريجه (١٠٣) .

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/١٦١) .

قال: (الإسلام)[١].

٢) وقال عكرمة[٢] -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ قال: (الإسلام)[٣].

٣) وقال محمد بن نصر المروزي: (إن آخر قولي الإمام أحمد بن حنبل أن المراد بالفطرة الإسلام)[٤].

٤) وممن فسر الفطرة بالإسلام البخاري -رحمه الله- حيث قال في صحيحه: باب ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ لدين الله (خلق الأولين) دين الأولين، والفطرة: الإسلام[٥].

وممن فسر الفطرة بالإسلام: الحسن[٦]، وإبراهيم

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (٢١/٤٠) .

(٢) هو عكرمة، أبو عبدالله مولى ابن عباس تابعي جليل، أصله بربري، كان ثقة ثبتاً عالماً بالتفسير، توفي سنة (١٠٤هـ) وقيل بعد ذلك .

انظر: الطبقات لابن سعد (٢/٣٣١) و(٧/٢٨٢)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/٧-٩)، وسير أعلام النبلاء (٥/١٢-٣٦) .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (٢١/٤١) .

(٤) نقلاً من درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/٣٨٩-٣٩٠) .

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله (٣/٢٧٥) .

(٦) هو الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد البصري، ولد سنة (٢١هـ)، وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، كان زاهداً في الدنيا فصيحاً، قال الشافعي: لو أشاء أقول إن القرآن نزل بلغة الحسن لقلت لفصاحته. ومناقبه جليلة، وأخباره طويلة، توفي سنة (١١٠هـ)، وقد قارب التسعين عاماً. انظر: الطبقات لابن سعد (٧/١٥٦)، وغاية النهاية لابن الأثير الجزري (١/٢٣٥) رقم (١٠٧٤)، ومعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (١/٦٥) رقم (٢١)، والسير للذهبي أيضاً (٤/٥٦٣-٥٨٨) .

النخعي[١]، والضحاك[٢]، والزهري[٣].

* * * * * *

(١) هو فقيه العراق أبو عمران، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعيّ، اليماني، ثم الكوفي، أحد الأعلام، كان بصيراً بعلم ابن مسعود ﷺ ، واسع الرواية فقيه النفس، كبير الشأن، كثير المحاسن. ولد سنة (٥٠هـ)، توفي سنة (٩٥ أو ٩٦هـ).

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٠١)، والسير (٤/٥٢٠-٥٢٩) .

(٢) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم، ويقال: أبو محمد الخراساني، من أتباع التابعين، سمع من سعيد بن جبير وأخذ عنه التفسير، وكان عابداً معلماً للصبيان بدون أجر. توفي سنة (١٥٠هـ). انظر: غاية النهاية (١/٣٣٧)، وطبقات ابن سعد (٨/٤١٧) و(٩/٣٧٣)، وتهذيب الكمال (١٣/٢٩١-٢٩٧)، وسير أعلام النبلاء (٤/٥٩٨-٦٠٠) .

(٣) انظر: التمهيد لابن عبدالبر (١٨/٧٢) .

المطلب الثاني : موافقة القاري لمذهب السلف في فطرية معرفة الله ﷻ .

إن الإيمان بوجود الله ﷻ مركوز في فطر الخلق؛ وما ذاك إلا لأن الله ﷻ أظهر وأبين من أن يجهل فيطلب الدليل على وجوده، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟! وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل)[١]

فالإقرار بوجود الخالق فطري ضروري لا يتوقف على نظر واستدلال إلا عند فساد الفطرة أو تغييرها لتقوم بذلك الحجة على من أنكر وجود الخالق، وإلا فإنه لا يعرف عن أحد أنكر وجود الخالق إلا ما حكى الله ﷻ عن الملك الجبار الذي ناظر إبراهيم عليه السلام -وهو نمرود البابلي- المعطل المنكر لرب العالمين[٢]. وعن فرعون موسى الذي عرف تجاهله، وتظاهره بإنكار الخالق وقد كان مستيقناً به في الباطن كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ...... ﴾[٣]، وهؤلاء المنكرون للخالق جميعهم مقرون في قرارة أنفسهم أن الله هو الخالق كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ...... ﴾[٤] [٥].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية (١/٧١)، وانظر: الصواعق المرسلة له (٤/١٢٢١) .

(٢) انظر: تفسير ابن سعدي (١/٣١٩)، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧/٤٠٤) .

(٣) سورة الإسراء، آية (١٠٢) .

(٤) سورة النمل، آية (١٤) .

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/٣٨-٣٩)، والفتاوى (٧/٦٣١) .

فالإقرار بالخالق والاعتراف به مستقر في قلوب الخلق، وأنه من لوازم خلقهم ضروري لهم. وهذا ما قرره القاري -رحمه الله- ولهذا يقول: (فوجود الحق ثابت في فطر الخلق كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[١] ......)[٢].

وقال أيضاً: (المقصود من كلمة التوحيد نفي كون الشيء يستحق العبودية، وإثبات الربوبية لمن له استحقاق الألوهية، وإلا فالكفار كانوا عارفين للوجود ومغايرته لما سواه كما أخبر به ﷺ عنهم بقوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[٣] أي: أوجد العلويات والسفليات من حيز العدم إلى صفحة الوجود ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ أي: الذات الواجب الوجود المستجمع لصفات الجلال والكمال من الكرم والجود)[٤].

وهذا التقرير من القاري -رحمه الله- يبين لنا أنه لم يذهب في هذه المسألة إلى ما ذهب إليه علماء الكلام من المعتزلة وجمهور الأشاعرة والماتريدية الذين أنكروا المعرفة الفطرية التي تحصل ضرورة في قلوب العباد ولأجل إنكارهم للمعرفة الفطرية أوجبوا النظر أو القصد إلى النظر. وكل هذا لكون المعرفة لا تحصل إلا به بزعمهم .

فالقاري -رحمه الله- يقرر أن معرفة الله فطرية، وأن الخلق مفطورون على التوحيد. وهذا الذي قرره القاري هو الذي دلت عليه النصوص الشرعية

---

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٢٣-٢٤، ٨٣-٨٤) .

(٣) سورة لقمان، آية (٢٥) .

(٤) الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٤-١٥) .

من الكتاب والسنة وقرّره علماء السلف رحمهم الله تعالى .

الأول : الأدلة من القرآن الكريم :

وردت في كتاب الله ﷻ أدلة كثيرة كلها تؤكد فطرية معرفة الخالق ﷻ فمن ذلك :

١) قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ... ﴾[1]، فالله -جل وعلا- في هذه الآية يأمر نبيه ﷺ بإقامة وجهه للدين، وهذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها أي: خلقهم ابتداء وجبلهم عليها .

٢) إثبات ميثاق أزلي أخذ على بني آدم قبل خروجهم إلى هذه الدنيا كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾[2]، ففي هذه الآية دلالة على أن الله -جل وعلا- أشهد الناس على أنفسهم بالتوحيد، وهذا الإشهاد يقتضي أن معرفة الخالق من العلوم الفطرية الضرورية .

٣) قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3]، فهذه الآية تؤكد على أن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به والاعتراف به. فالاعتراف بالخالق ضروري في الفطر السليمة ولكن قد يعوض

---

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٣) سورة إبراهيم، آية (١٠) .

لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته وإفراده بالعبادة بأنه فاطر السموات والأرض، أي: الذي خلقهما وأبدعهما من غير مثال سابق [(١)].

٤) لجوء الإنسان وفزعه إلى خالقه ﷻ عند الشدة والحاجة، وهذا مما يؤكد على فطرية معرفة المخلوق بالخالق .

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾ [(٣)].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [(٤)].

فهذه الآيات وما جاء على نحوها فيها تنبيه على أن الناس يعودون عند الشدة والحاجة إلى مقتضى الفطرة التي فطروا عليها، وهذا مما يؤكد على فطرية المعرفة بالخالق جل وعلا .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨١٣/٢) .

(٢) سورة يونس، آية (١٢) .

(٣) سورة الإسراء، آية (٦٧) .

(٤) سورة الزمر، آية (٨) .

٥) قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣].

فهذه الآيات وما جاء على نحوها تتضمن تقريراً للناس بأمر تعرفه فطرهم وهو ما غرسه الله فيها من معرفته [٤].

الثاني : الأدلة من السنة النبوية :

قد دلت السنة النبوية على ما دل عليه كتاب الله ﷻ من فطرية المعرفة فمن ذلك :

١) ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)) ثم يقول

---

(١) سورة يونس، آية (٣١) .

(٢) سورة العنكبوت، آية (٦١) .

(٣) سورة لقمان، آية (٢٥) .

(٤) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي (٢٥-٢٦) .

أبو هريرة ﷺ : ((﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[١]))[٢] .

فهذه الآية التي كان أبو هريرة ﷺ يتلوها عند روايته للحديث مطابقة تماماً لمعنى الحديث، فالحديث والآية معناهما واحد، وهو أن الناس فطروا على التوحيد، ولهذا بيّن النبي ﷺ بقوله ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) إلى أن الأبوين يغيران الفطرة التي فُطر الناس عليها وهي التوحيد [٣].

٢) وحديث عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه أنه قال: ((... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)) [٤].

فهذا الحديث صريح في أن الله خلق عباده حنفاء، والحنيف: هو المائل إلى الدين المستقيم كما قال تعالى: ﴿ ... وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾[٥] [٦]، وهذا مما يؤكد أن الناس خلقوا على الإقرار بتوحيد الله، وربوبيته على خلقه، وأن الذي أفسد فطرهم وصرفهم عن دينهم هم الشياطين .

قال ابن قيم الجوزية في تعليقه على هذا الحديث: (وهذا صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية وأن الشياطين اقتطعتهم بعد ذلك عنها، وأخرجوهم منها

---

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) سبق تخريجه (١٠١) .

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٧٢/٨) .

(٤) سبق تخريجه (١٠٣) .

(٥) سورة آل عمران، آية (٦٧) .

(٦) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس (١١٠/٢-١١١) .

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾[(١)]، وهذا يتناول إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال)[(٢)].

الثالث : أقوال علماء السلف :

إن ثمة أقوالاً كثيرةً لعلماء السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم في فطرية المعرفة وأن الخلق مقرون بتوحيد الربوبية، فمن هؤلاء :

١) ابن عباس رضي الله عنهما حيث فسر قوله تعالى: ﴿ ... فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[(٣)] (أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه)[(٤)].

٢) وقال قتادة أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (أي: تعلمون أن الله خلقكم وخلق السموات والأرض، ثم تجعلون له أنداداً؟!)[(٥)].

٣) وقال ابن جرير: (الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها -أي العرب- أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت

---

(١) سورة البقرة، آية (٢٥٧) .

(٢) أحكام أهل الذمة (٥٣٢/٢) .

(٣) سورة البقرة، آية (٢٢) .

(٤) تفسير ابن جرير (١٦٤/١) .

(٥) المصدر السابق (١٦٤/١) .

تشرك فيها، فقال جـل ثنـاؤه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[١]، فالذي هو أولى بتأويل قوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إذ كان ما كان عند العـرب من العلم بوحدانية الله وأنه مبدع الخلق، وخالقهم، ورازقهم، نظـير الـذي كان من ذلك عند أهل الكتابين، ولم يكن في الآية دلالة على أن الله جل ثناؤه عني بقوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أحد الحزبين، بل مخرج الخطاب بذلـك عـام للناس كافة لهم؛ لأنه تحدى الناس كلهم بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾[٢] أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة، من أنه يعني بذلك كل مكلف عـالم بوحدانية الله، وأنه لا شريك له في خلقه يشرك معه في عبادته غيره، كائناً مـن كان من الناس عربياً كان، أو أعجمياً، كاتباً، أو أميًّا)[٣].

٤) وقال أبو المظفر السمعاني عند قوله تعـالى: ﴿ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ (أي وحدوا الله الذي خلقكم؛ وإنما خاطبـهم بـه لأن الكفـار مقرون أن الله خالقهم، والخلق هو اختراع الشيء على غير مثال سابق)[٤].

٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(إن الإقرار بالخالق وكماله: يكون فطرياً ضرورياً في حق من سـلمت فطرته وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليـه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها)[٥].

---

(١) سورة الزخرف، آية (٨٧) .

(٢) سورة البقرة، آية (٢١) .

(٣) تفسير ابن جرير (١/١٦٤) .

(٤) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (١/٥٦) .

(٥) مجموع الفتاوى (٦/٧٣). وانظر: نفس المصدر (٢/٦) .

وقال ابن رجب الحنبلي[(١)] -رحمه الله- عند شرحه لحديث « البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس »[(٢)].

قال: (وهذا يدل على أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله، وركز في الطباع محبة ذلك، والنفور عن ضده وقد يدخل هذا في قوله في حديث عياض بن حمار « إني خلقت عبادي حنفاء مسلمين فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً »[(٣)]، وقوله « كل مولود يولد على الفطرة ... »[(٤)])[(٥)].

* *　　* *　　* *

(١) هو أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن بن محمد بن مسعود البغدادي الدمشقي الحنبلي، كان محدثاً حافظاً أصولياً ومؤرخاً. له مصنفات كثيرة منها: "جامع العلوم والحكم"، و"لطائف المعارف". توفي سنة (٧٩٥هـ) .

انظر: الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (٢/٥٩-٦٠)، وشذرات الذهب (٦/٣٣٩-٣٤٠)، وذيل ابن عبدالهادي على طبقات ابن رجب (٣٦-٤١) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم (٤/١٩٨٠/ رقم٢٥٥٣).

(٣) سبق تخريجه (١٠٣) .

(٤) سبق تخريجه (١٠١) .

(٥) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/٩٩-١٠٠) .

المطلب الثالث : إرسال الرسل لم يكن لتقرير توحيد الربوبية بل لتقرير توحيد الألوهية

من خلال كلام القاري الذي في المبحث الأول يتبيّن أنه نبه في كلامه على مسألتين مهمتين :

الأولى : أن الإقرار بتوحيد الربوبية مركوز في فطر الخلق .

الثانية : أن دعوة الأنبياء عليهم السلام قاطبة كانت لتحقيق توحيد الألوهية.

المسألة الأولى التي نبه عليها القاري هي إقرار الكفار بتوحيد الربوبية ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾(١)، فالمشركون لو لم يكونوا مقرين بمعرفة الخالق لما قررهم الله ﷻ به، ولذا كانت الرسل عليهم السلام يقولون لقومهم ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾(٢)، فدل ذلك على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين. وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار به (٣).

فالقاري –رحمه الله تعالى– يرى أن الخلق مقرون بتوحيد الربوبية عارفين للوجود ومغايرته لما سواه، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة كما مر معنا في فطرية المعرفة (٤).

---

(١) سورة لقمان، آية (٢٥) .

(٢) سورة إبراهيم، آية (١٠) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/٤٤١) .

(٤) راجع (١١١) .

المسألة الثانية التي نبه عليها القاري في كلامه السابق: أن دعوة الرسل عليهم السلام كانت لتحقيق توحيد الألوهية؛ لأن المشركين كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية كما سبقت الإشارة إليه في المسألة الأولى. وهذه المسألة سوف أفرد لها بحثاً بمشيئة الله -تعالى- في توحيد الألوهية في الباب الثالث[(١)]، فأرجئ الكلام عليها هناك .

ولكن من خلال إشارة القاري لدعوة الرسل عليهم السلام، وأن الرسل إنما أرسلوا لتحقيق توحيد العبادة -كما يأتي بيانه بمشيئة الله تعالى- يتبين لنا أن القاري يقول بفطرية المعرفة -كما سبق بيانه- لأنه لو لم تكن معرفة الله ﷻ ثابتة مستقرة في فطر الخلق لساغ لمعارض الرسل -عليهم السلام- عندما يدعوهم أنبياؤهم إلى إفراد الله بالعبادة، أن يقولوا نحن لم نعرف الله أصلاً، فكيف تأمروننا بعبادته؟ فلما لم يحصل ذلك دل على أن المعرفة كانت مستقرة في فطرهم كما قالت لهم رسلهم ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[(٢)]، وكما قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[(٣)].

فالقاري -رحمه الله تعالى- من خلال تنبيهه على هاتين المسألتين يقول بفطرية المعرفة .

* * * * * *

(١) انظر: (١٨٥) .

(٢) سورة إبراهيم، آية (١٠) .

(٣) سورة الروم، آية (٣٠) .

المبحث الثالث : الميثاق الأزلـــــــــي .

- وفيه مطلبـــــــان :

- المطلب الأول: أقوال القاري في الميثاق .

- المطلب الثاني: عرض أقوال القاري ومناقشته فيها .

* * * * * *

المطلب الأول: أقوال القاري في الميثاق.

قال القاري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾[١]: (قد ورد الأحاديث الصحاح بما يدل على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميز أهل الجنة والنار بوضعهم بيضاً وسوداً في يمينه ويساره[٢]. وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ففي حديثين موقوفين على ابن عباس وابن عمر[٣] -رضي الله عنهم- كما حقّقهما الثقات من المحدثين[٤]، ووافقهما أكثر

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢).

(٢) يأتي تخريجه قريباً.

(٣) هكذا في المخطوطة، والصواب [عن ابن عمرو رضي الله عنهما].

(٤) أ) حديث ابن عباس رضي الله عنهما ورد مرفوعاً وموقوفاً وكلاهما قد صحت به الأسانيد إلا أن الرواة الذين أوقفوه على ابن عباس أكثر وأثبت كما قاله ابن كثير في تفسيره (٤١٥/٢)، فالمرفوع جاء من طريق جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً كما عند الإمام أحمد في مسنده (٢٧٢/١)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٩/١/ رقم٢٠٢)، والحاكم في المستدرك (٢٧/١-٢٨)، (٥٤٤/٢)، والطبري في تفسيره (١١٠/٩-١١١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٥٨/٢-٥٩)، ولكن جميع الرواة عن كلثوم بن جبر باستثناء جرير رووه موقوفاً، فعبد الوارث بن سعيد وإسماعيل بن إبراهيم بن علية، وربيعة بن كلثوم، وحماد بن زيد، كلهم عن كلثوم عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً.

فحديث عبدالوارث بن سعيد: أخرجه الطبري في تفسيره (١١١/٩).

وحديث إسماعيل بن إبراهيم بن علية: أخرجه الطبري في تفسيره (١١٢/٩)، وابن سعد في الطبقات (٢٩/١).

وحديث ربيعة بن كلثوم: أخرجه الطبري في تفسيره (١١٢/٩)، وابن سعد في الطبقات (٢٩/١).

وحديث حماد بن زيد: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٩/١).

فهؤلاء كلهم رووا الحديث موقوفاً خلافاً لجرير بن حازم الذي رواه مرفوعاً.

=

السلف، كأبي بن كعب، ومجاهد، وسعيد بن جبير[1]، وقتادة، والسدي، وغيرهم، ويؤيده ما في الصحيحين عن النبي ﷺ « يقال للرجل من أهل النار: أرأيت لو كان لك جميع الدنيا أكنت مفتديا به؟ فيقول: نعم، فيقال: قد أردت منك أهون من ذلك أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » [2].

وقال الحسن البصري وتبعه جمع من الخلف واختاره المعتزلة أن المراد بهذا الإشهاد أنه خلقهم على فطرة الإسلام ونصب لهم دلايل التوحيد في مقام المرام فصارت هذه الخلقة في مقام الابتلاء بمنزلة أنه قيل لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. لكن لا يخفى أنه لا منع من الجمع ليكون الثاني دال على الأول فتأمل) [3].

= انظر في دراسة هذه الطرق والكلام عليها: كتاب فطرية المعرفة لفضيلة الدكتور أحمد سعد حمدان (٥٢-٦٣)، وكتاب أخذ الميثاق، لفضيلة الدكتور عبدالعزيز العثيم رحمه الله تعالى (٢٩-٣٣).

- وأما حديث ابن عمرو رضي الله عنهما فقد روى مرفوعاً وموقوفاً كما عند ابن جرير الطبري في تفسيره (١١٣/٩).

انظر الكلام على حديث ابن عمرو رضي الله عنهما في: كتاب فطرية المعرفة (٦٧-٧٠)، وكتاب أخذ الميثاق (٣٩-٤٢).

(١) هو أبو محمد سعيد بن جبير الأسدي الكوفي، ولد في حدرد سنة (٤٢هـ)، تابعي مشهور، كان من أصحاب ابن عباس، وكان إماماً عالماً في التفسير والفقه وكان عابداً فقيهاً ورعاً، قتله الحجاج سنة (٩٥هـ). انظر: الطبقات لابن سعد (٣٧٤/٨)، وحلية الأولياء (٢٧٢/٤)، وتهذيب الكمال (٣٥٨/١٠-٣٧٦)، والسير (٣٢١/٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٤٥٢/٢/ رقم٣٣٣٤). وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً (٢١٦٠/٤-٢١٦١/ رقم٢٨٠٥).

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٠/ب)، وانظر: شرح الفقه الأكبر (٨٥-٨٨).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[(١)]: (لا يكون لهم عذر أصلاً لوقوع الميثاق أولاً، ونصب الأدلة على الربوبية ثانياً، وإرسال الرسل لتذكير العهد الأول آخراً)[(٢)]. وقال أيضاً: (والتذكير به -أي الميثاق- على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس)[(٣)].

وقال أيضاً: (قال البيضاوي[(٤)] في تفسيره أن معنى الآية أنه نزل تمكين بني آدم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل، وخلق الاستعداد فيهم، وتمكنهم من معرفتها والإقرار بها، منزلة الإشهاد والاعتراف تمثيلاً وتخييلاً فلا قول ثم ولا شهادة حقيقية[(٥)]. أهـ ، وفيه أن هذا يرجع إلى مذهب المعتزلة وإن كان أصله نقل عن الحسن البصري.

وقال الإمام الرازي: أطبقت المعتزلة على أنه لا يجوز تفسير هذه الآية بهذا الحديث؛ لأن قوله ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ بدل من بني آدم، فالمعنى: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم فلم يذكر أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً، ولو كان المراد الأخذ من ظهر آدم لقيل من ظهره، وأجاب بأن ظاهر الآية على أنه أخرج الذرية من ظهور بني آدم. وأما أنه أخرج تلك الذرية من ظهر آدم فلا تدل الآية على إثباته ونفيه، والخبر قد دل على ثبوته فوجب القول بهما معاً بأن

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٠/ب) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٩١/١) .

(٤) هو أبو الخير، عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي، من قرية يقال لها: البيضا من عمل شيراز. من تصانيفه: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، و"طوالع الأنوار". توفي سنة (٦٩١هـ).

انظر: طبقات الشافعية للأسنوي (١٣٦/١)، والأعلام للزركلي (١١٠/٤).

(٥) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي (٣٦٨/١) .

بعض الذر من ظهر بعض الذر والكل من ظهر آدم صوناً للآية والحديث عن الاختلاف[١].

قال بعض المحققين[٢]: إن بني آدم من ظهره، فكل ما أخرج من ظهورهم فيما لا يزال إلى يوم القيامة هم الذين أخرجهم الله -تعالى- في الأزل من صلب آدم، وأخذ منهم الميثاق الأزلي ليعرف منه أن النسل المخرج فيما لا يزال من أصلاب بنيه، هو المخرج في الأزل من صلبه، وأخذ منهم الميثاق الأول وهو المقالي الأزلي كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني وهو الحالي الإنزالي. والحاصل أن الله -تعالى- لما كان له ميثاقان مع بني آدم، أحدهما تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الحاملة على الاعتراف الحالي، وثانيهما المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلم الأمة ويخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقاً آخر أزلياً فقال ما قال من مسح ظهر آدم في الأزل وإخراج ذريته وأخذه الميثاق عليهم. أهـ ، وبهذا يزول كثير من الإشكالات فتأمل فيها حق التأمل)[٣].

وقال أيضاً في موضع آخر من المرقاة عن هذا الجمع: (وهو في غاية التحقيق ونهاية التدقيق)[٤].

* * * * * *

(١) انظر: التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٣٤٨/٧) .

(٢) يقصد العلامة قطب الدين الشيرازي كما نص على ذلك في المرقاة (٣٣٠/١) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٩٢/١) .

(٤) المصدر السابق (٣٣٠/١) .

المطلب الثاني : عرض أقوال القاري ومناقشته فيها .

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يرى أن لله ﷻ ميثاقين مع بني آدم.
أحدهما: تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الباعثة على الاعتراف الحالي.
والثاني: المقالي التي لا تهتدي إليه العقول، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد كالأنبياء عليهم السلام .

وهذا مما يؤكد قوله بفطرية المعرفة؛ ذلك لأن ثمة ارتباط بين المعرفة الفطرية، وبين الميثاق الذي أخذه الله ﷻ على بني آدم في عالم الذر. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : (يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[2] ...)[3].

قال الشيخ الألباني رحمه الله : (إننا وإن كنا لا نتذكر جميعاً ذلك الميثاق الرباني... فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها والتي تشهد فعلاً بأن الله

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢-١٧٣) .

(٢) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٤١٤) .

هو الرب وحده لا شريك له إنما هي أثر ذلك الميثاق، وكأنّ الحسن البصري -رحمه الله تعالى- أشار إلى ذلك حين روى عن الأسود بن سريع مرفوعاً « إلا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ... الحديث »، قال الحسن عقبه: ولقد قال الله ذلك في كتابه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ......﴾ الآية)[١].

فالآية الكريمة تقرر بوضوح أن الله ﷻ قد أشهد ذرية آدم على ربوبيته ﷻ فأقروا له بذلك واعترفوا، ثم أشهد على هذا الاعتراف، وسواء كان هذا العهد هو قبل الخروج إلى الدنيا في عالم الذر أو كان عهد الفطرة -على خلاف بين أهل العلم كما ذكره القاري- فإن ذلك لا يؤثر في حدوث المعرفة[٢].

فهذه الآية الكريمة تقرر بوضوح أن معرفة الله ﷻ فطرية وأن الخلق مفطورون على ذلك. وهذا ما قرره القاري في كلامه السابق، ولكن كلامه السابق أجمله في مسألتين وسيكون مناقشته من خلالها :

المسألة الأولى: رأي القاري في إخراج الذرية والإشهاد هل كان حقيقياً أو لا ؟.

المسألة الثانية : هل يمكن أن تفسر آية الميثاق بما ذهب إليه المعتزلة .

* * * * * *

المسألة الأولى :

رأي القاري في إخراج الذرية والإشهاد هل كان حقيقياً أو لا؟

القاري -رحمه الله- يرى أن إخراج الذرية من صلب آدم والإشهاد

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٦٣) .

(٢) فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها لفضيلة الشيخ الدكتور أحمد بن سعد حمدان (١٧).

عليهم كان حقيقياً، ولهذا قال (والحاصل أن عهد الميثاق ثابت بالكتاب وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[1] الآية، وبالسنة وهو الحديث الثابت المروي في المصابيح وغيره وتحقيقهما في كتب التفسير وشروح الحديث المنير على ما بيناه في محلهما خلافاً للمعتزلة، حيث حملوا الآية والحديث على المعنى المجازي)[2].

وقال أيضاً: (والصحيح أن قولهم "بلى" كان بالنطق وهم أحياء عقلاء)[3].

وقال أيضاً عند شرحه لحديث « لما خلق آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً[4] من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب! من هؤلاء؟ قال: ذريتك ... الحديث »[5] : (وفي هذا الحديث دليل بيّن على أن إخراج الذرية كان حقيقياً)[6].

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٨٤) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/١٩١) .

(٤) الوبيص: البريق، وقد وبَصَ الشيء يبص وبيصاً. النهاية في غريب الحديث (٥/١٤٦).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه كتاب تفسير القرآن باب (٨) ومن سورة الأعراف (٥/٢٤٩/ رقم٣٠٧٦)، وابن وهب في القدر رقم (٨)، وابن سعد في الطبقات (١/٢٧)، والحاكم في المستدرك (٢/٣٢٥). وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

(٦) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٣٢٣) .

مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [1] : (الظاهر أن هذا الميثاق الخاص كان يوم الميثاق العام وهو الملايم لأنْ يكون شهادة التوحيد والربوبية مقرونة بشهادة النبوة والعبودية إظهاراً لرتبته العلية ومنزلته البهية) [2].

فمن خلال تلك النصوص التي سقتها من كلام القاري يتبين لنا أنه يرى أن الله أخرج ذرية آدم جملة واحدة في وقت واحد، ثم سألهم عن ربوبيته فأجابوا بقولهم، وأقروا له، واعترفوا بربوبيته، وهذا الذي ذهب إليه القاري هو الراجح في هذه المسألة، وقد دلت على ذلك السنة وأقوال الصحابة والتابعين كما يأتي النقل عنهم .

أ – الأدلة من السنة على أن الإخراج والإشهاد كان حقيقيا :

١) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان –يعني بعرفة– فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [3] » [4].

---

(١) سورة آل عمران، آية (٨١) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (٩٨/أ+ب) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٧٢-١٧٣) .

(٤) سبق تخريجه (١٢٣) .

٢) وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول: لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك »[١].

قال الحافظ ابن حجر[٢] عن هذا الحديث: (فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾)[٣].

٣) وحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله تعالى آدم مسح على ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أي رب! من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود. قال: رب! وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب! زده من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها لابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته،

---

(١) سبق تخريجه (١٢٤) .

(٢) هو الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكناني العسقلاني المصري الشافعي، كان حافظاً محدثاً فقيهاً مؤرخاً شاعراً أديباً. له مصنفات كثيرة منها: "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، و"الإصابة في تمييز الصحابة"، و"تهذيب التهذيب" وغيرها. توفي سنة (٨٥٢هـ).

انظر: شذرات الذهب (٧/٢٧٠-٢٧٣)، ومعجم المؤلفين (٢/٢٠-٢٢) .

(٣) فتح الباري (٦/٤٢٥) .

وخطئ آدم فخطئت ذريته »[١].

٤) وعن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: « خلق الله -تعالى- آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى، فأخرج ذريته سوداء، كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي »[٢].

هذه بعض الأحاديث التي وردت في إخراج الذرية من ظهر آدم وإشهادهم على أنفسهم، وثمة أحاديث أخرى لم أذكرها مخافة الإطالة[٣].

ب – الآثار الواردة عند السلف في هذه المسألة :

١) جاء عن أبي بن كعب ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[٤] الآية، قال: (جمعهم فجعلهم أرواحاً ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا. اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري فلا تشركوا بي شيئاً. إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي. وأنزل عليكم كتبي. قالوا

---

(١) سبق تخريجه (١٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/٦) واللفظ له، والبزار في كشف الأستار (٢١/٣) وقال: إسناده حسن، وصححه الألباني انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧٧/١/ رقم٤٩).

(٣) انظر بقية هذه الأحاديث والكلام عليها: كتاب أخذ الميثاق، للدكتور عبدالعزيز العثيم رحمه الله (٧-٥٢)، وكتاب فطرية المعرفة، للدكتور أحمد سعد حمدان حفظه الله تعالى (٣٥-٩٨).

(٤) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك فأقروا بذلك ...)[(١)].

٢) وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان –يعني بعرفة– فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[(٢)]))[(٣)].

٣) وقال ابن جريج[(٤)] عن مجاهد، قال: (إن الله لما أخرجهم قال: يا عباد الله أجيبوا الله، والإجابة: الطاعة، فقالوا: أطعنا، اللهم أطعنا، اللهم أطعنا، اللهم لبيك)[(٥)].

٤) وقال عطاء[(٦)] في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٥/٥) واللفظ له، وابن جرير في تفسيره (١١٥/٩)، والحاكم في المستدرك (٣٢٣/٢-٣٢٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) سورة الأعراف، آية (١٧٢-١٧٣) .

(٣) سبق تخريجه (١٢٣) .

(٤) هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي، الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم، ثقة حافظ فاضل، كان صاحب تعبد وتهجد، وأول من دوّن العلم بمكة، له المناسك وغيره. توفي سنة (١٥٠هـ). انظر: الطبقات لخليفة بن خياط (٢٨٣)، وابن سعد في الطبقات (٥٣/٨-٥٤)، وتهذيب الكمال (٣٣٨/١٨-٣٥٤)، والسير (٣٢٥/٦-٣٣٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١٥/٩) .

(٦) هو عطاء بن أبي رباح، واسم أبي رباح: أسلم القرشي مولاهم المكي، تابعي جليل، كان ثقة عالماً فقيهاً فاضلاً، وكان من أعلم الناس بمناسك الحج، توفي سنة (١١٤هـ).

انظر: الطبقات لابن سعد (٣٣٢/٢)، (٢٨/٨)، والطبقات لخليفة (٢٨٠)، والتاريخ الكبير =

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[١] : (أخرجهم من ظهر آدم حتى أخذ عليهم الميثـــاق، ثم ردهم في صلبه)[٢].

وقال ابن جرير في تفسير الآية السابقة: (واذكر يـــا محمـــد ربـــك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقرّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم علـــى بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به)[٣].

وقال الشنقيطي بعد ذكره لقول الجمهور وهو: (أن الله أخرج جميـــع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرة بذلك الميثاق ... -ثم قال بعد ذلك- هذا الوجه الأخير -أي قول الجمهور- يدل له الكتـــاب والسنة)[٤]، ثم بين وجه دلالة الكتاب والسنة على صحة هذا القول .

وقال ابن الأنباري : (مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هـــذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده)[٥].

وقال الألباني -رحمه الله- بعد الكلام على رواية ابن عبـــاس في أخـــذ الميثاق والإشهاد عليه، وترجيحه بأن الإشهاد ثابت قال: (وجملة القـــول أن

(٤٦٣/٦-٤٦٤)، وتهذيب الكمال (٦٩/٢٠-٨٦)، وسير أعلام النبلاء للذهـــبي (٧٨/٥)، والتقريب (٣٩١) رقم (٤٥٩١) .

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١٦/٩) .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٠/٩) .

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٠١/٢) .

(٥) لباب التأويل في معاني التنـــزيل للخازن (٦٠٩/٢) .

الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى كما سبق، وأنه لا تعارض بينه وبين أخذ الميثاق، فالواجب ضمه إليها، وأخذ الحقيقة من مجموعهما ...)[١].

فالقول بإخراج الذرية وأخذ الميثاق والإشهاد عليهم هو قول السلف الصالح من الصحابة والتابعين دون اختلاف بينهم[٢]، وهذا ما ذهب إليه القاري في هذه المسألة .

* * * * * *

المسألة الثانية :

هل يمكن أن تفسر آية الميثاق بما ذهب إليه المعتزلة .

القاري لا يرى بأس بأن تفسر آية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيَ ءَادَمَ... ﴾[٣] بما ذهب إليه المعتزلة لظاهر الآية .

ولا يري بأساً أيضاً بأن تفسر بما ذهب إليه جمهور السلف من إخراج الذرية والإشهاد عليهم هناك؛ ولهذا لما ذكر الخلاف في تفسير آية الميثاق، قال: (لكن لا يخفى أنه لا منع من الجمع ليكون الثاني دال على الأول فتأمل)[٤].

وقال أيضاً بعدما ذكر قول الزمخشري[٥] في تفسير آية الميثاق: (لا منع

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٢/٤) .

(٢) المصدر السابق (١٥٩/٤) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان ق

(٥) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، داعية من دعاة الاعتزال، صاحب كتاب الكشاف الذي ملأه بالاعتزاليات. ولد سنة (٤٦٧هـ)، وتوفي =

من الجمع وبه يلتئم العقل والسمع)[١]. وإليك نص عبارته في هذه المسألة:

قال القاري: (قال في الكشاف: نزل تمكين بني آدم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل، وخلق الاستعداد فيهم، وتمكينهم من معرفتها والإقرار بها، منزلة الإشهاد والاعتراف تمثيلاً وتخييلاً لا قول ثمة ولا شهادة حقيقة[٢] أهـ. أقول: لا مانع من الجمع وبه يلتئم العقل والسمع، قال المولى العلامة قطب الدين الشيرازي[٣] -رحمه الله- فقد تقرر في بداية العقول أن بني آدم من ظهر آدم فيكون كل ما أخرج من ظهور بني آدم فيما لا يزال هم الذي قد أخرجهم الله تعالى في الأزل من ظهر آدم وأخذ منه الميثاق الأزلي، ليعرف منه أن هذا النسل الذي يخرج فيما لا يزال من أصلاب بني آدم هو الذر الذي أخرج في الأزل من صلب آدم، وأخذ منهم الميثاق وهو المقالي الأزلي، كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني وهو الحالي اللايزالي فلله سبحانه ميثاقان مع بني آدم، أحدها تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الباعثة على الاعتراف الحالي، وثانيهما المقالي الذي لا تهتدي إليه العقول بل يتوقف على توثيق واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الآباء كالأنبياء فأراد عليه الصلاة والسلام أن يعلم الأمة بأن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه ميثاقاً

سنة (٥٣٨هـ). انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٤/٧٨)، ولسان الميزان لابن حجر (٦/٤)، والأعلام للزركلي (٧/١٧٨).

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٣٣٠).

(٢) (٢/١٦٩-١٧٠).

(٣) هو محمود بن مسعود، الشهير بقطب الدين الشيرازي، صنف حاشية على تفسير الكشاف. انظر: طبقات المفسرين لأحمد بن محمد الأدنه وي (١٩٩، ٣٠٣-٣٠٤).

آخر أزلياً فقال ما قال من مسح ظهر آدم في الأزل إلخ وهو في غاية التحقيق ونهاية التدقيق والله أعلم)[١].

هذا الجمع الذي ذهب إليه القاري غريب وعجيب؛ إذ لا يمكن الجمع بين المتضادات، فكيف تُفَسَّر الآية، بأن ذلك من باب التمثيل والتخييل وأنه لا قول ثمة ولا شهادة حقيقية -كما ذهب إليه أهل الاعتزال- ، وتفسر في نفس الوقت أيضاً بما ورد من الأحاديث والآثار عن السلف، بأن ذلك ليس من باب التمثيل والتخييل، بل إن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾، وأن ذلك حق على حقيقته .

فهذا القول الذي ذهب إليه القاري وزعم أنه يلتئم به العقل والشرع مجانب للصواب؛ لأن الآية لا يمكن أن تفسر بما ذهب إليه أهل الاعتزال .

* * * * * *

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٣٣٠) .

الفصل الثالث

دلالات معرفة الخالق وإثبات وحدانيتـــه

وفيه مبحثـــــان :

- المبحث الأول: أقوال القاري -رحمه الله- في دلالات معرفة الخالق .

- المبحث الثاني: عرض الطرق التي سلكها القاري في معرفة الخالق على مذهب السلــــف.

* * * * * *

توطئة :

تقدم في الفصل الثاني أن القاري -رحمه الله تعالى- يرى فطرية المعرفة، وأن الخلق مفطورون على توحيد الله تعالى، وأن كل شيء يدل على وجود الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو أثر من آثار قدرته، فالخلق مفطورون على الإقرار بوجود الخالق .

ولكن لما كانت هذه الفطرة التي فُطر عليها الخلق، قد تنحرف بسبب ما عمّا فُطرت عليه من توحيد الله تعالى، جاءت الأدلة الشرعية تقرر هذا التوحيد، وتذكر الناس بما استقر في فطرهم، فالمؤمن يزداد بها إيماناً والكافر توقظ فيه الفطرة الإيمانية ليؤمن بربه وبخالقه وبارئه [1]، وفي هذا الفصل أعرض الطرق التي سلكها القاري في معرفة الخالق، وأبيّن هل القاري سلك في ذلك طريقة السلف أم لا ؟.

* *   * *   * *

(١) فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها (٢٥) .

المبحث الأول: أقوال القاري رحمه الله تعالى في دلالات معرفة الخالق، وإثبات وحدانيته.

قال رحمه الله تعالى: (فمن الآيات الدالة على وجوده وظهوره وقدرته وحكمته وجوده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١].

فمن أدار نظره في عجائب هذه المذكورات من خلق الأرضين والسموات، وبدائع فطر الحيوانات والنباتات وسائر ما اشتملت عليه الآيات الآفاقية والأنفسية كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [٢]. وقد قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [٣].

وفي كل شيء له شاهد   يدل على أنه واحد[٤]

---

(١) سورة البقرة، آية (١٦٤).

(٢) سورة المؤمنون، آية (١٢-١٤).

(٣) سورة فصلت، آية (٥٣).

(٤) هذا البيت لأبي العتاهية. انظر: ديوان أبي العتاهية (١٢٢)، ولكن الذي في ديوانه "آية" بدل "شاهد"، و "الواحد" بدل "واحد".

ألجأه ذلك إلى الحكم بأن هذه الأمور العجيبة مع هذه التراتيب المحكمة الغريبة لا يستغنى كل منها عن صانع أوجده من العدم، وعن حكيم رتبه على قانون أودع فيه فنوناً من الحكم، وعلى هذا درج كل العقلاء إلا من لا عبرة بمكابرته كبعض الدهرية[(١)] من السفهاء، وإنما كفر بعضهم بالاشتراك حيث دعوا مع الله إلهاً آخر كعبدة الأصنام وسائر الوثنيين من الأنام ...)[(٢)].

وقال أيضاً عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(٣)] :

(﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ بنقص أولهما وزيادة آخرهما وعكسهما، أو اختلافهما نوراً وظلمة، وحرارة وبرودة، ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لدلالات واضحة لأصحاب العقول السليمة المجلوة الخالصة عن شوائب الوهم والغفلة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته)[(٤)].

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[(٥)]:

---

(١) هم الذين ينفون الربوبية، ويسندوا الحوادث إلى الدهر، ويقولون بقدم العالم وينكرون المعاد. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤٧/١)، وبغية المرتاب لابن تيمية (٤٣٠)، وتفسير ابن كثير (٢٣١/٤)، وتفسير القاسمي (٣٩٣/٨) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٢٤-٢٥)، وانظر: أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (٤٣/أ) .

(٣) سورة آل عمران، آية (١٩٠) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (١٢٦/أ+ب)، وانظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٢٣/٣) .

(٥) سورة آل عمران، آية (١٩١) .

(﴿ مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ المعنى ما خلقته عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقته لحكم عظيمة، من جملتها أن يكون مبدأ الوجود الإنسان وسبباً لمعاشه في الأبدان دليلاً يدله على الإيمان بوحدانيتك، ويحثه على القيام بطاعتك؛ لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية)[١].

وقال أيضاً عند تفسيره لسورة النحل -التي تسمى سورة النعم- عند قوله ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢]:

(قوله ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: آية لقوم يتفكرون فيها على وجود الصانع، وحكمته، وكرمه، وجوده، وقدرته فإن من تأمل الحبة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أعلاها ويخرج منه ساق شجرها، وينفتق أسفلها فيخرج منه عروقها، ثم ينمو، ويخرج منه الأوراق والأزهار، والأكمام، والأثمار على أشكال مختلفة وأنواع مؤتلفة، مع اتحاد المواد، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد، ولعل فصل الآية بالتفكر إشعاراً بهذا الإيجاد والإمداد)[٣].

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٤]:

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (١٢٨/أ) .

(٢) سورة النحل، آية (١١) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (٤٢٠/ب) .

(٤) سورة البقرة، آية (١١٨) .

(قوله ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي: أظهرنا الآيات القرآنية، والمعجزات الفرقانية، والدلالات الآفاقية، والأنفسية. لقوم يطلبون اليقين لا لمن عاند وتعلق بوهم وتخمين في أمر الدين)[1].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[2]: (أي: فيها دلائل من أنواع النبات، وأصناف المعادن، والحيوانات. وفي اختلاف أجزائها في الهيئات، والكيفيات، والخواص، والمنافع الكليات والجزئيات يدل على وجود الصانع ووحدته وعلمه وقدرته وإرادته وحكمته)[3].

وقال أيضاً عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[4]: (﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ عدل عن المحاجة بعد انقطاع الحجة كما هو دأب الجهلة عند الغلبة أن يظهروا العداوة بالمشاتمة والمضاربة والمقاتلة، ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: أتفعل في

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣١/ب) .

(٢) سورة الذاريات، آية (٢٠) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٣١٢، ١٢٢٣) .

(٤) سورة الشعراء، آية (٢٣-٣٣) .

ذلك ولو جئتك بحجة ظاهرة هنالك من المعجزة تُبَين صدق دعواي بالرسالة المتضمنة الدالة على وجود الصانع وحكمته)[(١)].

من خلال كلام القاري السابق أخلص إلى أنه سلك في دلالات معرفة الخالق ثلاثة طرق :

الطريق الأول : النظر في دلالة الآفاق .

الطريق الثاني : النظر في دلالة الأنفس .

الطريق الثالث : طريق المعجزة .

وسوف يكون -بمشيئة الله ﷻ - البحث مع القاري من خلال هذه الطرق، وهل هذه الطرق التي سلكها موافقة لمنهج السلف أم لا؟.

* * * * * *

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٠٠-١٠٠١) .

المبحث الثاني : عرض الطرق التي سلكها القاري في معرفة الخالق على مذهب السلف .

وفيه مطلبـــــان :

- المطلب الأول: النظر في دلالة الآفـــاق .
- المطلب الثاني: النظر في دلالة الأنفـــس .
- المطلب الثالث: طريـــق المعجـــزة .

* * * * * *

المطلب الأول: النظر في دلالة الآفــاق.

إن مخلوقات الله ﷻ الدالة على وحدانيته، وتفرده بالعبادة لا تعد ولا تحصى، ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، فإذا تأمل الإنسان العاقل في هذا العالم العلوي، والعالم السفلي، وما فيهما من سائر المخلوقات علم أنه لا بد لها من صانع مدبر حكيم، له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

وهذا ما أشار إليه القاري حيث قال: (فمن الآيات الدالة على وجوده وظهوره وقدرته وحكمته وجوده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ... ﴾[1]، فمن أدار نظره في عجائب هذه المذكورات؛ من خلق الأرضين والسموات، وبدائع فطر الحيوانات، والنباتات، وسائر ما اشتملت عليه الآيات الآفاقية ... ألجأه ذلك إلى الحكم بأن هذه الأمور العجيبة مع هذه التراتيب المحكمة الغريبة، لا يستغني كل منها عن صانع أوجده من العدم، وعن حكيم رتبه على قانون أودع فيه فنوناً من الحكم)[2].

فالقاري -رحمه الله تعالى- يرى أن النظر في الآفاق عامل من عوامل تجلية الفطرة، وأن مخلوقات الله ﷻ التي لا تعد ولا تحصى دالة على وحدانيته ﷻ. وهذه الطريقة التي سلكها القاري وأشار إليها في بعض كتبه[3] هي طريقة

---

(١) سورة البقرة، آية (١٦٤).

(٢) شرح الفقه الأكبر (٢٤-٢٥)، وانظر: أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣/أ).

(٣) انظر: شرح الفقه الأكبر (٢٤-٢٥)، وأنوار القرآن وأسرار الفرقان (٢٣/أ) (١٢٦، ١٢٨/أ)، ومرقاة المفاتيح (١٢٣/٣).

القرآن التي أرشد الخلق إليها. وإليك بعض النصوص الشرعية التي تبين لـك أن هذه طريقة القرآن وسلف الأمة .

الأول : الأدلة من كتاب الله تعالى :

١) قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١].

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: في إيجادهما وخلقهما، وإبداع المخلوقات فيهما، وقدم السموات لاعتلائها مبنى ومعنى، وجمعت لأنها طبقات في جنسها مختلفات، ﴿ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي تعاقبهما سيراً، وتعارضهما طولاً وقصراً، وظلمة ونوراً، وبرداً وحراً، وستراً وظهوراً ... ﴿ لَأَيَـٰتٍ ﴾ أي دلالات على وحدة ذاته، وعلامات على قدرته وبقية صفاته، ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي: ينظرون إليها ويتفكرون فيها)[٢].

وقال ابن كثير رحمه الله : (﴿ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى)[٣].

٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

---

(١) سورة البقرة، آية (١٦٤) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣/أ) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/٣٠٠) .

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (١).

فقوله ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أنهم يعتبرون بصنعة صانع ذلك، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا من ليس كمثله شيء، ومن هو مالك كل شيء، ورازقه، وخالق كل شيء ومدبره، ومن هو على كل شيء قدير، وبيده الإغناء والإفقار، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة (٢).

٣) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

فقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الإشارة بـ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إلى جميع ما سبق ذكره من فلق الحب والنوى إلى آخر ما خلق تعالى، وما امتن به.

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٩٠-١٩١).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٤/٢١٠).

(٣) سورة الأنعام، آية (٩٥-٩٩).

ففي هذه الآيات دلالة واضحة على كمال قدرته، وإحكام صنعته، وأنه المتفرد بالخلق، المستحق للعبادة وحده دون ما سواه[١].

٤) وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢]. إلى غيرها من الآيات الكثيرة .

والآيات الدالة على النظر في الآفاق أكثر من أن تحصر، فالمتأمل في كتاب الله ﷻ يجده مملوءاً بالآيات الكثيرة التي تدعو الخلق إلى النظر والتفكر في ملكوت السموات والأرض[٣]، وأن الله ﷻ لم يخلق ذلك باطلاً، بل خلقه خلقاً صادراً عن الحق، آيلاً إلى الحق، مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (١٩٥/٤) .

(٢) سورة النحل، آية (٣-١١) .

(٣) وانظر كلام ابن القيم حول دلالة الآفاق فقد عقد فصولاً كثيرة في النظر والتفكر في دلالة الآفاق وما أودع الله ﷻ فيها من الحكم الدالة على وحدانية الله ﷻ في كتابه مفتاح دار السعادة (٢٩/٢) وما بعدها .

مقارن له، غاية له .

ولهذا قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾[(١)]، فأتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية، فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته. وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع، والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله وأن لقاءه حق لا ريب فيه. وأما الحق الذي هو غاية خلقها فهو غايتان، غاية تراد من العباد، وغاية تراد بهم، فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى، وصفات كماله ﷻ، وأن يعبدوه لا يشركون به شيئاً، فيكون وحده إلههم ومعبودهم، ومطاعهم، ومحبوبهم. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾[(٢)]، فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته، وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته، ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده. وأما الغاية المرادة بهم: فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِىَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾[(٣)])[(٤)].

---

(١) سورة النحل، آية (٣٩) .

(٢) سورة الطلاق، آية (١٢) .

(٣) سورة النجم، آية (٣١) .

(٤) انظر: بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١٦٢/٤) وما بعدها.

الثاني : الأدلة من السنـــــــــــــة :

عن كريب مولى ابن عباس « أن عبدالله بن عباس أخبره أنه بات عنــــد ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالته، قال: فـــاضطجعت في عـــرض الوســادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها، فنام رسول الله ﷺ، حتى إذا انتصـــف الليل -أو قبله بقليل، أو بعده بقليل- استيقظ رسول الله ﷺ فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده. ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قـــام إلى شن[1] معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي. قال ابـــن عبـــاس: فقمت، فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه، فوضع يده اليمــــنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلـــها. فصلـــى ركعتـــين، ثم ركعتـــين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر. ثم اضطجع حـــتى أتـــاه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج فصلى الصبح »[2].

فالنبي ﷺ يبين بعمله هذا أن تلك الآيات الكونية من خلق الســـــموات والأرض، واختلاف الليل والنهار دليل لأولى الألباب -أي العقـــول- علـــى وحدانية خالقها وبارئها ومتقن صنعتها[3].

الثالث : أقوال أئمة السنة في دلالة الآفاق :

إن النظر في دلالة الآفاق على وحدانية الله ﷻ نبه عليها أئمة السنة. ومنهم:

---

(١) الشن: القربة . انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/٥٠٦) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب قراءة القـــرآن بعـــد الحـــدث وغـــيره (١/٨٠/ رقم١٨٣). ومسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صـــلاة الليل وقيامه (١/٥٢٥/ رقم٧٦٣).

(٣) انظر: كتاب التوحيد لابن منده (١/٩٩) .

١) ابن منده -رحمه الله تعالى- فقد عقد فصولاً كثيرة للدلالة على وحدانية الله ﷻ قال: (ذِكْر ما يستدل به أولو الألباب من الآيات الواضحات التي جعلها الله ﷻ دليلاً لعباده من خلقه على معرفة وحدانيته من انتظام صنعته وبدائع حكمته في خلق السموات والأرض وما أحكم فيها وخلق الإنسان)[1]، ثم ذكر رحمه الله تعالى فصولاً كثيرة في هذا الصدد تدل على ذلك .

٢) وابن جرير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[2]:

قال: (والصواب من القول في ذلك أن الله تعالى ذكره، نبه عباده على الدلالة على وحدانيته، وتفرده بالألوهية دون كل من سواه من الأشياء هذه الآية)[3].

وقال أيضاً: (﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي: لمن عقل مواضع الحجج وفهم عن الله أدلته على وحدانيته)[4].

٣) وأبو المظفر السمعاني، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ...... ﴾[5].

قال: (يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيستدلون به على

(١) كتاب التوحيد لابن منده (٩٧/١) وما بعدها .

(٢) سورة البقرة، آية (١٦٤) .

(٣) تفسير ابن جرير (٦٢/٢) .

(٤) المصدر السابق (٦٥/٢) .

(٥) سورة آل عمران، آية (١٩١) .

وحدانيتـــه) [١].

٤) وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : (فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقاً حق تأمله إلا وجده دالاً على فاطره وبارئه، وعلى وحدانيتـــه، وعلـــى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيـــه. وهذه طريقة القرآن في إرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد، والمعاد، والنبـــوات) [٢].

وبهذا يتبين لنا أن القاري -رحمه الله- لم يخرج في هذه المســـــألة عـــن الكتاب والسنة، وأنه موافق لمذهب السلف في هذه المسألة .

* * * * * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم لأبي المظفر السمعاني (١/٣٨٨) .

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (٤/١٦٢) .

المطلب الثاني : النظر في دلالة الأنفس .

إن الاستدلال بخلق الإنسان من أوضح وأسهل الدلالات على وجود الله ﷻ. وما ذاك، إلا لأن الناس جميعاً مشتركون في مباشرة هذه الدلالة، فالناس هم المستدلون، وهم أنفسهم الدليل والبرهان، فالإنسان هو الدليل وهو المستدل، فدلالة الأنفس على وجود الله -جل وعلا- يعلمها الإنسان من نفسه ويذكرها كلما تذكر في نفسه، وفيمن يراه من بني جنسه [(١)].

فإذا تأمل الإنسان العاقل في نفسه، أو في غيره من بني جنسه يجد فيها من عجائب صنع الله، وبديع حكمته ما يضطر معه إلى الاعتراف والإقرار بالحق ﷻ، وإفراده بالعبادة.

وهذه الطريقة وهي النظر والتفكر في الأنفس، وما أودع الله فيها من الحكم الدالة على وجوده وتفرده بالعبادة وحده دون ما سواه هي التي ارتضاها القاري في الاستدلال على وجود الله جل وعلا .

قال القاري: (فمن أدار نظره في عجائب هذه المذكورات من خلق الأرض والسموات ... وسائر ما اشتملت عليه الآيات الآفاقية والأنفسية كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[(٢)] ... ألجأه ذلك إلى الحكم بأن هذه الأمور العجيبة مع هذه التراتيب المحكمة

---

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/٢٦٢-٢٦٣) .

(٢) سورة المؤمنون، آية (١٢-١٤) .

الغريبة لا يستغني كل منها عن صانع أوجده من العدم، وعن حكيم رتبه على قانون أودع فيه فنوناً من الحكم)[١].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[٢]:

(والمعنى فتأملوا في صنيع الرب من خلق الإنسان، لأنه أقرب وأكثر دلالة وأعجب، بل قيل هو العالم الأكبر و ما دونه من المخلوقات هو العالم الأصغر ... ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلم البطن، والرحم، والمشيمة. ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي هذه أفعاله في خلقتكم، ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي هو المستحق لعبادتكم، ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أي ظاهراً وباطناً، ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا يشاركه في خلق الأشياء غيره، ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف تعدلون عن عبادته إلى الإشراك به؟)[٣].

فالقاري في استدلاله بدلالة الأنفس على وجود الله ﷻ ومن ثم إقراره بالعبادة موافق لمنهج القرآن، وما سار عليه سلف الأمة. وإليك الأدلة على أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن، وأئمة السنة عليهم من الله الرحمة والرضوان.

* * * * * *

الأول : الأدلة من كتاب الله ﷻ :

١) قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ

---

(١) شرح الفقه الأكبر (٢٤-٢٥) .

(٢) سورة الزمر، آية (٦) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١٩١) .

تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

قال ابن كثير: (فمن آيات الله الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة ثم مضغة، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره وتكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض، ويكتسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾) (٢).

٢) وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الروم، آية (٢٠-٢١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦٨٣/٣) .

(٣) سورة المؤمنون، آية (١٢-١٤) .

ذكر الله ﷻ في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه [١]، وفي هذا كله دليل قاطع على وحدانية الخالق ﷻ، فالله ﷻ يدل عباده ببديع صنعه لخلقهم على وحدانيته في ربوبيته وأنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

٣) وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [٢].

فقوله: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: من لطيف الصنعة وبديع الحكمة الدالة على وحدانيته ﷻ [٣].

٤) وقال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [٤].

٥) وقال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [٥]، (بما فيها من آثار الصنعة ولطيف الحكمة، الدالين على وجود الصانع الحكيم) [٦].

٦) وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٣٣٦).

(٢) سورة فصلت، آية (٥٣).

(٣) انظر: تفسير الشوكاني فتح القدير (٤/٥٢٣).

(٤) سورة الزمر، آية (٦).

(٥) سورة الذاريات، آية (٢١).

(٦) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/٣٥٤).

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [(١)].

والآيات في هذا المعنى في كتاب الله ﷻ كثيرة لا مجال لحصرها[(٢)]، والمقصود هنا التنبيه على ما في الإنسان من مظاهر الإحكام وجودة الإتقان وغير ذلك من عجائب صنع المولى جل وعلا مما يضطر معه المرء إلى الاعتراف بالخالق وإفراده بالعبادة دون ما سواه .

الثاني : الأدلة من السنة :

١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج[(٣)] من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم » [(٤)].

والذي وصف لنا في كتاب ربنا أن آدم عليه السلام خلق من سلالة من طين ... إلخ. أي: سلت وأخذت من جميع الأرض ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل[(٥)] والحزن وبين

---

(١) سورة الطارق، آية (٥-٧) .

(٢) ومن أراد المزيد والوقوف على هذه الدلالات فعلية بكتاب التوحيد لابن منده، فقد عقد فصولاً في هذا الصدد، انظر على سبيل المثال (١/٢٠٧-٢١٨)، وكذلك كتاب مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (٢/٥-٢٨) .

(٣) المارج: لَهَبُ النار المختلط بسوادها. انظر: النهاية في غريب الحديث (٤/٣١٥)، وجامع الأصول كلاهما لابن الأثير (٤/٣٣) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (٤/٢٢٩٤/ رقم٢٩٩٦).

(٥) ولذا جاء في الحديث الصحيح: « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنوا آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل =

ذلك[١]. فمن تدبر خلق آدم[٢] عليه السلام وبديع صنع الله فيه دلهُ ذلك على وحدانية الله، وإفراده بالعبادة؛ لأن الخالق هو الذي يستحق أن يعبد وحده دون ما سواه.

٢) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « أن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، و عمله، وأجله، وشقي أو سعيد ... الحديث »[٣].

قال القاري في شرحه لهذا الحديث: (وقال الخطابي[٤] في الحكمة في تأخير كل منهما أربعين يوماً أن يعتاده الرحم؛ لأنه لو خلق دفعة واحدة لشق

والحزْن والخبيث والطيب ». أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر (٥/٦٧/ رقم٤٦٩٣). والترمذي في جامعه، كتاب التفسير، باب (٣) ومن سورة البقرة (٥/١٨٧-١٨٨/ رقم٢٩٥٥). وأحمد في مسنده (٤/٤٠٠). والحاكم في المستدرك (٢/٢٦١-٢٦٢). كلهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وصححه أيضاً محدث العصر الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٧٢/ رقم١٦٣٠).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (٥/٣٣٦) .

(٢) انظر: كتاب الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم للمطرودي، الفصل الأول: آدم عليه السلام والتكوين (١١-١٧) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٢/٤٢٤/ رقم٣٢٠٨)، (٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤). ومسلم في صحيحه في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٤/٢٠٣٦/ رقم٢٦٤٣) .

(٤) هو العلامة المحدث الرحّال، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البُستي، المعروف بالخطابي، كان فقيهاً، رأساً في علم العربية والأدب وغير ذلك، توفي ببلدة بست سنة (٣٨٨هـ). انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/١٠١٨-١٠٢٠)، وطبقات الشافعية للأسنوي (١/٢٢٣-٢٢٤) .

ذلك على الرحم، ويخاف عليها الغم، وأيضاً فيه إظهار آثار قدرة الله تعالى، وإشعار إكثار نعمته على عبيده ليعبدوه ويشكروا له على جميع نعمه، وأيضاً تقليبه في هذه الأطوار المباينة تأكيد لأمر البعث، لأن من قدر عليه ابتداء يقدر على إعادته انتهاء)[١] .

الثالث : من أقوال أئمة السنة في هذه الدلالة :

إن النظر في دلالة الأنفس وما أودع الله ﷻ فيها من الحكم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى قد نبه عليها أئمة السنة، ومنهم :

١) أبو الشيخ ابن حبان الأصبهاني[٢] في كتابه العظمة، فقد عقد مبحث أسماه (ذكر نوع من التفكر في عظمة الله ﷻ ووحدانيته، وحكمته، وتدبيره، وسلطانه، قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[٣]، فإذا تفكر العبد في ذلك استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك وظلمة الريب)[٤].

٢) وابن منده ، فقد عقد في كتابه التوحيد عدة فصول تدل على هذا المعنى، فمن تلك الفصول قوله (ذكر الآيات الدالة على وحدانية الله ﷻ وأنه خالق الخلق ومنشيها من تراب آدم عليه السلام ثم من نطفة ولده، وخلق منها

(١) شرح الأربعين النووية للقاري خ ق (٢٨) .

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري، حافظ أصبهان، ومسند زمانه، صاحب المصنفات السائرة، يعرف بأبي الشيخ، ولد سنة (٢٦٤هـ)، وتوفي سنة (٣٦٩هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (٣/٩٤٥-٩٤٧) .

(٣) سورة الذاريات، آية (٢١) .

(٤) (١/٢٧١) .

زوجها حواء)[١]، ثم ذكر بعد هذا العنوان العام آيات وأحاديث تدل على ذلك المعنى .

وقال أيضاً -رحمه الله- : (ذكر آية تدل على وحدانية الله ﷻ من انتقال الخلق من حال إلى حال)[٢].

٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد إليها وهي عقليّة، فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومولوداً ومخلوقاً من نطفة، ثم من علقة، هذا لم يُعلم بمجرّد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، سواء أخبر به الرسول، أو لم يُخبر. لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودلّ به، وبيّنه، واحتج به، فهو دليل شرعيّ؛ لأن الشارع استدل به، وهو عقليّ؛ لأنه بالعقل تُعلم صحته)[٣].

٤) قال ابن قيم الجوزية: (وإذا تأملت ما دعا الله ﷻ في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ﷻ بوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبره، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه، وعقابه. فبهذا تعرّف إلى عباده، وندبهم إلى التفكر في آياته، ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله -سبحانه-

---

(١) كتاب التوحيد لابن منده (٢٠٧/١) .

(٢) المرجع السابق (٢١٨/١)، وانظر أيضاً: (٢٢٢/١، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٩) .

(٣) النبوات لابن تيمية (٢٩٢/١-٢٩٣) .

لِيُستدل بها على غيرها: فمن ذلك خلق الإنسان ...)[١]. ثم ذكر الأدلة على ذلك وتكلم على تلك الحكم بكلام حسن بديع .

وبهذا يتبين لنا أن استدلال القاري على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهو موافق لما دل عليه الكتاب والسنة وسلف هذه الأمة.

* * * * * *

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٥-٢٨) .

المطلب الثالث: طريق المعجـــزة[1].

إن من الطرق التي سلكها القاري -رحمه الله- لإثبات وجود الله تعـالى طريق المعجزة. فالله ﷻ لم يبعث نبياً إلا ومعه معجزة تدل على صدق قوله من جنس ما قومه عليه. فعيسى -عليه الصلاة والسلام- مثلاً بعث في زمان الحكمـاء والأطباء، وكانت معجزته إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى. فلما عجزوا عن هذه الحكمة مع كونهم حكماء، استدلّوا على أنـه رسـول الله[2]، وإذا ثبت أنه رسول الله بتلك المعجزة، ثبت أن هناك مرسلاً لذلك الرسول أيـده بهذه المعجزة لتكون دليلاً على صدقه، فيصدقونه في جميع ما أخبر به، وأهـم ذلك كله وجود خالق واحد خلقهم من العدم، فيجب عليـهم أن يفـردوه بالعبادة دون ما سواه[3].

فالقاري -رحمه الله- استدل بمعجزة الأنبياء على وجود الخـالق؛ لهـذا قـال في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾[4]: (أي: أتفعل في ذلـك ولو جئتك بحجة ظاهرة هنالك من المعجزة تبين صـدق دعـواي بالرسـالة

---

(١) المعجزة: هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسيّة تشـاهد بالبصر أو تسمع كخروج الناقة من الصخرة، وانقلاب العصا حيّة، وكلام الجمادات، ونحـو ذلك. وإما معنوية تشاهد بالبصيرة كمعجزة القرآن.

إعلام السنة المنشورة للحكمي (٥٣).

(٢) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لأبي القاسم إسماعيل بن محمـد الأصبـهاني (١٩٩/٢).

(٣) انظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات (١٠٦).

(٤) سورة الشعراء، آية (٢٩-٣٠).

المتضمنة الدالة على وجود الصانع وحكمته) [(١)].

فهذه الطريقة التي سلكها القاري هي طريقة الكتاب والسنة وأئمة السنة، وإليك الأدلة على ذلك :

أولاً : الأدلة من كتاب الله ﷻ :

١) قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [(٢)].

ومعنى بصائر: دلالات على وحدانية الله، وصدق رسوله، والإشارة بهؤلاء إلى الآيات التسع [(٣)]، وهي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات. ذكر هذا البغوي عن عكرمة وقتادة ومجاهد وعطاء [(٤)]. فهذه الآيات الظواهر البواهر تبصرك يا فرعون بصدق ما يدعيه موسى ﷺ من أن الله -جل وعلا- هو رب العالمين، وأنه الإله الحق المبين الذي يجب أن يفرد بالعبادة وحده [(٥)]، فموسى ﷺ يحتج

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٠٠-١٠٠١) .

(٢) سورة الإسراء، آية (١٠١-١٠٢) .

(٣) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٨٣/٦) .

(٤) معالم التنزيل للبغوي (١٣٩/٣)، وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير (١٠٩/٣)، فقد ذكر هذه الآيات التسع ونسبها إلى ابن عباس والشعبي بالإضافة إلى ما ذكره البغوي باستثناء عطاء، ثم قال بعد ذكره لهذه الآيات التسع : (وهذا القول ظاهر جلي، حسن قوي) .

(٥) انظر: أنوار القرآن وأسرار الفرقان للقاري رقم اللوح (٤٥٧/ب) .

بالمعجزات على من أنكر وجود الخالق، وهذا يبين لنا الاستدلال بـــالمعجزات على وجود الخالق هي طريقة الأنبياء ومن سار على نهجهم .

٢) وقال تعــــالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ إلى قولـــه: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [١].

فهنا موسى عليه السلام عرض على فرعون الحجة البينة التي جعلها دليلاً علـــى صدق دعواه بأنه رسول رب العالمين، وهذا يتضمن الدلالـــة علـــى وجـــود الصانع وحكمتـــه .

٣) وقـــال تعـــالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [٢].

---

(١) سورة الشعراء، آية (١٦-٣٣) .

(٢) سورة الشعراء، آية (٤١-٤٨) .

فانقلاب العصا ثعباناً عظيماً يبتلع ما يمر به، ثم يعود عصا كما كانت من أدلّ الدليل على وجود الخالق وحياته، وقدرته، وإرادته، وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد) [1].

٤) وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [4]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [5].

فالنبي ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء الذين يقدرون على النظم والنثر. وأنزل عليه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقال لهم ائتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله، فلما عجزوا عن ذلك مع قدرتهم على الكلام، وطول باعهم في الفصاحة والبلاغة، استُدِل بذلك على أنه كلام الله، وأن النبي ﷺ مُرسل من عند الله[6]. فإذا كان الأمر كذلك

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية (١١٩٧/٣) .

(٢) سورة الإسراء، آية (٨٨) .

(٣) سورة هود، آية (١٣-١٤) .

(٤) سورة يونس، آية (٣٨) .

(٥) سورة البقرة، آية (٢٣) .

(٦) انظر: الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، للأصبهاني (١٩٩/٢-٢٠٠) .

وجب تصديقه في كل ما أنبأهم عنه من الغيوب، ودعاهم إليه من أمر وحدانية الله ﷻ[١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً يطول حصرها، والمقصود هنا التنبيه على طريق الرسل في الاستدلال على معرفة الخالق ﷻ بطريق المعجزة.

الثاني : الأدلة من السنة :

إن من طرق الاستدلال على وجود الخالق الاستدلال بمقدمات النبوة، ومعجزات الرسالة، لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها [٢]. وإليك بعض الأدلة على ذلك:

١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: « أرأيت لو دعوت هذا العذق من النخلة أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فدعا العذق، فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط في الأرض، فجعل ينقز حتى أتى النبي ﷺ قال: ثم قال له: ارجع، فرجع، حتى عاد إلى مكانه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وآمن »[٣].

فهذا الرجل لما شاهد هذه الآية صدق النبي ﷺ فيما جاء به من الرسالة، فاكتفى به، وآمن به، وبما جاء به من عند الله، فكان فيما جاء به إثبات الخالق ﷻ ، وأنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه .

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٢٩٩/٧) .

(٢) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، للبيهقي (٣٩-٤٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب المناقب، باب (٦) (٥/٥٥٤/ رقم٣٦٢٨). والحاكم في المستدرك (٦٢٠/٢). وصحّحه الشيخ ناصر الدين الألباني. انظر: صحيح سنن الترمذي (١٩٣/٣)، وهداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة (٣٤٨/٥).

٢) وعن أنس بن مالك ﷺ قال: « نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء. فكان يُعجبنا أن يجئ الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: صدق. قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله. قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله. قال: فبالذي خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم ... الحديث »[1].

فهذا السائل كان قد سمع بمعجزات رسول الله ﷺ فكانت مستفيضة في زمانه، ولعله سمع أيضاً ما كان يتلوه من القرآن فاقتصر في إثبات الخالق ومعرفة خلقه على سؤاله وجوابه عنه[2].

الثالث : من أقوال أئمة السنة في هذه الدلالة :

إن طريق الاستدلال على وجود الخالق عند السلف الاستدلال بالمعجزات التي أرسل الله بها رسله؛ ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الطريقة: (وهذه طريقة السلف من أئمة المسلمين في الاستدلال على معرفة الصانع، وحدوث العالم؛ لأنه إذا ثبتت نبوته بقيام المعجزة، وجب تصديقه على ما أنبأهم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١/١٤-٤٢/ رقم١٢).

(٢) الاعتقاد للبيهقي (٤٢) .

عنه من الغيوب، ودعا لهم إليه من أمر وحدانية الله -تعالى- وصفاته) [١].

وقال أيضاً في قصة موسى عليه السلام مع فرعون (﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢]، ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[٣]، فهنا قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن له إلهاً غير فرعون يتخذه، وكذلك قال تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[٤]، فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة، وذلك لأن المعجزة التي هي فعل خارق للعادة تدل بنفسها على ثبوت الصانع، كسائر الحوادث بل هي أخص من ذلك) [٥].

ويقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : (وهذه الطريق من أقوى الطرق، وأصحّها، وأدلها على الصانع، وصفاته، وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها فإنها جمعت بين دلالة الحسّ والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها ولهذا يسميها الله -سبحانه- آيات بيّنات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها) [٦].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٥٢/٨) .

(٢) سورة الشعراء، آية (١٦-٢٩) .

(٣) سورة الشعراء، آية (٣٠-٣٣) .

(٤) سورة هود، آية (١٤) .

(٥) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٧٩/١١) .

(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١١٩٧/٣-١٢٠٠) .

وبهذا يتبين لنا أن استدلال القاري بطريق المعجـــزة علــى وجــود الله موافق للكتاب والسنة وسلف هذه الأمة .

* * * * * *

الباب الثالث
عقيدة القاري في توحيد الألوهية

وفيه ثلاثة فصـــول :-

- الفصل الأول : مفهوم توحيد الألوهيـــــة .
- الفصل الثاني : العبـــــــادة .
- الفصل الثالث : بعض صور الشرك ووسائله .

* * * * * *

الفصل الأول

مفهوم توحيد الألوهية

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية .
- المبحث الثاني: حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة السلام .
- المبحث الثالث: الأدلة العقلية النقلية لتوحيد الألوهية .

* * * * * *

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهية .

⇦ وفيه مطلبـــــان :

- المطلب الأول: توحيد الألوهية لغـــة .

- المطلب الثاني: توحيد الألوهية في الشرع .

* *   * *   * *

المطلب الأول: توحيد الألوهية لغة :

توحيد الألوهية مركب من كلمتين: مضاف، ومضاف إليه، وقد سبق بيان معنى التوحيد لغة وشرعاً[١]، والمقصود من هذا المبحث بيان الألوهية في مدلولها اللغوي .

الألوهية لفظ منسوب إلى: "الإله"، و"الإله" : "فِعال" بمعنى مفعول أي: معبود، وهذا ما يرجحه القاري في معنى لفظ الجلالة "الله" حين ذكر الخلاف في هذا الاسم الشريف، وارتضى من تلك الأقوال أنه مشتق من أله بمعنى عبد، ولذا استدل لهذا الرأي بقراءة ابن عباس ﴿ وَيَذَرَكَ وَالاهتَكَ ﴾[٢] أي: عبادتك. بخلاف الأقوال الأخرى التي ذكرها فإنه لم يستدل لها بقول أحد من السلف.

والذي يهمنا من تلك الأقوال هو قول القاري، قال رحمه الله: (فالإله فِعال بمعنى "المعبود" كالكتاب بمعنى المكتوب، ويدل عليه قراءة ابن عباس ﴿ وَيَذَرَكَ وَالاهتَكَ ﴾[٣] أي: عبادتك)[٤].

ومما يدل أيضاً على أن القاري يرى أن "الإله" بمعنى المعبود هو ما ذكره في شرحه ضوء المعالي حيث قال: (المراد بالإله: المعبود بحق)[٥].

---

(١) انظر: (٨٠-٨٦) وما بعدها .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٢٧) .

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥٤/١) .

(٤) مرقاة المفاتيح (٤٠/١) .

(٥) ضوء المعالي (٣٥) .

فالقاري يرى أن "الإله" بمعنى "المعبود" وهذا هو الحق الذي دل عليه كلام العرب وإليك البيان من كلام أئمة اللغة .

قال ابن فارس: (أله: الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبُّد، فالإله: الله تعالى، وسمى بذلك لأنه معبود، ويقال تألَّه الرجل إذا تعبد، قال رؤْبة [١]:

لله درُّ الغانيات المُدَّه سبحن واسترجعن من تألهي)[٢].

وقال الجوهري :

(أله بالفتح إلاهةً، أي عَبَدَ عِبادَةً، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ويَذَرَكَ وإلاهتك﴾[٣] بكسر الهمزة، قال: وعبادتك وكان يقول: إن فرعون كان يُعبدُ في الأرض)[٤].

وقال ابن منظور: (الإله "الله" ﷻ، وكل ما اتخذ من دون الله معبوداً، "إلهٌ" عند متخذه، والجمع "آلهة" ...)[٥].

فما ذكره القاري في معنى الإله موافق لما عليه أهل اللغة كما سبق النقل عنهم، فالألوهية مصدر أله يأله الاهة وألوهة بمعنى العبادة .

* * * * * *

---

(١) هو رؤبة بن الحجّاج التميمي، أبو الجحّاف الراجز، من أعراب البصرة، كان رأساً في اللغة، توفي سنة (١٤٥هـ). انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٣٦٣-٣٦٦)، والسير (١٦٢/٦).

(٢) مقاييس اللغة (١٢٧/١) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٢٧) .

(٤) الصحاح (٢٢٢٣/٦) .

(٥) لسان العرب (٤٦٧/١٢) .

المطلب الثاني : توحيد الألوهية في الشرع

سبق أن بينا أن "الإله" في اللغة بمعنى المعبود، وفي هذا المطلب سيكون الحديث عن معناه في الشرع .

١) قال القاري -رحمه الله تعالى- في تفسير كلمة التوحيد :

(لا إله إلا الله : أي لا معبود بحق في الوجود إلا الله الواجب الوجود لذاته)[(١)].

٢) وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[(٢)]:

(﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعم أهل الكتاب ومن يجري مجراهم في الخطاب، ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ ﴾ أي مستوية بيننا وبينكم مما لا يختلف فيه الرسل الواردة عليكم، والكتب المنزلة إليكم، والكلمة تطلق على الجملة، وتفسيرها ما بعدها وهي أن لا نعبد إلا الله أي نوحده بالعبادة، ونخلصه في الطاعة ولا نشرك به شيئاً من الإشراك لا جلياً ولا خفياً)[(٣)].

وفسر أيضاً الكلمة التي في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً

---

(١) مرقاة المفاتيح (٢/٦٢٩). وانظر: (١/١١٢، ١٣٦)، وشرح عين العلم وزين الحلم (١/١٣).

(٢) سورة آل عمران، آية (٦٤) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٩٥/ب) .

فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[(١)] بكلمة التوحيد، لا إله إلا الله .

٣) قال القاري: (﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ ﴾ أي جعل الله كلمة التوحيد كلمة باقية، ﴿ فِي عَقِبِهِ ﴾ في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى ملته)[(٢)].

٤) قال القاري في تفسير كلمة التوحيد: (وأما الكلام عليه بمقتضى المعنى "لا إله إلا الله" : لا مستغنى عن كل ما سواه، ولا مفتقر إليه كل ما عداه إلا الله تعالى، وهذا معنى جامع مانع في ملاحظة التوحيد، ومطالعة التفريد في نظم المريد بما ليس عليه مزيد)[(٣)].

يتبين لنا من كلام القاري السابق أن له تفسيرين لكلمة "الإله" :

الأول: أنه بمعنى المعبود . فالقاري في النص الأول فسر "الإله" بالمعبود. وفي الثاني والثالث فسّر الكلمة التي جعلها إبراهيم في عقبه -أي ذريته- والكلمة التي أُمر نبينا ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إليها بكلمة التوحيد، لا إله إلا الله، فنتج من ذلك أن تفسير كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[(٤)]، و﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾[(٥)].

فكلمة التوحيد لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات، النفي المستفاد من قول "لا إله"، والإثبات المستفاد من قول "إلا الله". وكذلك تفسير هذه الكلمة

---

(١) سورة الزخرف، آية (٢٦-٢٨) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٥٣) .

(٣) التجريد لإعراب كلمة التوحيد (٣٥-٣٦) .

(٤) سورة آل عمران، آية (٦٤) .

(٥) سورة الزخرف، آية (٢٦، ٢٧) .

وهي قوله تعـــالى: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، و﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾، فإنهما اشتملتا على نفي وإثبات كما اشتملت عليه كلمة التوحيـــد، فتحصّل من ذلك أن "الإله" بمعنى المعبود، وهذا هو الحـــق، فالإلـــه في اللغـــة والشرع اسم لكل معبود حقاً كان أو باطلاً .

قال الراغب: (إلـــه : جعلوه اسماً لكل معبود) [١].

ومما يدل على أن الإله بمعنى المعبود علاوة على ما ذكره القاري قـــــول الله تعـــــالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[٢]، فالله -جل وعلا- سمى معبودات المشركين آلهة، وأبطل كونها آلهة حقاً، فـــدل ذلك على أن "الإله" بمعنى "المعبود" .

وكذلك مشركو العرب كانوا يسمون معبوداتهم آلهة، كما حكـــى الله عنهم ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [٣].

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [٤].

﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [٥].

فهؤلاء المشركون كما في هذه الآيات سموا معبوداتهم آلهة .

---

(١) المفردات في غريب القرآن (٣١) .

(٢) سورة الفرقان، آية (٣) .

(٣) سورة الفرقان، آية (٤٢) .

(٤) سورة الصافات، آية (٣٦) .

(٥) سورة ص، آية (٥) .

فنتج من ذلك أن "الإله" هو "المعبود"، وليس معنى الإله القادر على الاختراع كما عليه علماء الكلام .

"فالإله" : هو المعبود سواء عبد بحق، أو بباطل هذا هو المتقرر في اللغة والشرع كما سبق بيانه .

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: « الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين » [١]، وقرأ ابن عباس -رضي الله عنهما- قوله تعالى: ﴿ويَذَرَكَ وإلاهتَكَ﴾[٢] بكسر الهمزة أي وعبادتك، وعلل ذلك بقوله: (لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعْبد) [٣].

فالقاري في نصوصه السابقة ما عدا النص الأخير لم يُرجع توحيد الألوهية إلى توحيد الربوبية كما عليه علماء الكلام، بل فسر توحيد الألوهية بإفراد الله ﷻ بالعبادة، ولهذا قال في تفسير كلمة التوحيد: (﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[٤] أي: نوحده بالعبادة، ونخلصه في الطاعة، ولا نشرك به شيئاً من الإشراك لا جلياً ولا خفياً) [٥].

وقال أيضاً في تفسيره للفظ الجلالة "الله" : (ومعناه المستحق للعبادة) [٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥٤/١) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٢٧) .

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير (٥٤/١) .

(٤) سورة آل عمران، آية (٦٤) .

(٥) أنوار القرآن وأسرار الفرقان ق (٩٥/ب) .

(٦) مرقاة المفاتيح (٧٥/٥) .

التفسير الثاني لكلمة التوحيد أنه بمعنى المستغني عن كل ما سواه المفتقر إليه كل ما عداه، هذا التفسير الذي ذكره القاري وزعم أنه جامع مانع مأخوذ من متن عقيدة السنوسي الأشعرية [(١)].

فتفسير القاري لكلمة التوحيد -لا إله إلا الله- بأن معناها لا مستغنيَ عما سواه، ولا مفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله، تفسير باطل ترده اللغة، وترده النصوص الشرعية كما سبق بيانه، فالله ﷻ في أكثرَ من آية فسر كلمة التوحيد التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه بأن معناها: إفراده جل وعلا بالعبادة دون ما سواه كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ...... ﴾ [(٣)].

وقال تعالى: ﴿ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [(٤)].

وقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [(٥)].

إلى غير ذلك من الآيات التي فيها بيان وتفسير لكلمة التوحيد التي أرسلت بها الرسل، هذا من وجه .

---

(١) انظر: متن السنوسية المسمى بأم البراهين تهذيب شرح السنوسية (١٦٨) .

(٢) سورة النحل، آية (٣٦) .

(٣) سورة الإسراء، آية (٢٣) .

(٤) سورة هود، آية (١-٢) .

(٥) سورة النساء، آية (٣٦) .

ومن وجه آخر مما يبين بطلان هذا التفسير لكلمة التوحيد أن هذا التفسير يعود إلى توحيد المعرفة والإثبات، وثمة فرق بين توحيد المعرفة والإثبات وتوحيد القصد والطلب .

فالنزاع الذي حصل بين الرسل وأممهم هو في توحيد القصد والطلب وليس في توحيد المعرفة والإثبات، ولهذا لو كان تفسير كلمة التوحيد بأنه لا مستغنيَ عما سواه، ولا مفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله لكان كفار قريش مؤمنين و لم ينازعوا النبي ﷺ في هذه الكلمة و لم يقولوا له: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[1].

ومما يدل على أن المشركين قد أقروا بتوحيد الربوبية ما حكاه الله عنهم في القرآن .

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة ص، آية (٥) .

(٢) سورة يونس، آية (٣١) .

(٣) سورة المؤمنون، آية (٨٤-٨٩) .

قإقرارهم بأن الله هو الرازق، وهو المالك للسمع والبصر، وهو الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، إلى غير ذلك من أفراد توحيد الربوبية، يدل على أن الكفار كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، إذ إن توحيد الربوبية -كما مر معنا[1]- هو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير، فالكفار لم ينازعوا الرسل -عليهم السلام- في توحيد الربوبية، بل نازعوهم في أفراد الله ﷻ بالعبادة، ولهذا قال الكفار لنبينا محمد ﷺ ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾[2].

قال المقريزي[3] رحمه الله : (ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الألوهية ... فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد؛ ولهذا كان أصل "الله" الإله، كما هو قول سيبويه وهو الصحيح)[4].

فتحصل مما ذكرناه أن تفسير القاري لكلمة التوحيد كما في كتابه التجريد في إعراب كلمة التوحيد[5]، تفسير مجانب للصواب، وهو مأخوذ من

---

(١) انظر: (٩٩) .

(٢) سورة ص، آية (٥) .

(٣) هو أحمد بن علي بن عبدالقادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية ولد بالقاهرة سنة (٧٦٦هـ)، وتوفي بها سنة (٨٤٥هـ). من مصنفاته: تاريخ بناء الكعبة، تاريخ الأقباط، تجريد التوحيد المفيد .

انظر: الأعلام للزركلي (١/١٧٧-١٧٨).

(٤) تجريد التوحيد المفيد (٤٦-٤٨) .

(٥) انظر: (١٧٧) من هذه الرسالة .

علماء الكلام الذين لم يهتموا بتوحيد القصد والطلب الذي من أجله أرسل الله الرسل، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1].

تنبيه : لو قال قائل: لماذا لا نقول بأن القاري مراده بالافتقار، الافتقار الاختياري الذي يدخل في معنى العبادة؟.

الجواب :

هذا الحمل لكلام القاري حسنٌ وله وجه لو لم يكن للقاري تفسير لكلمة الافتقار، قال القاري: (وأما افتقار كل ما سواه إليه فيوجب له الحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم؛ لأنه لو انتفى شئ من هذا لما أمكن أن يوجد شئ من الحوادث فلا يفتقر إليه شئ، كيف؟ وهو الذي يفتقر إليه كل ما عداه، وكذلك يوجب له الوحدانية، إذ لو كان معه ثان في الألوهية لما افتقر إليه شئ للزوم عجزهما حينئذٍ، كيف؟ وهو الذي يفتقر إليه كل ما سواه)[2].

فالقاري من خلال شرحه للافتقار يتبين لنا أنه يرجع الافتقار إلى الافتقار الاضطراري الذي يدخل في توحيد المعرفة والإثبات، وبهذا لا يمكن حمل كلامه على الافتقار الاختياري، ولكن الشرح المذكور لكلمة الافتقار منقول عن بعض شراح متن عقيدة السنوسي، وليس من كلام القاري بل إن القاري ناقل لهذا التفسير عن غيره، ولعله حينما نقله لم يتبين له بطلانه، ولاسيما أن القاري في كثير من كتبه يقرر توحيد الألوهية، وأن الرسل ما أرسلوا إلا

---

(١) سورة النحل، آية (٣٦) .

(٢) التجريد لإعراب كلمة التوحيد (٣٦) .

لتحقيق توحيد العبادة -كما سيأتي بمشيئة الله بيانه في المبحث الثاني- فتفسير من فسر كلمة التوحيد بتوحيد الربوبية تفسير باطل لا دليل عليه.

وبعد عرض كلام القاري للمدلول اللغوي والشرعي لكلمة "الإله" بأنه المألوه المعبود، نخلص إلى تعريف توحيد الألوهية، وهو إفراد الله ﷻ بالتأله أي: التعبد. وهذا ما قرره علماء المذهب السلفي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (والإله المألوه الذي تألهه القلوب، وكونه يستحق الألوهية مستلزم لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبوداً محبوباً لذاته إلا هو، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل)[1].

* * * * * *

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٨٤٦) .

المبحث الثاني: حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم السلام.

سبق أن أشرت إشارة في الفصل الثاني في معرفة الله ﷻ(١) بأن القاري يرى أن الهدف من إرسال الرسل هو تحقيق توحيد العبادة، وفي هذا المبحث -بمشيئة الله- سوف نزيد المسألة إيضاحاً، ونبين بالأدلة من الكتاب وصحيح السنة أن حقيقة بعثة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما كانت لتحقيق توحيد الألوهية.

قال القاري: (فاعلم أن أدلة التوحيد مشحون بها القرآن لأهل العرفان قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٣)، وقد جعلت كلمة التوحيد مفيدة لنفي ما سواه في الألوهية، وعدم غيره في استحقاق العبودية مع اعتراف جميع الكفار بتوحيد الربوبية)(٤).

وقال أيضاً: (وإنما جاء الأنبياء -عليهم السلام- لبيان التوحيد وتبيان التفريد، ولذا أطبقت كلمتهم وأجمعت حجتهم على كلمة لا إله إلا الله، ولم يؤمروا بأن يأمروا أهل ملتهم بأن يقولوا الله موجود بل قصدوا إظهار أن غيره ليس بمعبود رداً لما توهموا وتخيلوا حيث قالوا ﴿ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ ﴾(٥)،

---

(١) انظر: (١٢٠).

(٢) سورة البقرة، آية (١٦٣).

(٣) سورة محمد، آية (١٩).

(٤) ضوء المعالي (٣٠).

(٥) سورة يونس، آية (١٨).

و﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[١])[٢].

يتبين لنا من خلال هذين النصين أن القاري يقرر أن التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وركزت عليه هو توحيد الألوهية الذي هو حق الله على العبيد، وأن المستحق لهذه العبادة هو الله -جل وعلا- وحده وهذا الذي ذكره القاري هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإليك بعض النصوص علاوة على ما ذكره القاري .

أولاً : الأدلة من الكتاب العزيز .

١ - قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[٣].

فهذه الآية دلت على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وأن أصل دين الأنبياء واحد وهو الإخلاص في العبادة وإن اختلفت شرائعهم، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٤] [٥].

٢ - وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٦].

---

(١) سورة الزمر، آية (٣) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٢٣-٢٤) .

(٣) سورة النحل، آية (٣٦) .

(٤) سورة المائدة، آية (٤٨) .

(٥) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله التميمي (٥١).

(٦) سورة الأنبياء، آية (٢٥) .

فهذه الآية تبين لنا أن كل الرسل الذين من قبل نبينا محمد ﷺ مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة [(١)].

والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصر .

ثانياً : الأدلة من السنة .

١ – حديث ابن عباس –رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ... » وفي رواية: « إلى أن يوحدوا الله ... » [(٢)].

٢ – حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟، فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأتى به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: « انفذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ... » [(٣)].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (٢٢٣/٥) .

(٢) سبق تخريجه (٨٥) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة (٣٤٤/٢-٣٤٥/ رقم٣٩٤٢). ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، =

ففي هذين الحديثين دلالة ظاهرة على أن التوحيد هو إخلاص العبادة لله وحده والبعد عن عبادة ما سواه .

وهذا هو أول واجب على العباد، لا كما يقول أهل الكلام من المعتزلة، والأشاعرة وغيرهم، أن أول واجب على العبد النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، أو القصد إلى النظر، أو الشك، ففي هذين الحديثين وأمثالهما من نصوص الكتاب والسنة ما يبطل هذا الزعم الخاطئ [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدو ولياً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان، قال: وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء) [(٢)].

إذاً فالقاري يتفق مع أئمة المذهب السلفي في تقرير هذه المسألة.

وهذا يبين لنا أنه لم يذهب إلى ما ذهب إليه علماء الكلام من تركيزهم على توحيد الربوبية، وإهمالهم لتوحيد العبادة الذي من أجله أرسل الله الرسل،

باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١٨٧٢/٤/ رقم٢٤٠٦).

(١) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للشيخ عبدالله الغنيمان (٣٩/١-٤٠).

(٢) فتح المجيد (١٩١/١) .

فتوحيد الألوهية هو أول دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كما مر معنا في النصوص التي سبق ذكرها، وهو أيضاً آخر دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهو أول الأمر وآخر الأمر.

فهذا يعقوب -عليه الصلاة والسلام- لما حضره الموت وصى بنيه بتوحيد الألوهية الذي من أجله أرسل، قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

وخلاصة الكلام في هذا المبحث أن القاري يرى أن حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو توحيد العبادة، ومما يدل على ذلك أيضاً اهتمام القاري -رحمه الله تعالى- لتقرير هذا النوع بالأدلة العقلية النقلية الواردة في كتاب الله ﷻ، وهذا ما سأبينه -بمشيئة الله- في المبحث الثالث.

* *　　* *　　* *

---

(١) سورة البقرة، آية (١٣٣).

المبحث الثالث : الأدلة العقلية النقلية لتوحيد الألوهية .

وفيه ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.
- المطلب الثاني: الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات .
- المطلب الثالث: الاستدلال بضرب الأمثال .

* * * * * *

المطلب الأول : الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

اشتمل كتاب الله ﷻ على كثير من الأدلة العقلية التي تدعو الناس إلى عبادة الله ﷻ وأنه المستحق للعبادة وحده، وأن ما سواه لا يستحق شيئاً من ذلك.

وقد عرض القاري هذه الأدلة العقلية، وبين كيفية دلالتها على توحيد العبادة، ويمكن حصر كلام القاري في الاستدلال على توحيد الألوهية في ثلاث طرق:

الأول: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية .

الثاني: الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات .

الثالث: الاستدلال بضرب الأمثال .

ومجال الحديث هنا عن أول هذه الأدلة .

قال القاري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [1]:

(﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله، فلا تعبدوا إلا إياه، ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي: كيف تصرفون عنه إلى ما سواه) [2].

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [3]:

---

(١) سورة الأنعام، آية (٩٥) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢١٥/ب). وانظر: خ ق (١٢٢١) .

(٣) سورة يونس، آية (٣١، ٣٢) .

(﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: المتولي لهذه الأمور هو المستحق للعبادة، هو﴿ رَبُّكُمُ ﴾ الربوبية حيث أنشأكم، وأحياكم، ورزقكم، ودبر أمركم على وفق المشيئة والإرادة، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ ليس بعد الحق إلا الباطل فمن يخطى الحق الذي هو عبادة الحق وقع في تيه الضلال الموجب للأغلال والأنكال، ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ عن الحق إلى الباطل مع وضوح أنه ليس تحته طائل) [(١)].

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[(٢)]:

(﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾، ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأنتم مغمورون في فضله وخيره) [(٣)].

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[(٤)]:

(﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ المضطر الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجأ إلى الله، والرجأ من بابه ...... ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ الذي عمكم بهذه النعمة العامة، وخصكم بهذه المنحة الخاصة، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: تذكرون آلائه ونعمائه تذكراً قليلاً، و﴿ ما ﴾ زائدة، والمراد بالقلة العدم

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٣٥/ب) .

(٢) سورة غافر، آية (٦٢) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٢١) .

(٤) سورة النمل، آية (٦٢) .

والحقارة المربحة للفائدة إذ فائدة التذكر هي توحيد الله -سبحانه- بالعبادة، ولا ترتب على تذكرهم تلك الفائدة)[(١)].

يتبين لنا من خلال كلام القاري السابق، أنه يستدل بإقرار الكفار بتوحيد الربوبية على إلزامهم بتوحيد الألوهية؛ ولذا قال في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[(٢)]: (﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله)[(٣)].

وهذه الأشياء هي فلق الحب والنوى، وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، وهذه كلها أفعال داخلة في توحيد الربوبية فإذا كنتم تقرون أن الله فاعل هذه الأشياء فكيف تصرفون عنه إلى ما سواه؟ .

وقال أيضاً في آية سورة يونس ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[(٤)]: (أي: المتولي لهذه الأمور هو المستحق للعبادة)[(٥)]، وهذه الأمور التي أشار إليها القاري هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ ﴾[(٦)]، فإذا كنتم تقرون أن الله هو الذي يرزقكم من السماء والأرض، وهو الذي يملك السمع والأبصار، وهو الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وهو الذي يدبر الأمر فلماذا لا

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٣٠)، وانظر: ق (١٠٢٩) .

(٢) سورة الأنعام، آية (٩٥) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان ق (١٢٢١) .

(٤) سورة يونس، آية (٣٢) .

(٥) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢١٥/ب) .

(٦) سورة يونس، آية (٣١) .

تفردونه بالعبادة دون ما سواه؟ .

وكذلك يقال في الآية الثالثة والرابعة كما قيل في الآية الأولى والثانية، فالقاري يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، أي أنه يلزم هؤلاء المشركين أن يخلصوا العبادة لله لأنه هو الخالق والرازق والمحيي والمميت وغير ذلك من أفراد توحيد الربوبية، وإذا كان الأمر كذلك فإن لازم هذا الإيمان أن تؤمنوا بأنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه، فلا يصرف شيء من أنواع العبادة لغيره سبحانه .

فالقرآن مملوء بهذا النوع من الاستدلال العقلي القاطع، ولهذا قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (وقد أقام الله -جل وعلا- البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله نفياً وإثباتاً، بخلقه للسماوات والأرض، وما بينهما في قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [1] الآية، وبذلك تعلم أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بأعظم الحق الذي هو إقامة البرهان القاطع، على توحيده جل وعلا، ومن كثرة الآيات القرآنية، الدالة على إقامة هذا البرهان القاطع المذكور على توحيده جل وعلا، علم من استقراء القرآن، أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة، وبين من لا يستحقها، هي كونه خالقاً لغيره، فمن كان خالقاً لغيره، فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج لا يصح أن يعبد بحال) [2].

وقال المقريزي: (ويحتج الرب -سبحانه- عليهم بتوحيدهم ربوبيته على

---

(١) سورة البقرة، آية (٢١-٢٢) .

(٢) أضواء البيان (٣٦٦/٧) .

توحيد ألوهيته كما قال الله تعالى ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ ﴾[1])[2].

وقال ابن قيم -رحمه الله- في الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية: (وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده)[3].

وقد ذكر ابن سعدي -رحمه الله- أن توحيد الربوبية يدل على إفراد الله ﷻ بالعبادة فقال: (ويدعو العباد إلى ما تقرر في فِطَرِهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير، والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، هو الذي يستحق العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره، وأن سائر الخلق ليس عندهم أي: قدرة على خلق، ولا نفع ولا دفع ضر عن أنفسهم فضلاً عن أن يُغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئاً)[4].

* * * * * *

---

(١) سورة النمل، آية (٥٩-٦٠) .

(٢) تجريد التوحيد المفيد (٤٨) .

(٣) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (٤٢٧-٤٢٨) .

(٤) القواعد الحسان لتفسير القرآن، لابن سعدي (٨/٢٣) موجودة ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله .

المطلب الثاني: الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات

قال القاري في تفسير قولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[١]:

(قوله ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ ﴾ خطاب عام أي: المستحق منكم العبادة على نعـــت الألوهية، ﴿ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له أن يسمى إلهاً معبوداً، ولا نظير لـــه أن يجعل مشهوداً، ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تقرير للوحدانيـــة واســـتحقاق العبوديـــة، ﴿ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ أي: مولي النعم كلها أصولها وفروعها، وما سواه إمـــا نعمة أو منعم عليه. فلم يستحق العبادة غيره لأن مرجع الكل إليه)[٢].

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٣]:

(﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ﴾ تقرير لعظمتـــه، وتحريـــر لعزتـــه وغلبته، ورد على من زعم منهم أن آلهتهم تشفع لهم، وإثبات الشـــفاعة لمـــن حصل إذن من ربهم، ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ﴾ أي: الموصوف بتلك الصفـــات العليـــة المقتضية للألوهية والربوبية، ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ لا غيره إذ لا يشاركه أحد من ذلـــك، ﴿ فَاعْبُدُوهُ ۚ ﴾ وحدوه بالعبادة، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ في أمركم أيها المشـــركون

---

(١) سورة البقرة، آية (١٦٣) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٢/ب). وانظر: خ ق (١٠٥٥) .

(٣) سورة يونس، آية (٣) .

فتعرفون أنه المستحق للعبادة لا ما تعبدونه) [(١)].

يتبين لنا من خلال النصين السابقين أن القاري يستدل بتوحيد الأسماء والصفات على إفراد الله ﷻ بالعبادة، فقد ذكر في النص الأول أن مولي النعم كلها أصولها وفروعها هو الله ﷻ ، وإذا كان هو مولي النعم فإنه هو الذي يستحق أن يعبد وحده دون ما سواه، فهذه النعم كلها من آثار صفة الرحمة، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عن العباد كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبين لهم كلّ ما يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة دقت أو جلت فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً علم أنه لا يستحق العبادة إلا المتفرد بالنعم، الدافع للمكاره، وتعين على العباد أن يفردوه بالمحبة، والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع العبادات [(٢)].

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله: (ففي هذه الآية[(٣)] إثبات وحدانية البارئ وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، والاستدلال على ذلك بتفرده بالرحمة، التي من آثارها جميع البر والإحسان في الدنيا والآخرة) [(٤)].

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٢٨/ب). وانظر: خ ق (٨٣٢) .

(٢) انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لابن سعدي (١٩٤/٨) الموجود ضمن المجموعة الكاملة للمؤلف .

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة: (١٦٣).

(٤) المرجع السابق (١٩٤/٨) .

وفي النص الثاني نرى القاري يستدل على توحيد الألوهية بأن الموصوف بتلك الصفات العليا: من الاستواء على العرش، وخلق السموات والأرض في ستة أيام، وتدبير الأمر هو المستحق للعبادة دون ما سواه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(والله -سبحانه- لم يذكر هذه النصوص -يعني آيات الصفات- لمجرد تقرير صفات الكمال له، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد، وهما إثبات صفات الكمال رداً على أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو رداً على المشركين والشرك في العالم أكثر من التعطيل)[1].

وقال ابن سعدي -رحمه الله- في القاعدة السادسة، في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده: (ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل -وهو إفراد الله بالعبادة- بما يتمدح به، ويثني على نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أخلصت له القلوب والأعمال الظاهرة والباطنة)[2].

* *　　* *　　* *

(١) مجموع الفتاوى (٦/٨٣) .

(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن (٨/٢٣) الموجود ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن سعدي .

المطلب الثالث: الاستدلال بضرب الأمثال .

١ - قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(١)].

قال القاري: (﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾ وُلِدَ أخرس لا يفهم ولا يُفهم، ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ من تدبير عمله لنقصان عقله، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ ﴾ أي: ثقل وعيال على ولي أمره، ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ حيث ما يرسله مولاه في أمر ينفعه، ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ من كفاية مهمة .

﴿ هَلْ يَسْتَوِى ﴾ أي: في الفضل، ﴿ هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أي: ومن هو فهيم منطيق عليم، ذو كفاية ورشد ورعاية ينفع نفسه، وينصح غيره بحثه على العدل الشامل لجامع الفضائل ومكارم الشمايل .

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ في دين قويم لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بسعي أقرب، وهذا تمثيل آخر ضربه الله لنفسه والأصنام لإبطال المشاركة بينه وبينها كما وقعت في الأوهام، أو للمؤمن والكفار وبرهان ملة الإسلام وبطلان عبادة الأصنام)[(٢)].

٢ - وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)].

---

(١) سورة النحل، آية (٧٦) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣٠/أ) .

(٣) سورة الزمر، آية (٢٩) .

قال القاري: (﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي: بين مثلاً للمشرك والموحد وأبدل منه ﴿ رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ متخـــالفون متنـــازعون، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ مثل المشرك على ما يقتضيه طريقته من أبدى كل واحد من معبوديـــه عبوديته بعبد يتشارك فيه جمع يتجاذبونه ويتناوبونه في خدمته على وفق مهامهم المختلفة في تحيره، وتشتت فكره، وتوزع أمره، وتضييق صدره. ومثل الموحـــد بمن خلص لواحد في ملازمته ليس لغيره عليه سبيل في مطالبته ....

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ أي: الرجلان أو المثلان، ﴿ مَثَلًا ﴾ أي: صفة وحـــالاً. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ لا يشاركه فيه على الحقيقة سواه لأنه المنعم بالذات علـــى مـــا عداه، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيشركون غيره به من غلبة جهالتـــهم وقـــوة ضلالهم)[(١)].

٣ – وقال تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾[(٢)].

قال القاري: (والمعنى بينا لهم من كل مثل ينبهـــهم علـــى التوحيـــد والبعث وصدق الرســـل)[(٣)].

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يستدل لتوحيد الألوهية بالأمثلـــة العقلية المضروبة في القرآن لبيان توحيد العبادة، وأن الله هو المستحق للعبـــادة دون ما سواه .

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١٩٧-١١٩٨) .

(٢) سورة الروم، آية (٥٨) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٩١) .

ولهذا قال القاري في النص الأول : (وهذا تمثيل آخر ضربه الله لنفسه والأصنام لإبطال المشاركة بينه وبينها كما وقعت في الأوهام، أو للمؤمن والكفار وبرهان ملة الإسلام وبطلان عبادة الأصنام) [(١)].

وهذا موافق لمنهج أعلام المذهب السلفي .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى :

(وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله ﷻ لنفسه ولما يعبد من دونه أيضاً، فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي، قادر، متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل -وهو الحق- يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راضٍ به، آمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسواه، بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل)[(٢)].

وكذلك بين القاري في النص الثاني أن الله ضرب مثلاً بين عبدين أحدهما يملكه جماعة من الشركاء متشاكسون متخالفون متنازعون، كل واحد منهما له مطلب يريد من هذا العبد أن يُنفذه ويريد الآخر غيره، وأما الآخر فقد خلص لواحد في ملازمته ليس لغيره عليه سبيل في مطالبته، فهل يستويان هذان؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإله الحق؟ لا يستويان.

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣٠/أ) .

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٦١-١٦٢) .

وهذا المعنى قرره علماء المذهب السلفي .

قال ابن قيم -رحمه الله تعالى- في تفسير هذه الآية :

(احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو المَلَكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سَلِم كله له، فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإله الحق؟ لا يستويان) [1].

* * * * * *

(١) مدارج السالكين (١/٢٦٤). وانظر: إعلام الموقعين (١/١٨٧)، وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٦/٤٦٩) .

الفصل الثاني

العبـــــــــادة

وفيه مبحثـــــــان :

- المبحث الأول: تعريف العبادة وشروط قبولها .
- المبحث الثاني: بعض أنــواع العبـــــادة .

*   *   *   *   *   *

تمهيد:

لما رجعت مادة أله، يأله، إلاهة، من حيث المدلول اللغوي والشرعي إلى عبد، يعبد، عبادة، كان لا بد من بيان المراد بالعبادة، وشروطها التي تكون بها مقبولة عند الله مع ذكر بعض أنواع العبادة، وقد تعرَّض القاري لبعض المسائل المتعلقة بالعبادة، فعرف العبادة لغة وشرعاً .

كما أنه تحدث عن شروط قبولها، وبعض أنواع العبادة .

ولذا سأورد هذه المسائل في مبحثين، وسيكون الكلام مع القاري من خلالها .

* * * * * *

المطلب الأول : تعريف العبـــادة .

قال القاري -رحمه الله- عند شرحه لحديث معاذ ﷺ قال: قلـــت يـــا رسول! أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: « لقـــد ســـألت عن أمر عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشـــرك بـــه شيئـــاً .... »[1] الحديث :

(العبادة أقصى غاية الخضوع، والمراد به التوحيد لقوله: « ولا تشـــرك به شيئاً »، أو الأعم منه ليعم امتثال كل مأمور، واجتناب كل محظور)[2].

ونقل عن الطيبـــي[3] معنى العبادة فقال: (هو غاية التذلل، والافتقـــار، والاستكانة)[4].

وقال أيضاً عند تفسيره لقوله تعـــالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب الإيمان، باب مـــا جـــاء في حُرْمـــة الصـــلاة (١٣/٥/ رقم٢٦١٦). وابن ماجه في كتاب الفتن، بـــاب كـــف اللســـان في الفتنـــة (١٣١٤/٢/ رقم٣٩٧٣). وأحمد في مسنده (٢٣١/٥، ٢٤٥، ٢٣٧).

والحديث صحّحه الترمذي، وابن حبان كما في الإحسان (٤٧٧/١/ رقم٢١٤)، والحـــاكم والذهبي كما في المستدرك (٤١٢/٢-٤١٣)، والأرناؤوط كما في شـــرح الســـنة (٢٦/١/ رقم١١).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٩٢/١) .

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي، نبغ في علوم كثيرة، كان زاهداً ورعاً تقياً، له البـــاع الطولى في العلوم. من مصنفاته: الكاشف عن حقائق السنن النبوية، التبيان في المعاني والبيـــان. توفي سنة (٧٤٣هـ) .

انظر: شذرات الذهب (١٣٧/٦)، وبغية الوعاة (٢٢٨-٢٢٩)، ومعجم المؤلفين (٥٣/٤).

(٤) مرقاة المفاتيح (١٢/٥) .

خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [١]: (قولـــه ﴿ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ أي: وحدوه، وأطيعوه بامتثال أوامره، واجتناب زواجره) [٢].

اشتمل كلام القاري السابق على مسألتين :

المسألة الأولى : تعريف العبادة في اللغة .

المسألة الثانية : تعريف العبادة في الشرع .

وفيما يلي بيان لمدى موافقة كلامه رحمه الله لكلام أهل اللغة، وتعريــف العلماء للعبادة في الشرع .

أ) تعريف العبادة في اللغة :

يتبين لنا من كلام القاري السابق وفيما نقله عن الطيبـــي بأن العبـــادة في اللغة: هي غاية الخضوع، والذل، والافتقار، والاستكانة. وهذا موافق لما قاله أهل اللغة .

قال الجوهري: (وأصل العبودية الخضوع والذل) [٣].

وقال الأزهري[٤]: (معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، يقـــال:

---

(١) سورة البقرة، آية (٢١) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٧/ب - ٨/أ) . وانظر: خ ق (٨٢٦) .

(٣) الصحاح (٢/٥٠٣) .

(٤) هو العلامة، أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، المعروف بـــالأزهري، إمـــام في اللغة، ولد بهراة سنة (٢٨٢هـــ)، كان فقيهاً صالحاً، غلب عليه علم اللغة، توفي بهراة ســـنة (٣٧٠هـــ). من مصنفاته: تهذيب اللغة، وشرح ألفاظ مختصر المزني.

انظر: طبقات الشافعية للأسنوي (١/٣٥)، وشذرات الذهب لابن العماد (٤/٣٧٩-٣٨٠).

طريق معبد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء)[١].

وقال ابن سيده[٢]: (أصل العبادة في اللغة التذلل من قولهم طريق معبد أي: مذلل بكثرة الوطء عليه قال طرفة[٣]:

تُباري[٤] عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ مُعبَّد[٥].

المور: الطريق، ومنه أخذ العبد لذلته لمولاه، والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب من المعاني)[٦].

---

(١) تهذيب اللغة (٢/٢٣٤) .

(٢) هو إمام اللغة، أبو الحسن، علي بن إسماعيل المُرسي الضرير، المعروف بابن سيده، أحد من يضرب بذكائه المثل، توفي سنة (٤٥٨هـ). من مصنفاته: "المحكم"، و"شرح الحماسة"، و"شعراء اللغة".

انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٢/٨٥)، والسير (١٨/١٤٤-١٤٦) .

(٣) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك، البكري الوائلي، أبو عمرو، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى .

انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (٩٥) .

(٤) قال الزوزني في شرحه لهذا البيت : (باريت الرجل: فعلت مثل فعله مغالباً له. العتاق: جمع عتيق، وهو الكريم. الناجيات: المسرعات في السير، نجا ينجو نجاً ونجاء أي: أسرع في السير. الوظيف: ما بين الرسغ إلى الركبة وهو وظيف كله. المور: الطريق. المعبد: المذلل ... يقول: هي تباري إبلا كراماً مسرعات في السير، وتتبع وظيف رجلها وظيف يدها فوق، طريق مذلل بالسلوك والوطء بالإقدام والحوافر والمناسم في السير). شرح المعلقات السبع (٤٩) .

(٥) انظر: البيت في شرح المعلقات السبع، للزوزني (٤٩) .

(٦) المخصص (١٣/٩٦) .

ب) تعريف العبادة في الشرع :

ذكر القاري أن العبادة في الشرع هي: طاعة الله، وتوحيده بامتثال أوامره واجتناب زواجره، ولهذا قال عند قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[١] أي: وحدوه، وأطيعوه بامتثال أوامره واجتناب زواجره [٢].

فهذا التعريف الذي ذكره القاري جامع مانع حيث يدخل فيه جميع أمور الشريعة من الأوامر والنواهي، سواء كانت على سبيل الإلزام أو الأفضلية.

وأعظم هذه الأوامر إخلاص الدين لله وحده، وأعظم هذه الزواجر النهي عن الشرك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف العبادة بأنها : (اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) [٣].

فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله [٤].

فعلى هذا التعريف الذي ذكره القاري يتبين لنا أن العبادة مفهومها

---

(١) سورة البقرة، آية (٢١) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٧/ب – ٨/أ) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٤٩/١٠) .

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٤٩/١٠–١٥٠) .

شامل وواسع يشمل الدين كله، وهذا ما قرره شـــيخ الإســـلام في رســـالة العبوديـــة[١].

* *　　* *　　* *

(١) انظر: رسالة العبودية لشيخ الإسلام .

المطلب الثاني : شروط قبول العبادة .

العبادة الشرعية لا تكون مقبولة عند الله ﷻ إلا إذا توافر فيها ثلاثة أصول: الإيمان بالله ﷻ ، والإخلاص له، والمتابعة لرسوله ﷺ . وإلا فهي مردودة على صاحبها غير مقبولة. وقد نبه القاري على هذه الأصول الثلاثة.

- **الأصل الأول: الإيمان بالله ﷻ : -**

وهو أصل لقبول العمل وإلا رد على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

قال القاري عند تفسيره لهذه الآية: (من عمل صالحاً موافقاً لقواعد الشريعة العليا من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن بالمولى إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في العقبى لاستحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تخفيف العقاب (٢) إن لم يجازوا عليها في الدنيا بطول الأعمال وكثرة الأولاد وزيادة الجاه والأسباب . ..... وأفاد الأستاذ أن الصالح ما يصلح للقبول وهو ما كان على وجه أمر به الرسول، فالعمل الصالح لا يكون من غير إيمان فقوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ معناه عمل صالح في الحال، وهو مؤمن في المآل) (٣) .

- **الأصل الثاني : أن يكون العمل خالصاً لله تعالى : -**

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ

---

(١) سورة النحل، آية (٩٧) .

(٢) هذا مخالف لظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣٣/ب – ٣٣٤/أ). وانظر: رقم اللوح (٤٤٢/أ-ب).

ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[١].

وقد بين القاري هذا الشرط في كثير من كتبه وأكتفي بإيراد نصين من ذلك.

قال -رحمه الله- عند تفسيره لهذه الآية: (﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ أي: في كتبهم فيما فيها، ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لا يشركون، به أو وما أمروهم وغيرهم إلا ليعبدوا الله دون غيره، مخلصين له الطاعة من الرياء والسمعة)[٢].

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾[٣]:

(﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: الانقياد في الطاعة على وجه المحبة، ﴿ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والعقبى لأن إحراز قصب السبق في الدارين بالإخلاص في الدين ... ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي ﴾ بترك الإخلاص في الدعاء، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء ... ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ في جميع أعمالي، وسائر أحوالي من القيام بالطاعة، والحذر من المخالفة)[٤].

---

(١) سورة البينة، آية (٥).

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٤٨٢).

(٣) سورة الزمر، آية (١١-١٤).

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١٩٤).

- الأصل الثالث : المتابعـــــــة : -

وهي أن تكون العبادة موافقة لسنة النبي ﷺ كما قال تعـــالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ [(٢)].

وفي الصحيحين من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قـــالت: قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [(٣)].

وفي رواية لمسلم: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » [(٤)].

وقد بين القاري هذا الشرط في مواضع مختلفة من كتبه فمن ذلك:

ما قاله عند تفسير قوله تعـــالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ [(٥)].

(﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ ما أعطاكم مـــن الفـــيء، أو مـــن الأمـــر، ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ فاقبلوه على وجه الاستطابة، أو فتمسكوا به لأنه واجب الطاعـــة،

---

(١) سورة آل عمران، آية (٣١-٣٢) .

(٢) سورة الحشر، آية (٧) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جـــور فـــالصلح مردود (٢/٢٦٧/ رقم٢٦٩٧). ومسلم في صحيحه كتاب الأقضية باب نقـــض الأحكـــام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣/١٣٤٣/ رقم١٧١٨) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمـــور (٣/١٣٤٤/ رقم١٧١٨) .

(٥) سورة الحشر، آية (٧) .

﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذه، أو عن إتيانه، ﴿ فَٱنتَهُواْ ﴾ اجتنبوا منه بقدر الطاعة، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في مخالفة رسوله في أمره ونهيه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف في هذا الباب)[١].

وقال أيضاً: (إن طريق النجاة للأنام هو متابعته عليه السلام وأصحابه الكرام في جميع أحكام الإسلام كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢]، ويدل عليه حديث « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[٣])[٤].

وقال أيضاً في المرقاة عند شرحه لحديث عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[٥]:

(وهذا الحديث عماد في التمسك بالعروة الوثقى، وأصل في الاعتصام بحبل الله الأعلى، ورد للمحدثات والبدع والهوى، وأنشد في هذا المعنى :

إذا ما جا الليل البهيم وأظلما ... بأمرٍ فظيعٍ شقَّ أسودَ أدهما

فأعلى البرايا من إلى السنن اعتزى ... وأعمى البرايا من إلى البدع انتمى

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٣٦٨-١٣٦٩). وانظر: شرح الشفاء (٢/١١-١٢).

(٢) سورة آل عمران، آية (٣١) .

(٣) أخرجه ابن عبدالبر في جامع العلم وفضله (٢/٩٢٥/ رقم١٧٦٠) وقال: هذا إسناد لا تقوم به حجة، لأن الحارث بن غصين مجهول. وأخرجه ابن حزم في الأحكام (٢/٨٢).
وحكم عليه محدث العصر الألباني بأنه حديث موضوع. انظر: السلسلة الضعيفة (١/٧٨-٧٩/ رقم٥٨).

(٤) شرح عين العلم وزين الحلم (١/١٣). وانظر: شرح الشفاء (٢/٣، ١٤-١٥) .

(٥) سبق تخريجه (٢١٢) .

ومن ترك القرآن قد ضل سعيه وهل يترك القرآن من كان مسلما)[١]

وقال أيضاً في قول ابن مسعود ﷺ : « القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة » [٢] :

(« القصد في السنة » أي التوسط في العمل بها بين الكثرة والقلة، « خير من الاجتهاد في البدعة » أي أحسن من المبالغة في بذلهِ الوسعَ والطاقةَ والكثرة من الطاعة في حال الأخذ بالبدعة ولو كانت مستحسنة)[٣].

فالقاري من خلال هذه النصوص التي سقتها من كلامه يتبين لنا أنه يشترط المتابعة للرسول ﷺ في كل عمل يعمله العبد يتقرب به إلى الله .

وهذه الأصول التي ذكرها القاري هي التي دل عليها الكتاب، وصحيح السنة، وأكدها علماء الأمة .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في بيان تلك الأصول الثلاثة في كتابه القيم "أضواء البيان" :

(اعلم أولاً أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور :

أولاً : موافقته لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله يقول ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [٤].

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٦٦/١) .

(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة (٣٠/ رقم٨٨)، والهروي في ذم الكلام وأهله (٣٤٤/٢، ٣٤٥/ رقم٤٣٧، ٤٣٨) .

(٣) شرح الشفاء (٢٦/٢) .

(٤) سورة الحشر، آية (٧) .

ثانياً : أن يكون خالصاً لله تعالى؛ لأن الله جل وعلا يقول ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾(١)، ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾(٢).

ثالثاً : أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾(٣)، فقيد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح .

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمن ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾(٤)، وقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(٥)، وقوله: ﴿ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ...... ﴾(٦)، وقوله ﴿ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾(٧) إلى غير ذلك من الآيات)(٨).

* *   * *   * *

---

(١) سورة البينة، آية (٥) .

(٢) سورة الزمر، آية (١٤-١٥) .

(٣) سورة النحل، آية (٩٧) .

(٤) سورة الفرقان، آية (٢٣) .

(٥) سورة هود، آية (١٦) .

(٦) سورة النور، آية (٣٩) .

(٧) سورة إبراهيم، آية (١٨) .

(٨) أضواء البيان (٣/٣٢١-٣٢٢) .

المبحث الثاني : بعض أنواع العبـــادة .

- وفيه أربعة مطالــب :

- المطلب الأول: الدعـــــاء .
- المطلب الثاني: الذبــــــح .
- المطلب الثالث: الخوف والرجاء .
- المطلب الرابع: المحبـــــة .

* * * * * *

المطلب الأول : الدعـــاء .

سبق أن بينا في المبحث الأول أن مفهوم العبادة شاملٌ واسعٌ، يشمل الدين كله، فجميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة التي أمرنا الله بها، أو نهانا عنها داخلة في مسمى العبادة .

ولكثرة أنواع العبادات سأقتصر -بمشيئة الله- على ذكر جملة منها وكلام القاري عليها .

وأول ما نبدأ به الدعاء لأنه هو العبادة كما نطق بذلك الصادق المصدوق[1] .

رأي القاري في الدعاء :

تكلم القاري على هذا النوع من العبادة -وهو الدعاء- في أول شرحه لكتاب الدعوات من المشكاة، وكذلك في تفسيره لبعض الآيات التي ذكر فيها الدعاء. وقد ذكر -رحمه الله- أنه لا شيء أكرم على الله من الدعاء، ثم علل ذلك بقوله: (لأن فيه إظهار العجز، والافتقار، والتذلل، والانكسار، والاعتراف بقوة الله وقدرته، وغناه، وكبريائه)[2].

وقال أيضاً عند شرحه لحديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[3].[4] :

---

(١) يأتي بمشيئة الله قريباً بيان الحديث الدال على ذلك .

(٢) مرقاة المفاتيح (١٣/٥) .

(٣) سورة غافر، آية (٦٠) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧١/٤). وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة باب الدعاء =

(قوله « الدعاء هو العبادة » أي: هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه، قائماً بوجوب العبودية، معترفاً بحق الربوبية، عالماً بنعمة الإيجاد)[(١)].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[(٢)]:

(﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ ﴾ اعبدوني، ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أثبكم لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾، والمراد بالعبادة الدعاء فإنه من أبوابها بل زبدة أسبابها، فقد ورد أن الدعاء مخ العبادة[(٣)])[(٤)].

(١٦١/٢/ رقم١٤٧٩). والترمذي في جامعه كتاب تفسير القرآن باب ٣ ومن سورة البقرة (١٩٤/٥-١٩٥/ رقم٢٩٦٩). وأخرجه في كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء (٤٢٦/٥/ رقم٣٣٧٢). وابن ماجه في كتاب الدعاء باب فضل الدعاء (١٢٥٨/٢/ رقم٣٨٢٨). والحاكم في مستدركه في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (٤٩٠/١-٤٩١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه النووي كما في كتابه الأذكار (٤٧٨). والألباني في صحيح الجامع (١٥٠/٣/ رقم٣٤٠١) وفي صحيح الترمذي (٢٤/٣، ١٠١، ١٣٨) وصحيح ابن ماجه (٣٢٤/٢/ رقم٣٠٨٦).

(١) مرقاة المفاتيح (١٢/٥).

(٢) سورة غافر، آية (٦٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء (٤٢٥/٥-٤٢٦/ رقم٣٣٧١) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

وضعف الحديث المحدّث الألباني كما في مشكاة المصابيح (٦٩٣/٢/ رقم٢٢٣١)، وأحكام الجنائز وبدعها (١٩٤-١٩٥).

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٢٠).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ﴾[١]:

(قوله ﴿ فَٱدْعُوهُ ﴾ فاعبدوه، ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ﴾ الطاعة من الشرك والسمعة قائلين ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ على سائر النعمة)[٢].

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٣]:

(﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ من الحجج والآيات، ﴿ مِن رَّبِّى ﴾ من عنده على وجه الكرامات، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أن أنقاد له في ديني، وأخلص له في يقيني)[٤].

وقال أيضاً: (واختلف هل الأفضل هو الدعاء أو السكوت تحت جريان القضاء مع أن الدعاء لا ينافي الرضاء؟)[٥].

يتبين لنا من تلك النصوص التي سقتها من كلام القاري أنه تطرّق إلى مسألتين:

---

(١) سورة غافر، آية (٦٥).

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٢٢).

(٣) سورة غافر، آية (٦٦).

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٢٢).

(٥) شرح عين العلم وزين الحلم (٩٩/١).

المسألة الأولى : أن الدعاء من أنواع العبادة .

المسألة الثانية : أيهما أفضل الدعاء أو السكوت تحت جريان القضاء؟.

وسيكون الكلام مع القاري من خلال هاتين المسألتين .

* * * * * *

المسألة الأولى : الدعاء من أنواع العبادة .

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يرى أن الدعاء من أنواع العبادة[١]، بل هو العبادة الحقيقية؛ لأن فيها الإقبال على الله، والإعراض عما سواه بحيث لا يرجو ذلك الداعي، ولا يخاف إلا الله وحده لا شريك له، وهذا هو حقيقة العبادة التي من أجلها خلق الله الخلق: وهو الإقبال على الله في جميع الأمور، والإعراض عما سواه .

فالقاري يرى أن الدعاء من أنواع العبادة، وقد استدل على ذلك ببعض الأدلة منها: حديث أنس ﷺ : « الدعاء مخ العبادة » [٢].

وحديث: « الدعاء هو العبادة » [٣].

وحديث: « ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء » [٤] -ثم قال بعد ذكره لجملة من الأحاديث- : (ونعم ما قيل:

---

(١) انظر: شرح عين العلم وزين الحلم (١/٦٨-٩٩) .

(٢) سبق تخريجه (٢١٨) .

(٣) سبق تخريجه (٢١٧-٢١٨) .

(٤) يأتي تخريجه قريباً -بمشيئة الله- (٢٢٥) .

الله يغضب إن تركت سؤاله وبُنيَّ آدمَ حينَ يسألُ يغضبُ)[١].

فما ذكره القاري من كون الدعاء من أنواع العبادة بل هو العبادة الحقيقة حق كما نطقت بذلك النصوص .

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى: (ومن أنواع العبادات التي يظهر فيها الذل، والخضوع لله ﷻ الدعاء قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[٣])[٤].

والدعاء الذي أمر الله به عباده في كتابه الكريم نوعان :

أحدهما : دعاء العبادة، وهو التقرب إلى الله -جل وعلا- بأنواع العبادات: من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وبر الوالدين، وغير ذلك من أنواع العبادات، طمعاً في رحمة الله جل وعلا، وخوفاً من عقابه .

الثاني : دعاء المسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع، أو دفع ضر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (لفظ "الدعاء، والدعوة" في القرآن يتناول معنيين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة)[٥].

---

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٩٨/١-٩٩) .

(٢) سورة الأعراف، آية (٥٥) .

(٣) سورة الأنبياء، آية (٩٠) .

(٤) الخشوع في الصلاة (٣٠) .

(٥) مجموع الفتاوى (٢٣٧/١٠-٢٣٨) .

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [١] :

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان. فإن دعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً. وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾[٢]، وقال ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[٣]، فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم .

وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع، والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء مسألة. ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾[٤] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان

---

(١) سورة الأعراف، آية (٥٥-٥٦) .

(٢) سورة يونس، آية (١٠٦) .

(٣) سورة يونس، آية (١٨) .

(٤) سورة البقرة، آية (١٨٦) .

متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع وقل ما يفطن له، وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً، فهي من هذا القبيل [(١)].

◄ **المسألة الثانية : أيهما أفضل الدعاء أو السكوت تحت جريان القضاء؟.**

ذكر القاري أربعة أقوال لأهل العلم في هذه المسألة :

القول الأول : أن الدعاء أفضل لحديث الدعاء مخ العبادة [(٢)].

القول الثاني : أن ترك الدعاء والاستسلام للقضاء أفضل .

واستدلوا بحديث: « من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » [(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٠-١١). وانظر: بدائع الفوائد لابن قيم (٢/١٩٠) (٣/٢) وما بعدها .

(٢) سبق تخريجه (٢١٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب رقم (٢٥) (٥/١٦٩/ رقم٢٩٢٦). والدارمي في سننه في كتاب فضائل القرآن، باب فضل كلام الله على سائر الكلام (٢/٥٣٣/ رقم٣٣٥٦). وأخرجه عبدالله بن أحمد في المسند (١/١٤٩-١٥٠/ رقم١٢٨). وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية (١٥٩/ رقم٢٨٦ و٣٣٩). والعقيلي في الضعفاء (٤/٤٩). وابن أبي حاتم في العلل (٢/٨٢). كلهم من طريق محمد بن الحسين بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري به .

قال ابن أبي حاتم في العلل (٢/٨٢): (سألت أبي عن حديث رواه محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: « قال الله ﷻ : من شغله ... » قال أبي: هذا حديث منكر، ومحمد بن الحسن ليس بالقوي).

=

وذكر أنه يؤيده قول الخليل ﷺ : " علمه بحالي يغني عن سؤالي "[١].

القول الثالث : وقيل يختلف باختلاف الأوقات .

القول الرابع : وقيل ما كان لنفسه فالسكوت أولى، وما كان لغيره فالدعاء أحرى[٢].

من خلال هذه الأقوال التي ذكرها القاري يتبين لنا أنه لم يرجح شيئاً من تلك الأقوال، وإن كان قد يقال: إن القاري يرجح القول الثاني؛ لأنه لما ذكر استدلالهم بحديث " من شغله ذكري عن مسألتي ... " قال: ويؤيده قول الخليل ﷺ " علمه بحالي يغني عن سؤالي " فقول القاري: (ويؤيده) هذا مما يؤكد أنه يذهب إلى القول الثاني، ولكن على كل حال فالراجح في هذه المسألة هو القول الأول وهو ما عليه جمهور أهل العلم[٣].

وسبب الترجيح لذلك عدة أمور منها :

أولاً: قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[٤] فهذه الآية ظاهرة في

وقال الذهبي في الميزان (١١٥/٣) بعدما ذكر حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: (حسنه الترمذي فلم يحسن)، وضعفه الألباني. انظر: السلسلة الضعيفة (٥٠٦/٤-٥٠٩/ رقم١٣٣٥). وانظر: ضعيف الجامع (٩٣٤/ رقم٦٤٣٥).

(١) ليس له إسناد معروف وهو باطل كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: الفتاوى (١٨٣/١). قال الألباني: لا أصل له. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢٨/١-٢٩).

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٩٩/١) .

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٩٤/١١) .

(٤) سورة غافر، آية (٦٠) .

ترجيح الدعاء على التفويض [(١)].

ثانياً : قوله ﷺ: فيما رواه النعمان بن بشير ﷺ: « الدعاء هو العبادة » [(٢)].

ثالثاً : وقوله ﷺ : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » [(٣)].

وهذه الأدلة تدل على أن الدعاء أفضل، فأعلى مقامات العبد أن يدعو بلسانه ويرضى بقلبه[(٤)]، وبهذا تتحقق للعبد عبودية الدعاء، وعبودية الرضا بالقضاء والقدر [(٥)].

* * * * * *

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/٩٤) .

(٢) سبق تخريجه (٢١٧-٢١٨) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٦٢). والترمذي في سننه في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/٤٢٥/ رقم٣٣٧٠). و ابن ماجه في سننه في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء (٢/١٢٥٨/ رقم٣٨٢٩). والبخاري في الأدب المفرد باب فضل الدعاء (٢/١٧٦/ رقم٧١٢). وحسنه الألباني رحمه الله تعالى. انظر: صحيح سنن الترمذي (٣/١٣٨/ رقم٢٦٨٤)، وصحيح سنن ابن ماجه (٢/٣٢٤/ رقم٣٠٨٧).

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١١/٩٥) .

(٥) انظر: منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة، لمحمد إسحاق كندو (٢/١٠٠٦-١٠٠٧) .

المطلب الثاني : الذبـــح .

رأي القاري في عبادة الذبح :

قال -رحمه الله- في تفسير قوله تعـالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ... ﴾ [(١)] :

(﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ عبادتي، وقربـاني وذبيحـتي، أو حجـي وعمرتي، ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ أي: وما أنا عليه في حياتي وموتي من إيمـاني، وطاعتي، وجميع حالاتي ... ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي خالص له، وهو خالقـه ومالكه، ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ أي في خلقه وملكه وبذلك الإخلاص الذي هـو طريق الخلاص أمرت في مقام الاختصاص) [(٢)].

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [(٣)] :

(﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ قدم على الصلوة الجامعة للعبادات القلبيـة والقالبيـة من اللسانية والأركانية، خالصاً لوجه الله، ذاهلاً عن ملاحظة ما سواه، شـاكراً لما أعطاك من نعمائه، ﴿ وَانْحَرْ ﴾ البدن التي خيار أموال العرب وتصدق علـى أهل الاحتياج ...... والمراد بالصلوة صلوة العيد، وبالنحر التضحية بالوجـه السديد ليكون جامعاً بين العبادات البدنية والطاعة المالية) [(٤)].

---

(١) سورة الأنعام، آية (١٦٢-١٦٣) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٣١/ب - ٢٣٢/أ) .

(٣) سورة الكوثر، آية (٢) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٤٩٣-١٤٩٤) .

المناقشـــــة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يرى أن الذبح من أنواع العبـــادات وهو من العبادات المالية التي يجب صرفها لله ﷻ ولهذا قال في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1]: (أي: خالص له، وهو خالقه ومالكـــه، أي: في خلقه وملكه، وبذلك الإخلاص الذي هو طريق الخـــلاص أمـــرت في مقـــام الاختصــــاص)[2].

فالذبح من أنواع العبادات التي يجب صرفها لله ﷻ ومن صرفها لغـــــير الله فقد أشرك، قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾[5].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (أمره الله أن يجمع بين هــــاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك، الدالتان على القرب والتواضـــع، والافتقـــار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله ... والمقصود: أن الصـــلاة

---

(١) سورة الأنعام، آية (١٦٢-١٦٣) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٣١/ب - ٢٣٢/أ) .

(٣) سورة النساء، آية (٣٦) .

(٤) سورة الإسراء، آية (٢٣) .

(٥) سورة الكوثر، آية (٢) .

والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله ... وأجل العبـــادات الماليـــة النحـــر، وأجل العبادات البدنية الصلاة)[1].

* *　　* *　　* *

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٥٣١-٥٣٢).

المطلب الثالث : الخوف والرجـــاء .

رأي القاري في عبادة الخوف والرجاء :

قال القاري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) :

(﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بالمعاصي والآثام، ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ببعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وشرعهم الأحكـــام ... ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ ﴾ أي: خائفين من عقابه، وطامعين في ثوابـــه، أو خـــائفين مـــن رده عـــدلاً، وطامعين في قبوله فضـــلاً) (٢).

وقال أيضاً في تفسير قولـــه تعـــالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٣):

(﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ ﴾ ثوابـــه ولقائـــه، ﴿ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ نعيمـــــه وجزاءه، أو يخاف عذابهما في دنياه وعقباه، ﴿ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ فإن كثرة الذكـــر تؤديه إلى ملازمة الطاعة في الدنيا، وتقتضي له حساباً يسيراً في العقبى) (٤).

وعند تفسيره لقوله تعـــالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٥) قال:

---

(١) سورة الأعراف، آية (٥٦) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٤٨/أ)، وانظر: (١٢٣/أ)، خ ق (١١٠٣).

(٣) سورة الأحزاب، آية (٢١١) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١١١) .

(٥) سورة الأحزاب، آية (٣٩) .

(﴿ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ لعلمهم بأنه لا يصيب أحداً ضرر ولا محذور إلا بتقدير مقدور، فيفردونه بالخشية عند كل أمور... ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ كافياً للمخاوف، أو محاسباً للذنوب فينبغي ألا يخشى إلا من علام الغيوب)[1].

وقال أيضاً: (فالواجب على كل مؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء، والقبول والرد في الانتهاء، ولا يغتر بأنه بحسب الظاهر في صورة العلماء، وفي سيرة الصلحاء، وكذلك لا يقنط من رحمته تعالى، ولو كان في طريق الفسقة أو الجهلاء، فإن المدار على الخاتمة اللاحقة، على وفق ما جرى القلم في الساعة السابقة، وقد ورد في السنة حديث صحيح رواه أصحاب الكتب الستة عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ: « إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة »[2]. والآيات في هذا المعنى

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١١٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٤٢٤/٢/ رقم٣٢٠٨). ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٢٠٣٦/٤/ رقم٢٦٤٣). وأحمد في مسنده (٣٨٢/١، ٤٣٠). وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر (٨٢/٥-٨٣/ رقم٤٧٠٨). والترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم (٣٨٨/٤-٣٨٩/ رقم٢١٣٧). وابن ماجه في المقدمة باب في القدر (٢٩/١/ رقم٧٦).

كثيرة والأحاديث في هذا المبنى شهيرة)[١].

وقال أيضاً: (اعلم أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً راجياً لقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[٢].

وقوله ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[٣]. والتحقيق أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، فالخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله سبحانه، فإذا تجاوز ذلك خِيفَ منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود رجاء -رجل[٤]- عمل بطاعة الله -تعالى- على نور من ربه، فهو راجٍ لمثوبته، أو رجل أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله فهو راجٍ لمغفرته .

أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا ويرجو رحمة الله تعالى بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب .

قال أبو على الروذباري[٥] رحمه الله : (الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا

---

(١) المقدمة السالمة في خوف الخاتمة (١٢-١٣). وانظر: الذخيرة الكثيرة في رجاء المغفرة الكبيرة (٣٠)، وشرح عين العلم وزين الحلم (١/٢٤) .

(٢) سورة الزمر، آية (٩) .

(٣) سورة السجدة، آية (١٦) .

(٤) في المطبوع (رجاء عمل بطاعة الله ...)، وهذا لا يستقيم، والصواب رجاء رجل عمل بطاعة الله. انظر: شرح الطحاوية (٢/٤٥٦).

(٥) هو محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري من كبار الصوفية، سكن مصر، توفي سنة (٣٣٢هـ). انظر: تاريخ بغداد (١/٣٢٩-٣٣٣).

ذهبا صار الطائر في حد الموت)[١].

المناقشـــة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يرى أن الخـوف والرجـاء مـن أنواع العبادات التي أمر الله بها، وأثنى على المؤمن المتحلي بها كمـا في قولـه تعـالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٢]، وأنه يجب على العبد أن يكون خائفـاً راجيـاً كما قال تعـالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[٣].

وذكر رحمه الله تعالى أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنـاً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، فـالخوف المحمـود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ فإذا تجاوز ذلك خيـف منـه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود رجاء عمل بطاعة الله تعالى على نـور مـن ربه، وأما من تماد في التفريط والخطايا، ورجى رحمة الله تعالى بلا عمل فـهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب .

هذا التحقيق المتين الذي ذكره القاري في عبادة الخوف والرجاء أخـذه القاري من كلام ابن أبي العز شارح الطحاوية دون عزوه إليه، وإليـك نـص عبارة ابن أبي العز .

قال رحمه الله: (يجب أن يكون العبد خائفاً راجياً، فإن الخوف المحمـود

---

(١) شرح الفقه الأكبر (١٥٥). وانظر: شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٢٤٧-٢٧٤).

(٢) سورة الأعراف، آية (٥٦) .

(٣) سورة الزمر، آية (٩) .

الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، أو رجلٍ أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله، فهو راجٍ لمغفرته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(١)].

أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني، والرجاء الكاذب، قال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت. وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[(٣)].

فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى، فإنه إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه) [(٤)].

وخلاصة الكلام في هذا المرام أن الخوف المحمود: هو ما حجز العبد عن محارم الله. والخوف المذموم: هو ما أدى بالعبد إلى اليأس والقنوط من

---

(١) سورة البقرة، آية (٢١٨) .

(٢) سورة الزمر، آية (٩) .

(٣) سورة السجدة، آية (١٦) .

(٤) شرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/٤٥٦-٤٥٧). وانظر: مدارج السالكين (٢/٣٧) .

رحمـــة الله[١].

والرجاء المحمود لا يصلح إلا مع العمل[٢] كما قال تعـــالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[٣].

وأما الرجاء بلا عمل مع التمادي في التفريط والخطايا فهذا هو الغـــرور، والرجاء الكاذب .

* * * * * *

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/١٥٥)، وشرح الطحاويـــــة لابـــن أبي العـــز (٢/٤٥٦-٤٥٧).

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن قيم (٢/٣٧) .

(٣) سورة الكهف، آية (١١٠) .

المطلب الرابع : المحبـــــة .

رأي القاري في المحبة :

المحبة قسمان :

الأول : محبة الرب ﷻ لعبـــــده .

الثاني : محبة العبد لربـــــه ﷻ .

وللقاري كلام في كلا القسميـــن .

وفي هذا المطلب عرض للقسم الثاني فقط، وأما القسم الأول فسأرجئ الكلام عنه مع الكلام في صفات الله ﷻ .

كلام القاري في محبة العبد لربه جاء متشعباً، ولكن أجمل كلامه في ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : رأي القاري في محبة العبـــد لربـــه .

المسألة الثانية : رأي القاري في الطرق الموصلة إلى محبة العبد لربه .

المسألة الثالثة : رأي القاري فيمن قال: "ما عبدتك خوفاً من نـارك ولا رجاء لجنتك، بل حباً لك وشوقاً لرؤيتك" .

* *　　* *　　* *

- **المسألة الأولى : رأي القاري في محبة العبد لربه .**

للقاري في تفسير محبة العبد لربه تفسيران :

- **الأول : التأويل ويتّضح ذلك في النصوص الآتية :**

١ - قال القاري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾[1] :

(محبة العبد لربه إرادة طاعته، والاعتناء بتحصيل مرضاته)[2].

فقد فسر المحبة بإرادة الطاعة .

٢ - وقال أيضاً عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[3]:

(« أحب إليكم من الله ورسوله » أي: من أمره، وحكمه في دينه)[4].

فقد فسر المحبة بمحبة أمره، وحكمه ﷻ .

- الثاني : إثبات المحبة بدون تأويل ويتضح ذلك في النصوص الآتية :

١ - قال رحمه الله: (ومما يدل على إثبات الحب لله قوله ﷻ: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[5]، ثم في قوله سبحانه ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[6] دليل

---

(١) سورة البقرة، آية (١٦٥) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣/ب) .

(٣) سورة التوبة، آية (٢٤) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٠٣/ب) .

(٥) سورة المائدة، آية (٥٤) .

(٦) سورة البقرة، آية (١٦٥) .

على إثبات الحب ومناقبه، والتفاوت في مراتبه)[١].

وقال أيضاً في موضع آخر: (وورد في التنـــزيل ما يدل على ثبوت المحبة من الجانبين حيث قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٢])[٣].

٢ – وقال: (تتجلى الأمور، وتنشرح الصدور، والأمة مجمعة علـــى أن الحب لله ورسوله فرض، فكيف يفترض ما لا وجود له؟ وكيف يفسر الحـــب بالطاعة والطاعة تتبع الحب وثمرته؟ فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيـــع من أحب)[٤].

فهو في هذا النص يؤكد ثبوت الحب، وتقدمه على الطاعة .

٣ – وقال رحمه الله: (ثم اعلم أن المســـتحق للمحبـــة إنمـــا هـــو الله وحده .... وإنما يحب غيره من الأنبياء والأصفياء؛ لكونهم أحباء له ســـبحانه، ومحبوب المحبوب محبوب)[٥].

٤ – وقال أيضاً: (وأنها –أي المحبة– حقيقية في حقه ﷻ)[٦].

المناقشـــــة : –

يتبين لنا من عرض القاري السابق أن له تفسيرين في محبة العبد لربه ﷻ:

---

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٥٤) .

(٢) سورة المائدة، آية (٥٤) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٧٣) .

(٤) المصدر السابق (٢/٣٥٤) .

(٥) المصدر السابق (٢/٣٦١) .

(٦) المصدر السابق (٢/٣٦١) .

الأول : تأويل الحـــــب .

الثاني : إثباتـــــــــه .

فأما التفسير الأول، وهو تفسير محبة العبد لربه بإرادة طاعته، والاعتنـــاء بتحصيل مرضاته فإنه تفسير باطل؛ لأن ثمة فرقاً بين المحبة والإرادة، ولأن جميـع طرق الأدلة عقلاً ونقلاً وفطرة وقياساً تدل على إثبـــات محبـــة العبـــد لربـــه حقيقة[١]، فإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً[٢].

فالقاري في التفسير يؤول محبة العبد لربه بتأويلات الجهمية .

وأما التفسير الثاني فهو إثبات المحبة، محبة العبد لربه على الحقيقة، ويـــرد على من يؤولها بالطاعة كما في كتابه "شرح عين العلم وزين الحلـــم" حيـــث يقول: (وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تتبع الحب وثمرته، فلا بـــد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب)[٣].

ويقول أيضاً: (ثم اعلم أن المستحق للمحبة إنما هو الله وحده)[٤].

فهل القاري مضطرب؟ أو أنه استقر على رأي من ذينك الرأيين ؟.

القاري استقر على إثبات محبة العبد لله ﷻ على الحقيقة .

ذلك لأن شرح عين العلم وزين الحلم الذي يقرر فيه إثبات محبة العبـــد لله ﷻ ألفه بعد التفسير، لأنه انتهى من هذا الكتاب في السنة التي توفي فيـــها،

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٢٠/٣) .

(٢) التحفة العراقية لابن تيمية (٤٢٥) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٥٤/٢) .

(٤) المصدر السابق (٣٦١/٢) .

هذا من جهـــة .

ومن جهة أخرى فإن مسألة المحبة في آخر الكتاب وليست في أوله؛ لأنها لو كانت في أول الكتاب لكان لقائل أن يقول: لعله ابتدأ هذا الكتـــاب قبـــل تفسيره ثم توقف عن الكتابة فيه واشتغل بالتفسير، ثم بعد ذلك أكمل الكتـــاب. فتقريره لإثبات محبة العبد لربه قبل تفسيره، وهذا محتمل وإن كان بعيداً .

وهذا يرجح أن الرأي الذي استقر عليه القاري هو إثبات أن العباد يحبون الله محبة حقيقة كما نطقت بذلك النصوص .

وقد استدل القاري على إثبات محبة العبد لربه بأدلة من الكتاب والسنة.

وقد تقدم ذكر بعض الأدلة من القرآن الكـــريم، وأمـــا مـــن السـنة فكثيرة منهـــا :

١ - ما جاء في الصحيحين من حديث سهل بن ســعد ﷺ مرفوعـــاً : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ... » [١].

٢ - وحديث « أحبوا الله لما يغذيكم به من نعمـــه، وأحبـــوني لحـــب الله إياي » [٢].

---

(١) سبق تخريجه (١٨٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٥/٦٢٢/ رقـــم٣٧٨٩). وقال الترمذي: (هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه) .

وأخرج أيضاً الحاكم في المستدرك (٣/١٥٠) وقال: (هذا حديـــث صحيـــح الإســـناد ولم يخرجاه). وصححه الذهبي، وقال عبدالقادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول لابـــن الأثير (٩/١٥٤) : (في سنده عبدالله بن سليمان النوفلي وهو مجهول).

ثم قال القاري بعد إيراده لهذا الحديث: (فأشار إلى أن محبة الله أصالـــة، ومحبته ﷺ تبعية كما يقتضيه مقام الربوبية والعبودية) [(١)].

وهذا الذي قرره القاري هو الذي قرره علماء أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبـــة العباد المؤمنين لربهم، ومحبة الرب لعباده المؤمنين كما في قوله تعـــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[(٣)])[(٤)].

وقال أيضاً: (والذي عليه سلف الأمة وأئمتها، وأهل السنة والحديـــث، وجميع مشايخ الدين المتبعون، وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبـــوب بحـــب ذاته محبة حقيقية) [(٥)].

وقال أيضاً: (ولم يكن بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتـــابعين لهم بإحسان نزاع في ذلك -يعني في محبة العباد لإلههم- وكانوا يحركون هـــذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية) [(٦)].

وبعد أن عرفنا رأي القاري في محبة العبد لربه، وأن الله يُحـــب حقيقـــة نورد كلام القاري في الطرق الموصلة إلى هذه المحبة تحت المسألة الثانية .

---

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٥٥) .

(٢) سورة البقرة، آية (١٦٥) .

(٣) سورة المائدة، آية (٥٤) .

(٤) التحفة العراقية (٤٠٥) .

(٥) المصدر السابق (٤٠٩) .

(٦) المصدر السابق (٤٣٠) .

◂ المسألة الثانية : الطرق الموصلة إلى هذه المحبة .

قال القاري: (طريق تحصيل المحبة سير مسالك أهل الشريعة والطريقة والحقيقة من منازل السائرين، ومراحل الطائرين، وقد قيل: إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وفيه تنبيه نبيه على أن كل مخلوق له سر مع خالقه لا يطلع عليه إلا من هو أقرب منه إليه، وعن هذا قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [1].

ثم أقرب الطرق إلى الله -تعالى- هو المحبة وهي حاصلة بمتابعة الكتاب والسنة، ومخالفة الهوى والبدعة، وتمامه باجتناب السيئات من المحرمات والمكروهات، واكتساب الطاعات من الفرائض والنوافل من السنن المؤكدات والمستحبات) [2].

المناقشة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق أن الطرق المحصلة لمحبة العبد لربه كثيرة بعدد أنفاس الخلائق، وهي تنقسم إلى قسمين :

قسم منها هو أقرب الطرق إلى الله وهو محبة العبد لربه، وهذه تحصل بمتابعة الكتاب والسنة، ومخالفة الهوى والبدعة .

ومنها ما هو طريق أهل الحقيقة والطريقة من الصوفية، ولا مانع عند القاري من سلوك هذه الطريقة التي توصل العبد بزعمه إلى محبة الرب .

ولهذا لما نقل القاري عبارة من يقول: (إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس

(١) سورة الإسراء، آية (٤٤) .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٧٨) .

الخلائق) استحسن هذا القول، وقال عقبه: (فيه تنبيه نبيـــه علـــى أن كـــل مخلوق له سر مع خالقه لا يطلع عليه إلا من هو أقرب منه).

وخلاصة كلام القاري في هذه المسألة أجمله في أمرين :

الأمر الأول : يرى القاري أن أقرب الطرق إلى تحصيل محبة العبد لربـــه باتباع الكتاب والسنة .

الأمر الثاني : يرى القاري أن من سلك مسلك ما يسمى بأهل الحقيقـــة والطريقة في محبة العبد لربه فإن ذلك جائز ولا مانع من ذلك عنده .

وسيكون مناقشة القاري من خلال هذين الأمرين .

- **الأمر الأول : أقرب الطرق إلى محبة العبد لربه هو اتباع الكتاب والسنة.**

يرى القاري أن أقرب الطرق إلى محبة العبد لربه تحصل بمتابعة الكتـــاب والسنة، ومخالفة الهوى والبدعة، وتمامه باجتناب الســـــيئات مـــن المحرمـــات والمكروهات، واكتساب الطاعات من الفرائض والنوافل من السنن المؤكـــدات والمستحبات [(١)].

وهذا الذي ذكره القاري حقٌ، ولكن ليس هو أقرب الطرق فقط بـــــل إنه لا طريق للعباد لتحقيق هذه المحبة إلا باتباع الكتـــــاب وصحيـــح السـنـة ومجانبة الهوى والبدعة. فعلامة المحبة الصادقة لله ﷻ هو اتبـــاع مـــا جـــاء في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة .

١ - قال تعـــالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ

---

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٧٨/٢) .

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [١].

قال ابن قيم الجوزية: (وهي تسمى آية المحبة، قال أبو سليمان الـداراني [٢]: لما ادعت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

وقال ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها، فدليلـها وعلامتها: اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسِل لكم، فمـا لم تحصـل المتابعة، فليس محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية) [٣].

وقال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعـى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حـتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله، وأفعاله كمـا ثبـت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من عمل عمـلاً ليـس عليـه أمرنـا فهـو رد » [٤]) [٥].

٢ - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله تعالى قال من

---

(١) سورة آل عمران، آية (٣١).

(٢) هو عبدالرحمن بن عطية، وقيل عبدالرحمن بن أحمد، أبو سليمان الداراني، الزاهد، من أهـل داريا قرية من قرى دمشق، ولد في حدود الأربعين ومائة، مات سنة (٢٢٥هـ). انظـر: طبقات الصوفية للسلمي (٧٥)، والجرح والتعديل (٥/٢١٤)، والسير (١٠/١٨٢-١٨٦).

(٣) مدارج السالكين (٣/٢٢).

(٤) سبق تخريجه (٢١٢).

(٥) تفسير ابن كثير (١/٥٣٦).

عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه) [1].

قال السفاريني تعليقاً على هذا الحديث :

(فدل هذا الحديث أنه لا طريق يوصل إلى التقرب إلى الله، وولايته، ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله ﷺ من أداء الفرائض، واجتناب المحارم والاهتمام بنوافل العبادات الموصلة لمحبة الله تعالى. فمن أحب الله سبحانه رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره) [2].

- الأمر الثاني : رأي القاري فيمن سلك مسلك من يسمى بأهل الحقيقة والطريقة .

القاري يرى أن ثمة طرقاً يمكن للعبد أن يسلكها في طريق محبة العبد لربه، ولهذا قال في عبارة من يقول: (إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق): (فيه تنبيه نبيه على أن كل مخلوق له سر مع خالقه لا يطلع عليه إلا من هو أقرب منه) [3].

وقال أيضاً في تعليقه على حديث « من عادى لي ولياً، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع (١٩٢/٤/ رقم٦٥٠٢) .

(٢) شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد (١٤١) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٧٨/٢) .

عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ...... »[١] :

(« بالنوافل » من الصلاة، والطواف، والذكر، والفكر، والثناء، والدعاء، وما استحسنه العلماء)[٢]، ويقصد بذلك علماء الصوفية الذين ابتدعوا طرقاً ما أنزل الله بها من سلطان، يزعمون أنها تقربهم إلى الله، وان من سلكها فهو محب لله .

ولهذا قال القاري عند قول الماتن في "شرح عين العلم وزين الحلم" وهو يعدد طرق تحصيل المحبة (والخلوة: فهي تفرغ عن الشواغل، والأولى أن يكون في بيت مظلم، أو يلف رأسه ويغمض عينيه)[٣]، قال القاري: ("فهي" أي الخلوة: "تفرغ عن الشواغل" المانعة من تحصيل الفضائل ... ثم القوم مختلفون في طرق سلوكهم فمنهم من جعل مدار الخلوة على خلو القلب من غير ذكر الرب ومشاهدة الحق، ولو كان في مجمع الخلق كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[٤]، وهو طريق السادة النقشبندية[٥]، والقادة الشاذلية[٦]، ويقال في حقهم: إنهم غريبون قريبون ...

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٧٨) .

(٣) المصدر السابق (٢/٣٨٢) .

(٤) سورة النور، آية (٣٧) .

(٥) النقشبندية: هي طريقة من الطرق الصوفية الخرافية أسسها بهاء الدين محمد بن محمد الأويسي، وقد غلا أصحابه فيه إلى حد جعلوه إلهاً. انظر: موسوعة أهل السنة للدمشقية (٢/١٢٦٣)، والكشف عن حقيقة الصوفية (٣٦٠-٣٦١)، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (٢/٧٥٣).

(٦) الشاذلية: طريقة صوفية خرافية قبورية أسسها أبو الحسن علي بن عبدالله الشاذلي المغربي (ت٦٥٦هـ). انظر: الكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود عبدالرؤوف القاسم (٣٥٨-٣٥٩)، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية لشمس الأنفغاني (٢/١٠٠٧).

ومنهم من اختار الخلوة المعتارفة[1] بينهم تهويناً للمبتدئ، وتسهيلاً للمنتهي وكان المصنف منهم ولذا قال "والأولى أن يكون" السالك الذاكر "في بيت مظلم" ضيق ليس فيه متاع إلا ما لا بد منه "أو يلف رأسه" إذا كان في مسجد ونحوه "ويغمض عينيه" حال ذكره وفكره .... وإنما يختار البيت المظلم، ولف الرأس، وتغميض العين "لتركد الحواس" أي لتسكن وتستقر، "والسكوت" أي: ويلزمه من غير ذكر ربه)[2].

وهكذا يذهب القاري يشرح عبارات القوم دون نكير لهم، أو تعليق على ما قالوا، مما يدل على أنه من جملتهم فتصوفه ظاهر من عباراته، بل إن القاري ينقل عبارات أهل الوحدة والاتحاد .

قال القاري: (ثم اعلم أنه ليس في الوجود غيره سبحانه في عين أهل الشهود من ذاته وصفاته ومصنوعاته؛ ولذا ذكر عن الشيخ أبي سعيد الميهني لما قرئ عليه قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[3] قال: بحق يحبهم فليس يحب إلا نفسه، على معنى أنه الكل، وأن ليس في الوجود غيره)[4].

وقال أيضاً: (وقيل من ذاق حلاوة الوحدة استوحش من نفسه الوحدة، وكأنه يشير إلى قول من قال: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب)[5].

فالقاري يرى أنه ليس في الوجود سوى الله -تعالى- وصفاته وأفعاله .

---

(١) هكذا في المطبوع، ولعل الصواب [المتعارفة] .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٨٢/٢) .

(٣) سورة المائدة، آية (٥٤) .

(٤) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٧٦/٢) .

(٥) المصدر السابق (٣٦٨/٢) .

وقال أيضاً في موضع آخر عند قول الماتن في أفضل الذكر ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[1] : (فالحي الأزلي الأبدي يشير إلى أن غيره لا يصلح للألوهية؛ لأنه إما لا حياة له، أو حياته حادثة. والقيوم هو الذي يقوم بذاته، ويقوم غيره بإظهار صفاته من قدرته، وإرادته، وحكمته في مصنوعاته، وفي هذا تلويح إلى بطلان ما يقوله الوجودية من المعية في المراتب الشهودية حيث قال ابن العربي[2]: " سبحان من أوجد الأشياء وهو عينها ". وقد وقع التناقض في عين كلامه المنافي لمرامه، فإنه سبحانه إذا أوجد الأشياء وأحدثها كيف يتصور أن يكون عينها، فما للتراب ورب الأرباب، فهو أبعد من قوله من قال بالاتحاد في مقام الإلحاد والله رؤوف بالعباد)[3].

فنجد القاري في هذا النص يرد على أهل الوحدة والاتحاد، بينما في النصين اللذين قبل هذا النص يوافق أهل الوحدة بل ذكر قول الميهني في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[4] بحق يحبهم فليس يحب إلا نفسه دون نكير .

والذي يظهر أن القاري –رحمه الله– لا يحقق في عرضه للأقوال وليس همه إلا في شرح وتقرير ما يعرضه، وإن كان أحياناً قد يعقب لكنه هنا لم يظهر منه ما يخالف القوم .

---

(١) سورة آل عمران، آية (٢) .

(٢) هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، صاحب كتاب "فصوص الحكم" الذي قال عنه الذهبي: فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر. وقال الشيخ عزّ الدين ابن عبدالسلام عن ابن العربي: شيخ سوءٍ كذاب، يقول بِقِدَم العالم، ولا يُحرِّم فرجاً. انظر: السير (٢٣/٤٨-٤٩)، وميزان الاعتدال (٣/٦٥٩) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٨٥) .

(٤) سورة المائدة، آية (٥٤) .

المسألة الثالثة : رأي القاري فيمن يقول: "ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا رجاء لجنتك بل حباً لك وشوقاً لرؤيتك".

قال القاري: (قال الثوري[1] لرابعة[2]: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا رجاء لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حباً له وشوقاً إليه، وقالت في معنى المحبة:

أحبك حبين: حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها، وبإنعامه عليها بالحظوظ العاجلة، وبحبه لما هو أهل له الحب لجلاله وجماله الذي انكشف لها، وهو أعلى الحبين وأقواها .

وقد قيل لرابعة: ما تقولين في الجنة؟ قالت: الجار ثم الدار، فبيَّنت أن ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة، وبذلك يشير قول آسية:

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبدالله الكوفي، الإمام الكبير، ولد سنة (٩٧هـ)، وهو ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة، قال الإمام أحمد: لم يتقدمه في قلبي أحد. وقال ابن المبارك: لا أعلم على وجه الأرض أعلم منه. توفي سنة (١٦١هـ).
انظر: غاية النهاية (٣٠٨/٢)، وطبقات المفسرين للداوودي (١٩٣/١-١٩٦)، وتهذيب الكمال (١٥٤/١١-١٦٩) .

(٢) هي أم عمرو، رابعة بنت إسماعيل العدوية، مولاة آل عتيك، البصرية، لها أخبار في العبادة والنسك، توفيت سنة (١٨٠هـ).
انظر: السير (٢٤١/٨-٢٤٣)، والأعلام (١٠/٣) .

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [١].

هذا ومن عرف الله عرف اللذات المفرقة، والشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة، كما قال:

كانت بقلبي أهواء مفرقة
فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده
وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للناس دنياهم ودينهم
شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

وقال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الرب على لذة الأكل والشرب، والجماع، ونحوها، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله في مقام الإيناس) [٢].

المناقشة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق الذي علق فيه على قول من يقول: "ما عبدتك خوفاً من نارك ولا رجاء لجنتك .... " أنه موافق لأصحاب هذه المقولة .

---

(١) سورة التحريم، آية (١١) .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٦٦) .

والغلط عند القاري ومن نقل عنهم ظنهم أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب، واللباس، والنكاح، ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات؛ ولهذا نجد القاري يُسوغ قول من قال تلك المقولة: "ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا رجاء لجنتك ولكن عبدتك شوقاً إلى لقائك" بقوله: (وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الرب على لذة الأكل والشرب، والجماع، ونحوها، فإن الجنة تمتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله في مقام الإيناس)[١].

فالقاري ظن أن الجنة لا يدخل فيها النظر إلى الله تعالى، وهذا غلط، والتحقيق أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلى الله تعالى وهو من النعيم الذي يناله المؤمنون وهم في الجنة كما أخبرت به النصوص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في معرض رده على قول من يقول: "ما عبدتك خوفاً من نارك، أو رجاء لجنتك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك" : (وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما تستلزم المحبة وترجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب .

قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٦٦/٢) .

(٢) سورة الإسراء، آية (٥٧) .

ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ﴾[(١)]، ورحمته: اسم جامع لكل خير، وعذابه: اسم جامع لكل شر، ودار الرحمة الخاصة: هي الجنة، ودار العذاب الخالص: هي النار، وأما الدنيا فدار استدراج، فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة، فالجنة: اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى الله ﷻ كما في صحيح مسلم عن ثابت[(٢)] عن عبدالرحمن بن أبي ليلى[(٣)] عن صهيب عن النبي ﷺ قال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة وينجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه))[(٤)] وهي الزيادة ..

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: "ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك"، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشراب، واللباس،

---

(١) سورة البقرة، آية (٢١٨) .

(٢) هو أبو محمد ثابت بن أسلم البناني، مولاهم البصري، كان من أئمة العلم والعمل، صحب أنس بن مالك ﷺ أربعين سنة، وكان من أعبد أهل البصرة، مات سنة (١٢٧هـ).

انظر: مشاهير علماء الأمصار (٨٩)، والسير (٥/٢٢٠-٢٢٥) .

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ، أبو عيسى، ويقال أبو محمد، عبدالرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي، أدرك عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ . قتل سنة (٨٢هـ) .

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٠٣)، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٦/٢٦٠)، والسير (٤/٢٦٢-٢٦٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ (١/١٦٣/ رقم١٨١) .

والنكاح، والسماع، ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات)[١].

وقال الألباني –رحمه الله تعالى– عن مقولة من يقول: "ما عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك" : (فإنها فلسفة صوفية، اشتهرت بها رابعة العدوية، إن صح ذلك عنها، فقد ذكروا أنها كانت تقول في مناجاتها: "رب ما عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك"، وهذا الكلام لا يصدر إلا ممّن لم يعرف الله –تبارك وتعالى– حق معرفته، ولا شعر بعظمته وجلاله، ولا بجوده وكرمه، وإلاّ لتعبده طمعاً فيما عنده من نعيم مقيم، ومن ذلك رؤيته –تبارك وتعالى– وخوفاً مما أعده للعصاة والكفار من الجحيم والعذاب الأليم، ومن ذلك حرمانهم النظر إليه كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾[٢]، ولذلك كان الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– وهم العارفون بالله حقاً –لا يناجونه بمثل هذه الكلمة الخيالية، بل يعبدونه طمعاً في جنته– وكيف لا؟ وفيها أعلى ما تسموا إليه النفس المؤمنة، وهو النظر إليه –سبحانه– ورهبةً من ناره، ولِمَ لا؟ وذلك يستلزم حرمانهم من ذلك؛ ولهذا قال –تعالى– بعد أن ذكر نخبة من الأنبياء: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٣]، ولذلك كان نبينا محمد ﷺ أخشى الناس لله، كما ثبت في غير ما حديث صحيح عنه)[٤].

* * * * * *

---

(١) التحفة العراقية (٣٩٩-٤٠١) .

(٢) سورة المطففين، آية (١٥) .

(٣) سورة الأنبياء، آية (٩٠) .

(٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/٤٢٦-٤٢٧/ رقم٩٩٨) .

الفصل الثالث

بعض صور الشـــرك ووسائـــله

وفيه ثلاثة مباحـــث :

- **المبحث الأول**: التوســــــــــــــل .
- **المبحث الثاني**: التبـــــــــــــــرك .
- **المبحث الثالث**: شد الرحل إلى القبور والمشاهـــد .

*   *   *   *   *   *

المبحث الأول : التوســـــــل.

وفيه ثلاثة مطالـــب :

- المطلب الأول: رأي القاري في معنى الوسيلة .
- المطلب الثاني: التوســـــل المشـــروع .
- المطلب الثالث: رأي القاري في التوسل بذات النبي ﷺ .

* * * * * *

المطلب الأول: رأي القاري في معنى الوسيلة .

قال القاري في تفسير قولـــه تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١]:

(﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ أي القربة بطاعته كذا فسره جميع من تكلـــم في التفسير من السلف، والمعنى اطلبوا ما تتوسلون به إلى ثوابه، وقرب جنابه من فعل الطاعات، وترك المعصية)[٢].

وقال أيضاً عند قولـــه تعـــالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[٣]:

(﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أنها آلهة ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾ من غيره كالملائكة والمسيح ونحوه، ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ ﴾ لا يستطيعون، ﴿ كَشْفَ ٱلضُّرِّ ﴾ كـــالمرض والقحط، والفقر، ﴿ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ لذلك منكم إلى غيركم بل كما قـــال تعـــالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ هـــؤلاء الآلهة التي يدعونهم، ويعبدونهم من كمال الغفلة هم بأنفسهم يطلبـــون إلى الله القربة بالطاعة والعبادة. ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ بدل من واو ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ فأي موصولـــة، أي: يبتغي الوسيلة من هو أقرب منهم إلى الرب، فكيـــف بغـــير الأقـــرب،

---

(١) سورة المائدة، آية (٣٥) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٧٨/أ) .

(٣) سورة الإسراء، آية (٥٦-٥٧) .

﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ عقوبته كآحاد الأمة وأفراد البريـــة، فكيف تزعمون أنهم آلهة؟ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ حقيقاً بأن يحذر كـل أحد حتى الرسل والملائكة)[١].

المناقشـــة :

يتبين لنا من كلام القاري السابق أن الوسيلة المذكورة في الآيات المـراد بها: القربة إلى الله -تعالى- بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وذكر القـاري أن هذا التفسير هو تفسير جميع من تكلم في معناها من السلف، وهـــذا الـذي ذكره القاري هو الحق، وإليك البيان من كلام السلف .

أخرج الحاكم[٢] بسنده عن حذيفة ﷺ (أنه سمع قارئـاً يقـرأ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾[٣] قال: القربة، ثم قال: لقــد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبــد مـن أقربهـم إلى الله وسيلــة)[٤].

وقال قتادة[٥] في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ : (أي: تقربـــوا

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٤٨/ب) .

(٢) هو الإمام الحافظ، الناقد العلامة، شيخ المحدثين، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمـد ابـن حمدويه بن نُعيم بن الحكم، صاحب التصانيف. ولد سنة (٣٢١هـ) بنيسابور. مـن تصانيفه: معرفة علوم الحديث، والمستدرك، تاريخ النيسابوريين. توفي الحاكم في صفر سـنة (٤٠٥هـ).

انظر: السير (/١٦٢-١٧٧)، وتذكرة الحفاظ (١٠٣٩/٣-١٠٤٧).

(٣) سورة المائدة، آية (٣٥) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة (٣١٢/٢) وصححه الذهبي.

(٥) هو قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري، من صغار التابعين، كان إماماً عالماً ثقـة =

إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه)[(١)].

وفسر الوسيلة بالقربة كذلك عطاء، ومجاهد، والحسن، وغيرهم[(٢)].

وقال ابن زيد[(٣)]: (﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ المحبة، تحببوا إلى الله)[(٤)].

يتبين لنا من خلال النقل عن هؤلاء الأعلام من سلف الأمة أن للسلف في معنى الوسيلة قولين [(٥)]:

أحدهما : أنه القربة، وبهذا قال عطاء، ومجاهد، وقتادة، والحسن، وغيرهم.

والثاني : المحبة، وهذا قول ابن زيد .

وهذا الخلاف في معنى الوسيلة بين السلف خلاف تنوع لا اختلاف

= ثبتاً حافظاً، توفي سنة بضع عشر ومائة، أخرج له الجماعة .

انظر: الطبقات لابن سعد (٢٢٨/٩-٢٣٠)، والتاريخ الكبير (١٨٥/٧-١٨٧)، والجرح والتعديل للرازي (١٣٣/٧-١٣٥)، وحلية الأولياء (٣٣٣/٢)، و تهذيب الكمال (٤٩٨/٢٣-٥١٨)، والتقريب (٤٥٣) رقم (٥٥١٨) .

(١) جامع البيان للطبري (٢٢٦/٤) .

(٢) المصدر السابق (٢٢٦/٤) .

(٣) هو: عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم المدني، كان رجلاً صالحاً، لكنه ضعيف الحديث، له التفسير، والناسخ والمنسوخ، توفي سنة (١٨٢هـ).

انظر: الطبقات لابن سعد (٥٩٢/٧)، والتاريخ الكبير (٢٨٤/٥)، والمجروحين لابن حبان (٥٧/٢)، وسير أعلام النبلاء (٣٠٩/٨)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٧١/١) رقم (٢٥٥)، وتهذيب الكمال (١١٤/١٧-١١٩)، والتقريب (٣٤٠)، رقم (٣٨٦٥).

(٤) جامع البيان للطبري (٢٢٧/٤) .

(٥) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٣٤٧/٢-٣٤٨) .

تضاد؛ ولهذا قال القاري أن الوسيلة: هي القربة بفعل الطاعات، وترك المعصية بإجماع من تكلم في التفسير من السلف. فكأن القاري حينما قال ذلك لاحظ أن هذا الخلاف بين السلف في معنى الوسيلة خلاف تنوع لا اختلاف تضاد وهو كذلك [١]؛ لأن جماع معنى الوسيلة هو التقرب إلى الله بأنواع القرب والطاعات، وأعلاها إخلاص الدين له، والتقرب إليه بمحبته ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة دينه وشرعه، ومحبة من شرع حبه ... إلخ .

وبهذا التفسير لمعنى الوسيلة الذي ذكره القاري، وعزاه إلى جميع من تكلم في معناها من السلف نعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه أنه تخبط في الجهل والعمى، وضلال مبين، وتلاعب بكتاب الله تعالى؛ لأن اتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [٢]، وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٣].

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريقة الموصولة إلى رضا الله، وجنته، ورحمته هي اتباع رسوله ﷺ ، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل [٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٨٣-٨٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/٨٦).

(٢) سورة الزمر، آية (٣) .

(٣) سورة يونس، آية (١٨) .

(٤) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٢/٨٧)، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (٣/١٢٤-١٢٩) .

قال ابن جرير رحمه الله : (﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه، والوسيلة: هي الفعلية من قول القائل: توسلت إلى فلان بكذا، بمعنى: تقربت إليه)[١].

قال الشنقيطي رحمه الله :

(اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا القربة إلى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، على وفق ما جاء به محمد ﷺ بإخلاص في ذلك لله تعالى؛ لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضا الله تعالى، ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة)[٢].

* * * * * *

(١) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢/٢٢٦) .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٢/٨٦). وانظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي (٣/٢٩٤) .

المطلب الثاني : التوسـل المشـروع .

تطرق القاري في بعض كتبه إلى التوسل المشروع فذكر -رحمه الله- التوسل بأسماء الله وصفاته، والتوسل بالعمل الصالح، والتوسل بدعاء الصالحين، وهذه الأنواع الثلاثة هي أنواع التوسل المشروع التي وردت في الكتاب وصحيح السنة.

❖ ١- التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا :

دليل مشروعية هذا النوع من التوسل قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

قال القاري عند تفسيره لهذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ : (هي أحسن أسماء المباني لأنها دالة على معاني هي أحسن المعاني... ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ بتلك الأسماء)[2].

وصفته أن يقول الداعي في دعائه: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، أو يقول: يا عليم علمني، يا رزاق ارزقني، ونحو ذلك .

فهذا هو التوسل بأسماء الله وصفاته .

وورد في السنة التوسل بأسماء الله وصفاته فمن ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه « أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٣/ب) .

أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى »[١].

❖ ٢- التوسل إلى الله - تعالى - بعمل صالح قام به الداعي :

وصفته: كان يقول الداعي في دعائه: اللهم بإيماني بك، ومحبتي لرسولك اغفر لي، أو يقول: اللهم ببري بوالدي أن ترزقني ونحو ذلك .

وقد نبه القاري إلى هذا النوع عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: « بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غارٍ في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرِّجها، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالديّ أسقيهما قبل ولدي، وإنه قد نأى بي الشجر[٢] فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أُوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك،

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء (١٦٧/٢-١٦٨/ رقم١٤٩٥). والنسائي في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٥٢/٣/ رقم١٣٠٠). والحاكم في المستدرك (٥٠٣/١-٥٠٤)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(٢) أي: بعد بي طلب المرعى يوماً . مرقاة المفاتيح (٦٧١/٨) .

فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج عنهم ...... »[(١)] الحديث.

قال القاري: (« فادعوا الله بها » أي: بتلك الأعمال الصالحة، وبجعلها شفيعة ووسيلة إلى إجابة الدعوة)[(٢)].

فهؤلاء الثلاثة كما في هذا الحديث توسل كل واحد منهم بعمله الصالح، فتوسل أحدهم: ببره لوالديه، والآخر: بعفته عن الفاحشة، والثالث: بإحسانه إلى أجير كان عنده .

ومن هذا النوع أيضاً قول القاري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ... ﴾[(٣)]:

(المعنى اطلبوا ما تتوسلون به إلى ثوابه، وقرب جنابه من فعل الطاعات، وترك المعصية)[(٤)].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[(٥)]:

(﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ أي: اذكر حين كان يرفع أصول الأساس منه، وإسماعيل عطف عليه لأنه كان يناوله الحجارة ......

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا اشترى أشياء لغيره بغير إذنه فرضي (٢/١١٦-١١٧/ رقم٢٢١٥). ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٤/٢٠٩٩-٢١٠٠) .

(٢) مرقاة المفاتيح (٨/٦٧١) .

(٣) سورة المائدة، آية (٣٥) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٧٨/أ) .

(٥) سورة البقرة، آية (١٢٧) .

﴿ رَبَّنَا ﴾ وقريء يقولان ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ أي: تقربنا إليك بهذا البنـــا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعواتنا وأقوالنا ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنياتنا وأحوالنا) [١].

❖ ٣ـ التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين :

وصفته: أن يُطلب من الرجل الصالح الحي الذي تُرجى إجابـــة دعائـــه عند الله جل وعلا.

وقد أشار القاري إلى هذا النوع من التوسل فيما نقله عن النووي[٢] عند شرحه لحديث عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: « إن رجلاً يأتيكم من اليمـــن يقال له: أويس، لا يدَع باليمن غير أمٍ له، قد كان به بياض، فدعا الله فأذهبـــه إلا موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم فليستغفر لكم » [٣].

قال القاري: (« فمن لقيه منكم فليستغفر لكم » قال النـــووي: هـــذه منقبة ظاهرة لأويس القرني، وفيه طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصـــلاح، وإن كان الطالب أفضل منهم؛ [٤] أ.هـــ أقول: وفي رواية لمسلم عن عمر أنـــه قال لأويس القرني: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يأتي عليكم أويس بن عـــامر

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٤/أ). وانظر: (١٩٤/أ).

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشافعي محي الدين أبو زكريا، كان إماماً بارعـاً حافظاً متقناً، شديد الورع والزهد حريصاً على وقته، من مصنفاته: شرح مسلم، والمجمـــوع شرح المهذب، وغيرهما. توفي سنة (٦٧٦هـــ). انظر: تذكرة الحفاظ للذهـــبي (١٤٧٠/٤-١٤٧٤)، وطبقات الشافعية للسبكي (٣٦٥/٨-٤٠٠)، وشـــذرات الذهـــب (٣٥٤/٥-٣٥٦)، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (١٩/١-٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضـــائل أويـــس (١٩٦٨/٤/ رقم٢٥٤٢).

(٤) شرح مسلم للنووي (٣٢٩/١٦).

مع أمداد من اليمن من مراد ثم من قرن، كان فيه برص فبرأ منه إلاّ موضع درهم، له والدة وهو لها بر، لو أقسم على الله لأبره، فلو استطعت أن يستغفر لك فافعل فاستغفر لي فاستغفر له » [(١)] ...) [(٢)].

ومن هذا النوع أيضاً قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(٣)].

وقوله تعالى أيضاً حكاية عن أبناء يعقوب -عليهم السلام- لأبيهم :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [(٤)].

ومن ذلك أيضاً حديث أنس ﷺ في قصة ذلك الأعرابي ﷺ الذي دخل على النبي ﷺ وهو يخطب فقال: « ... يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا ...... » [(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أويس القرني (١٩٦٩/٤/ رقم٢٥٤٢) .

(٢) مرقاة المفاتيح (٦٣٣/١٠). وانظر: شرح الشفاء (٤٧٥/١) .

(٣) سورة الحشر، آية (١٠) .

(٤) سورة يوسف، آية (٩٧-٩٨) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الاستسقاء، باب انتقام الرب -جل وعز- من خلقه بالقحط إذا انتهكت محارم الله (٣١٩/١/ رقم١٠١٣). ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٦١٢/٢-٦١٤/ رقم٨٩٧).

ومن ذلك أيضاً توسل الصحابي الجليل عكاشة بن محصن بالنبي ﷺ أن يدعو الله -جل وعلا- أن يجعله في زمرة الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال النبي ﷺ : ((... اللهم اجعله منهم)) [١].

فالصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يتوسلون بدعاء النبي ﷺ في حياته، ثم بعد وفاته توسلوا بدعاء الأحياء، وعدلوا عن التوسل بدعاء النبي ﷺ لعلمهم أن ذلك لا يجوز، وأن التوسل بدعاء النبي ﷺ قد انقطع بموته، ولو كان التوسل بالرسول ﷺ جائزاً وسائغاً لما عدلوا عن النبي ﷺ إلى غيره .

فهذا عمر ﷺ يتوسل بدعاء عم النبي ﷺ وهو العباس ابن عبدالمطلب ﷺ كما جاء عند البخاري : ((اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون)) [٢].

وهذا معاوية بن أبي سفيان ﷺ يتوسل بدعاء يزيد بن الأسود الجُرشي [٣]، فعن سليم بن عامر الخبائري [٤] رحمه الله، قال: ((إن السماء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (١٩٩/٤/ رقم٦٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (٣١٨/١/ رقم١٠١٠) .

(٣) هو يزيد بن الأسود الجُرشي، يكنى أبا الأسود. أسلم في حياة النبي ﷺ وذُكر في الصحابة ولا يثبت، كان من سادة التابعين بالشام، يسكن بالغوطة بقرية زبدين.

انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤٧٦/٥)، والسير (١٣٦/٤-١٣٧) .

(٤) سُليم بن عامر الخبائري الحمصي أبو الكلاعي، من خيار أهل الشام، ولد في حياة النبي ﷺ وشهد فتح القادسية.

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١١٦)، والسير (١٨٥/٥-١٨٦).

قحطت، فخرج معاوية بن أبي سفيان، وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر، قال: أين يزيد بن الأسود الجُرشي؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطى الناس، فأمره معاوية، فصعد فقعد عند رجليه، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بيزيد ابن الأسود الجُرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يديه، ورفع الناس أيديهم فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس، وهبت ريح، فسقينا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم » [(١)].

فهذه ثلاثة أنواع للتوسل المشروع، وما عداها من التوسلات التي أحدثها الخلوف لم يقم عليها دليل من الكتاب وصحيح السنة، بل قام الدليل على خلافها، وهذه الأنواع المحدثة منها ما يصل إلى حد البدعة، ومنها ما يصل إلى الشرك الأكبر المخرج من الملّة[(٢)]، والعياذ بالله .

* *   * *   * *

---

(١) أخرجه يعقوب البسوي في المعرفة والتاريخ (٢/٣٨٠-٣٨١)، وأبو زرعة الدمشقي في تاريخه (٦٠٢/ رقم١٧٠٣)، وابن سعد في الطبقات (٧/٤٤٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٥/١١١-١١٢) .

وصححه الحافظ ابن حجر كما في الإصابة (٦/٣٥٨)، والمحدث الألباني كما في التوسل أنواعه وأحكامه (٤٤-٤٥) .

(٢) انظر: قاعدة في التوسل والوسيلة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، والتوسل أنواعه وأحكامه للألباني.

المطلب الثالث : رأي القاري في التوسل بذات النبي ﷺ .

قال القاري: في معرض حديثه عن زيارة قبر النبي ﷺ (فإنه من شعائر الإسلام، بل هو من واجبات الأحكام[1]، وقد تقدم في فضله بعض الكلام، وقد ورد عنه ﷺ « إن الله وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته »[2] هذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف من فارق أهل ووطنه، وقطع

(١) زيارة قبر النبي ﷺ مشروعة لمن كان في نفس المدينة، أما إنشاء السفر لأجل الزيارة فليس مشروعاً فضلاً عن أن يكون من الواجبات .

(٢) ورد من حديث عمار بن ياسر وأبي بكر الصديق .

أما حديث عمار فلفظه: « إن لله ملكاً أعطاه أسماع الخلائق، وهو قائم على قبري، إذا مت إلى يوم القيامة، فليس أحد من أمتي يصلى عليَّ صلاة إلا سماه باسمه واسم أبيه قال: يا محمد صلّى عليك فلان بن فلان، كذا وكذا، فيصلي الرب عَزَّوَجَلَّ على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً » لفظ الطبراني .

أخرجه البخاري في تاريخه الكبير (٤١٦/٦) معلقاً مختصراً، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢٤٨/٣-٢٤٩)، والطبراني في معجمه الكبير (كما في جلاء الأفهام لابن القيم رقم ١١٨)، وابن أبي عاصم في الصلاة على النبي ﷺ رقم (٥١) وغيرهم من طريق نعيم بن ضمضم (وقيل جهضم) عن عمران الحميري عن عمار. قال الهيثمي في المجمع (١٦٢/١٠): (نعيم بن ضمضم ضعيف، وابن الحميري اسمه عمران قال البخاري لا يتابع على حديثه)، وقال البزار: (لا نعلمه يروى عن عمار إلا بهذا الإسناد)، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بالضعف. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (٤٨٣/٢/ رقم٢٣٦٥) .

وأما حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه فلفظه: « أكثروا الصلاة عليَّ، فإن الله وكل بي ملكاً عند قبري، فإذا صلى عليَّ رجلٌ من أمتي قال لي ذلك الملك: يا محمد إن فلان بن فلان صلّى عليك الساعة ».

أخرجه الديلمي (٣١/١/١) كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٤/٤/ رقم١٥٣٠) من طريق محمد بن عبدالله بن صالح المروزي ثنا بكر بن خداش عن فطر بن خليفة عن أبي الطفيل عن أبي بكر مرفوعاً .

=

البوادي شوقاً إلى لقائه، واكتفى بمشاهدة مشاهده الكريمة إذا فاته مشاهدة طلعته العظيمة، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [(١)]) [(٢)].

وقال أيضاً في شرح الشفاء بعد تضعيفه لحديث توسل آدم بالنبي ﷺ « اللهم بحق محمد اغفر لي » [(٣)] : (« وهذا » أي: قوله « اللهم بحق محمد ... » ، « عند قائله » أي: راويه وناقله تأويل قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [(٤)] أي: تلقاها من إلهامه وإعلامه، وإن كان المشهور عند الجمهور أن المراد بالكلمات هي قوله ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ... ﴾ [(٥)] الآية) [(٦)].

وفي سنده محمد بن عبدالله بن صالح المروزي قال الألباني: لم أعرفه . أ هـ

والحديث حسنه الألباني. انظر: الصحيحة (٤/٤٣-٤٥) .

(١) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (١/٢٠٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٦١٥) من طريق أبي الحارث عبدالله بن مسلم القهري ثنا إسماعيل بن مسلمة أنبأ عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر رضي الله عنه قال: « قال رسول الله ﷺ لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي... » الحديث. قال الحاكم: (صحيح الإسناد ...).

فتعقبه الذهبي بقوله: (قلت: بل موضوع، وعبدالرحمن واهٍ، وعبدالله بن أسلم الفهري لا أدري من ذا) .

انظر: الكلام على الحديث في كتاب التوسل للألباني رحمه الله (١٠٣-١١٥) .

(٤) سورة البقرة، آية (٣٧) .

(٥) سورة الأعراف، آية (٢٣) .

(٦) شرح الشفاء (١/٣٧٥) .

وقال أيضاً في معرض شرحه لما يُروى عن الإمام مالك[١] أن أبا جعفر[٢] سأله أأستقبل القبلة وأدعوا أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال الإمام مالك: (ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ... ﴾[٣] الآية)[٤]:

(" بل استقبله واستشفع به " أي: اطلب شفاعته، وسل وسيلته في قضاء مراداتك وأداء حاجاتك " فيشفِّعك الله " بتشديد الفاء أي يقبل الله به شفاعتك لأمرك ولغيرك وفي نسخة "فيشفعه" أي: فيقبل شفاعته في حقك، ويعفو عن ذنبك بوسيلة نبيك، " قال الله تعالى " أي: مصدقاً لذلك فيما قرره مالك: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالمعصية ﴿ جَآءُوكَ ﴾ أي: للمعذرة، والتوبة " الآية " يعني ﴿ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي بلسانهم وجنانهم ﴿ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ ......)[٥].

---

(١) هو إمام دار الهجرة أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، ولد سنة (٩٣هـ)، من سادات أتباع التابعين وجلة الفقهاء والصالحين، أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة وأعرض عمّن ليس بثقة في الحديث، ولم يكن يروي إلا ما صح ولا يحدّث إلا عن ثقة. مات سنة (١٧٩هـ). انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٤٠)، والأنساب للسمعاني (١/١٢٠-١٢١)، والسير (٨/٤٨-١٣٥).

(٢) هو عبدالله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي المنصور، ولد في سنة (٩٥هـ) أو نحوها، وكان يلقب بأبي الدَّوانيق، توفي سنة (١٥٨هـ) ودفن بين الحجون وبئر ميمون.
انظر: السير (٧/٨٣-٨٩) .

(٣) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٤) الشفاء بحقوق المصطفى ﷺ (٢/٣٣) .

(٥) شرح الشفاء (٢/٧١) .

المناقشـــــة : -

يتبين لنا من إيراد القاري لآيـة ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ... ﴾[١] في معرض الحديث عن زيارة قبر النبي ﷺ أنه يجوِّز للإنسان أن يقصد قبر النـبي ﷺ ، ويسأله أن يستغفر له، وأن يتوسل به ولهذا يرى القاري صحـــة قيـاس وفاة النبي ﷺ على حال حياته .

وإليك نص عبارته في شرحه لكلام القاضي عياض -رحمه الله- كمـا في كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ حينما ذكر القاضي عياض أن الإمام مالك -رحمه الله- سئل عن ناس من أهل المدينة لا يقدمون مـــن سـفر، ولا يريدونه يقفون عند القبر فيسلمون، ويدعون ساعة، يفعلون ذلك في اليوم مـــرة أو مرتين، فقال الإمام مالك رحمه الله: (لم يبلغني هذا عن أحـــد مـــن أهـــل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلـــح أولهـــا، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أهم كانوا يفعلون ذلك، ويكـــره إلا لمن جاء من سفر أو أراده)[٢].

قال القاري: (« وتركه واسع » أي: جائز يعني ولو فعله فسائغ لأنـــه كما قال ابن مسعود ﷺ : « ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حســـناً »)[٣].

---

(١) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٢) الشفاء بحقوق المصطفى ﷺ (٢/٧٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٨٤/ رقم٣٦٠٠)، والطبراني في الكبير (٩/١١٨/ رقـم٨٥٨٢)، والبزار (٥/٥١٢-٥١٣/ رقم١٨١٦)، والحاكم في المستدرك (٣/٧٨) وقـــال: (صحيـح الإسناد) ووافقه الذهبي .

وحسّن إسناده الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢/١٧/ رقـم٥٣٣)، والأرناؤوط ورفقاؤه كما في المسند .

والقياس بوقت الوفاة على حال الحياة صحيح، ولا شك أن الصحابة كـــانوا يكثرون السلام عليه في حال حياته، ويتشرفون بتكرار ملاقاته، ويتبركون بأخذ الفيض من أنوار بركاته، فأي مانع من التردد على بابه، والتوسل إلى جنابه ... فلا سبيل إلى المنع من تلك الحضرة ولو على سبيل المداومة)[١].

فمن خلال هذه النصوص التي نقلتها من كلام القاري يتبين لنا أنه يـــرى جواز التوسل بذات النبي ﷺ، بل وجواز الإتيان إلى القبر وطلـــب الاستغفار والتوبة من الرسول ﷺ ، واستدل القاري على جواز ذلك بعدة أدلـــة.

الأول: آيـة ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [٢].

الثاني: تأويل من قال من أهل العلم أن قوله تعـــالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ ﴾ [٣] أن الكلمات هي توسل آدم بالنبي ﷺ .

الثالث: قصة الإمام مالك مع أبي جعفر المنصـــور .

الرابع: قياس الوفاة على حال الحيـــــــاة .

فهذه هي إجمالٌ للأدلة التي أوردها القاري ليبين بها جواز التوسل بـــذات النبي ﷺ ، وهذا من القاري خلافٌ لما عليه أئمة أهل الســـنة، فـــأهل الســـنة والجماعة -اتباع السلف الصالح- يرون أن التوسل بذات النبي ﷺ من البـــدع التي أحدثها الخلوف .

---

(١) شرح الشفاء (٢/١٥٦) .

(٢) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٣) سورة البقرة، آية (٣٧) .

الرد على أدلة القاري :

استدل القاري على جواز ما ذهب إليه بآية: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ ...... ﴾[1]، والجواب عن استدلاله بهذه الآية من وجوه :

الوجه الأول : يقال للقاري -ومن استدل بهذه الآية- إن هذه الآية ليس فيها دلالة على ما زعمتم، فهي لا تدل على المجيء إلى قبر النبي ﷺ وطلب الاستغفار والتوسل منه في مغفرة الذنوب بعد موته؛ لأن "إذ" ظرف لما مضى وليست ظرفاً للمستقبل، فلم يقل الله -جل وعلا- (ولو أنهم إذا ظلموا) بل قال (إذ ظلموا) فالآية تتحدث عن أمر وقع في حياة الرسول ﷺ .

واستغفار الرسول ﷺ بعد مماته أمر متعذر؛ لأنه إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث، كما قال الرسول ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له »[2]، فلا يمكن لإنسان بعد موته أن يستغفر لأحد، بل ولا يستغفر لنفسه أيضاً لأن العمل انقطع[3].

الوجه الثاني : أن التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه أو منزلته، أو طلب الاستغفار منه من المحدثات التي أحدثها الخلوف .

فالله -جل وعلا- لم يرشد العباد إلى هذا التوسل، ولا بلغه رسوله ﷺ أمته، ولو كان هذا الفعل مشروعاً لأرشد النبي ﷺ أمته إليه لأنه جاء في

---

(١) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٣/١٢٥٥/ رقم١٦٣١).

(٣) انظر: مجموع فتاوى ورسائل شيخنا ابن عثيمين (٢/٣٤٥) .

الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرَّ ما يعلمه لهم »[١]، فلما لم يدلهم على هذا الفعل وهو الإتيان إلى القبر وطلب الاستغفار منه علمنا أنه من المحدثات التي حذر منها النبي ﷺ بل هو من الشرك ووسائله، ولهذا نهى النبي ﷺ أمته عن أن يجعلوا قبره عيداً، فقال: « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم »[٢].

الوجه الثالث : أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يبتلون بأنواع البلاء بعد موته، فتارة بالجدب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ﷺ، فيقول: سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم، أو ينصرهم، أو يغفر لهم، فدل ذلك على أن الذهاب إلى قبر النبي ﷺ والتوسل به، وطلب الشفاعة منه من البدع المحدثة، بل من الشرك والعياذ بالله[٣].

الوجه الرابع : أن التوسل بذات النبي ﷺ أو طلب الاستغفار منه بعد موته يخالف ما عليه إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر المسلمين، فإن أحداً منهم لم يطلب من النبي ﷺ بعد موته أن يشفع له، ولا سأله شيئاً،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعه الخلفاء الأول فالأول (١٤٧٣/٣/ رقم١٨٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٥٣٤/٢/ رقم٢٠٤١). وأحمد في المسند (٣٦٧/٢)، وحسن إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١٧٠/٢). وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٢٢٦).

(٣) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لابن تيمية (٢٧-٢٨).

ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخري الفقهاء[١]، وحكوا حكاية مكذوبة عن مالك ﷺ كما يأتي الكلام عليها قريباً بمشيئة الله تعالى .

وأما استدلال القاري بتأويل قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ ﴾[٢] بأن الكلمات هي توسل آدم وبهذا قال بعض أهل العلم.

القاري عندما أورد حديث توسل آدم بالنبي ﷺ، وحكم عليه بالضعف قال بعد ذلك: (وهذا -أي الحديث- تأويل قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ﴾ أي: تلقاها من إلهامه وإعلامه، وإن كان المشهور عند الجمهور أن المراد بالكلمات هي قوله ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ...... ﴾[٣] الآية) .

فقول القاري وإن كان المشهور عند الجمهور أن المراد بالكلمات ... هذا الكلام منه يوهم أن ثمة خلافاً في تأويل هذه الآية بين السلف وأن من تلك الأقوال قول من قال: الكلمات هي: توسل آدم عليه السلام بنبينا محمد ﷺ ، وليس الأمر كذلك بل إنه لم يثبت عن السلف بإسناد صحيح أن هذه الآية تأويلها حديث توسل آدم عليه السلام بالنبي ﷺ.

فهذا إمام المفسرين ابن جرير -رحمه الله تعالى- لما ذكر اختلاف أهل التأويل في أعيان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه لم يذكر من تلك الأقوال أن ثمة قولاً لأهل العلم أن الكلمات هي: توسل آدم عليه السلام بالنبي ﷺ، فدل

(١) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لابن تيمية (٢٧) .

(٢) سورة البقرة، آية (٣٧) .

(٣) سورة الأعراف، آية (٢٣) .

ذلك على أن هذا التفسير -وهو تأويل الكلمات بحديث توسل آدم عليه السلام- لم يكن معروفاً عند السلف، لا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم بإحسان أنهم فسروا هذه الكلمات بتوسل آدم [١].

وكذلك الماوردي[٢] لما ذكر اختلاف أهل العلم في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه لم يذكر من تلك الأقوال قول من يقول بأن الكلمات هي توسل آدم عليه السلام بالنبي ﷺ .

قال الماوردي : (واختُلِفَ في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه على ثلاثة أقاويل :

أحدها : قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [٣] وهذا قول الحسن وقتادة وابن زيد .

والثاني : قول آدم: « اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك خير الغافرين ...... » وهذا قول مجاهد .

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١/٢٤٢-٢٤٥)، وتفسير أبو المظفر السمعاني (١/)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/١٩٠-١٩٢)، وتفسير البغوي (١/٦٥)، وابن كثير (١/١٢٣-١٢٤)، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيء الكلبي (١/٤٥)، وأضواء البيان للشنقيطي (١/٦٣).

(٢) هو علي بن محمد حبيب الماوردي البصري الشافعي أبو الحسن، ولد سنة (٣٦٤هـ)، تفقه على الصميري وأبي حامد الإسفرائيني، ثم تصدر للتدريس بالبصرة وبغداد. وله مصنفات كثيرة في الفقه والتفسير وغيرها. توفي سنة (٤٥٠هـ) .

انظر: معجم الأدباء (١٥/٥٢-٥٥)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/٤٢٧-٤٢٩)، والسير (١٨/٦٤-٦٧) .

(٣) سورة الأعراف، آية (٢٣) .

والثالث : أن آدم قال لربه إذ عصاه: رب أرأيت إن تبت وأصلحت؟ فقال ربه: إني راجعك إلى الجنة، وكانت هي الكلمات التي تلقاها من ربه وهذا قول ابن عباس) [(١)].

فتأويل آية ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ﴾ بالحديث المنكر الذي فيه توسل آدم عليه السلام بالنبي محمد ﷺ لم يكن معروفاً عند السلف، وإنما أحدثه الخلف، فدل ذلك على أن قول القاري: (وإن كان المشهور عند الجمهور ...) ليس بسديد، بل إن القرون المفضلة لم تكن تعرف هذا القول الشاذ إلا في هذه الرواية الضعيفة المنكرة .

فالثابت أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي ما قاله الله في سورة الأعراف: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[(٢)]، فهذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، لا كما يقوله أهل البدع أن الكلمات هي توسل آدم عليه السلام بالنبي ﷺ .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى : (والذي يدل عليه كتاب الله أن الكلمات التي تلقاهن آدم من ربه هن الكلمات التي أخبر الله عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربه، معترفاً بذنبه وهو قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[(٣)])[(٤)].

---

(١) النكت والعيون تفسير الماوردي (١٠٩/١). وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (٦٩/١-٧٠).

(٢) سورة الأعراف، آية (٢٣) .

(٣) سورة الأعراف، آية (٢٣) .

(٤) تفسير ابن جرير (٢٤٥/١) .

وأما حكاية المنصور مع الإمام مالك -رحمه الله- وقول الإمام مالك لــــه: (لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ......) هذه الحكاية لا تثبت عــــن إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله تعالى، وقد أجاب عنها المحققين من أئمــة أهل السنة بأجوبة[١] أجملها فيما يلي : -

١) هذه الحكاية منقطعة؛ ذلك لأن محمد بن حميد الرازي[٢] راوي هذه القصة لم يدرك مالكاً، لا سيما في زمن أبي جعفر المنصور، فإن أبا جعفر تــوفي بمكة سنة (١٥٨هـــ) ثمان وخمسين ومائة، وتوفي الإمام مالك سنة (١٧٩هـــ) تسع وسبعين ومائة، وتوفي محمد بن حميـــــد الــــرازي راوي الحكايـــة ســنة (٢٤٨هـــ) ثمان وأربعين ومائتين، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه .

٢) أن راوي هذه القصة وهو ابن حميد لم يذكــــره أحـــد في تلاميـــذ الإمام مالك. فهذا القاضي عياض -وهو راوي القصة بسنده- عندما قســـــم الرواة عن مالك إلى طبقتين كبرى وصغرى، وعلى حسب البلدان، لم يذكــــر ابن حميد فيهم فدل ذلك على أن ابن حميد لم يأخذ عن الإمام مالك أصلاً.

٣) محمد بن حميد الرازي راوي هذه الحكاية عن الإمام مالك رحمه الله ضعيف عند أكثر أهل الحديث [٣].

---

(١) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية مع الحاشية النفيسة للمحقــق (١٢١-١٢٧)، والصارم المنكي لابن عبدالهادي (٢٥٩-٢٦٤) .

(٢) أبو عبدالله محمد بن حميد بن حيان، ولد في حدود (١٦٠هـــ)، منكر الحديـــث صـــاحب عجائب. انظر: السير (١١/٥٠٣-٥٠٦) .

(٣) فهذا أبو زرعة وابن واره: يقولان للإمام أحمد: صح عندنا أنه يكذب .

=

٤) محمد بن حميد ضعيف عند أئمة الجرح إذا أسند -كما بينته في الحاشية- فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته؟ فهذه الحكاية التي ذكرها ابن حميد لم ينقلها أحد من أصحاب الإمام مالك مع كثرتهم، وكثرة الأئمة الحفاظ فيهم، فلمّا لم ينقلها أحد منهم دل ذلك على أنها لا تثبت عن الإمام مالك.

٥) اتفق أصحاب الإمام مالك على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن الإمام مالك قول في مسألة في الفقه، فكيف بحكايةٍ تناقض مذهبه المعروف من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه؟ ومع ذلك هو ضعيف في الحديث .

وبعد هذا البيان في حال محمد بن حميد الرازي يتبين لنا أن هذه القصة لا تثبت عن الإمام مالك رحمه الله تعالى .

وأما استدلال القاري بقياس الوفاة على حال الحياة فالجواب عنه من وجوه[1] :

قال صالح بن الإمام أحمد : فرأيت أبي بعد ذلك إذا ذكر ابن حميد نفض يده.

وقال صالح بن محمد الأسدي : ما رأيت أحداً أجرى على الله منه .

وقال النسائي : ليس بثقة .

وقال ابن حبان : ينفرد عن الثقات بالأشياء المقلوبات .

وقال يعقوب بن شيبة : كثير المناكير .

انظر: كلام هؤلاء الأئمة في كل من: تاريخ بغداد (٢/٢٦٠)، والمجروحين لابن حبان (٢/٣٠٣-٣٠٤)، والكاشف للذهبي (٣/٣٢) .

(١) انظر: اللمعة في الأجوبة السبعة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٢-٤٧)، والصارم المنكي في الرد على السبكي (٧٦-٨٤) .

الوجه الأول: يقال للقاري إن هذا القياس من أفسد الأقيسة، لأنه من المعلوم أن من زار الحي حصل له بمشاهدته وسماع كلامه ومخاطبته وسؤاله وجوابه وغير ذلك ما لا يحصل لمن لم يشاهده و لم يسمع كلامه. وليس رؤية قبره أو رؤية ظاهر الجدار الذي بني على بيته بمنزلة رؤيته ومشاهدته ومجالسته وسماع كلامه، ولو كان هذا مثل هذا لكان كل من زار قبره مثل واحد من أصحابه ومعلوم أن هذا من أبطل الباطل .

الوجه الثاني: زيارته في حياته مصلحة راجحة لا مفسدة فيها، والسفر إلى القبر بمجرده بالعكس مفسدة راجحة لا مصلحة فيها، بخلاف السفر إلى مسجده فإنه مصلحة راجحة. وهذا ما يتبين بالوجه الثالث .

الوجه الثالث: أن ثمة فرقاً بين إتيان النبي ﷺ في حياته، وبين إتيانه بعد موته، وذلك أنه في حياته لا يعبده أحد بحضوره، بل ينهى عن ذلك أشد النهي. ولذلك لما قال له ذلك الصحابي "ما شاء الله وشئت" قال: « أجعلتني لله عدلاً، بل ما شاء الله وحده »[(١)]. ولما قالت الجارية عنده: "وفينا نبي يعلم ما في غد" فقال: « دعي هذا وقولي بالذي كنت تقولين »[(٢)].

ومثل هذا كثير من نهيه عن المنكر بحضرته، فكل من رآه في حياته لم يتمكن أن يفعل بحضرته منكراً يقر عليه، بخلاف إتيانه بعد موته، ولذا نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، فقال: « ... ألا وإن من كان قبلكم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧). وصححه أحمد شاكر كما في تحقيقه للمسند (٤/١٩٣/ رقم٢٥٦١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ضرب الدّف في النكاح والوليمة (/٣٧٤/ رقم٥١٤٧) .

كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك »[١]، بل إنه ﷺ لعن أهل الكتاب على فعلهم، فقال: « لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[٢].

الوجه الرابع: السفر إلى النبي ﷺ في حال حياته، إما أن يكون لما كانت الهجرة إليه واجبة، كالسفر قبل الفتح، فيكون المسافر إليه مسافراً للمقام عنده بالمدينة مهاجراً من المهاجرين إليه، وهذا السفر انقطع بفتح مكة، كما قال ﷺ: « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية »[٣]. وإما أن يكون المسافر إليه وافداً إليه ليسلم ويتعلم منه ما يبلغه قومه، كالوفود الذين كانوا يفدون عليه لا سيما سنة تسع وعشر سنة الوفود، فهؤلاء وفدوا إلى النبي ﷺ لتعلم الإسلام والدين ولمشاهدته، وسماع كلامه ثم تبليغه قومهم وهذا خير محض. وأما بعد موته فليس الأمر كذلك، بل إن قصد القبر مما نهي عنه كما مر معنا .

* * * * * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٧-٣٧٨/ رقم٥٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما (١/٤٢٧/ رقم١٣٩٠). ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٧/ رقم٥٣١) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد والسير (٢/٣٠٢/ رقم٢٧٨٣). ومسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (٣/١٤٨٧/ رقم١٣٥٣) .

المبحث الثاني : التبـــــــرك .

- وفيه مطلبـــان :

- المطلب الأول: رأي القاري في التبـــرك .
- المطلب الثاني: مناقشـــة القاري فيما ذهب إليه .

* * * * * *

المطلب الأول: رأي القاري في التبرك[(١)].

قال القاري عند شرحه لحديث أم قيس بنت محصن رضي الله عنها: « أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ فأجلسه رسول الله ﷺ في حجره، فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه و لم يغسله »[(٢)]:

(وفي الحديث دليل على استحباب حمل الأطفال إلى أهل الفضل والكمال للتبرك سواء كانوا في حال الولادة أو غيره)[(٣)].

وقال أيضاً عند شرحه لحديث البراء بن عازب ﷺ قال: « كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة يوم الحديبية -والحديبية بئر- فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ النبي ﷺ فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا ثم صبَّه فيها، ثم قال: دعوها ساعة، فأرْوَوا أنفسهم، وركابهم حتى ارتحلوا »[(٤)]:

(والعجب من الناس عموماً وخصوصاً أنهم ما ضبطوا هذه البئر[(٥)] ولا

---

(١) التبرك: طلب البركة، والبركة -محركة- النماء والزيادة والسعادة. والتبرك بالشيء: طلب البركة بواسطته، يقال: تبركت به أي: تيمنت به، واليمن البركة.
انظر: القاموس المحيط (١٢٠٤)، ولسان العرب (١٠/٣٩٥-٣٩٦) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الوضوء، باب بول الصبيان (١/٩٢/ رقم٢٢٣). ومسلم في صحيحه في كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله (١/٢٣٨/ رقم٢٨٧) .

(٣) مرقاة المفاتيح (٢/٢٠١) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٢/٥٢٠/ رقم٣٥٧١).

(٥) وهذا من رحمة الله -تعالى- بهذه الأمة لأنه لو فُعل ذلك لكان ذلك وسيلة من وسائل =

جعلوا عليه من البناء الكبير رجاء للخير الكثير، مع أنها قريبة من مكة على طريق حدة في طريق جدة)[١].

وقال أيضاً في جمع الوسائل في شرح الشمائل عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: « اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ورق، فكان في يده ثم كان في يد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم كان في يد عثمان ﷺ حتى وقع في بئر أريس[٢] نقشه محمد رسول الله »[٣]:

(والأظهر أنهم لبسوه أحياناً لأجل التبرك به)[٤].

ثم نقل عن النووي قوله: (في الحديث التبرك بآثار الصالحين ولبس ملابسهم والتيمن بها)[٥].

وقال أيضاً في شرح عين العلم وزين الحلم: (ويتبرك بزيارة الأحياء من العلماء، والأولياء، والأموات من الأنبياء والأصفياء ....)[٦].

= الشرك التي حذر منها النبي ﷺ، وحذر منها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ كما يأتي بيانه -بمشيئة الله- في المسألة الثانية من مسائل التبرك .

(١) مرقاة المفاتيح (١٠/٢٠٤) .

(٢) بفتح الهمزة وتخفيف الراء بئر معروفة قريباً من مسجد قباء عند المدينة. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/٣٩) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب نقش الخاتم (٤/٦٩/ رقم٥٨٧٣). ومسلم في صحيحه في كتاب اللباس والزينة، باب لبس النبي ﷺ خاتماً من ورق (٣/١٦٥٦/ رقم٢٠٩١).

(٤) جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/١٧٩) .

(٥) جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/١٨٠)، انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٤/٣١٢).

(٦) شرح عين العلم وزين الحلم (١/٢٠٠) .

نستخلص من كلام القاري السابق أنه تطرق إلى ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : التبرك بالنبي ﷺ ، وآثاره المنفصلة عنه كشعره، وعرقه ونحو ذلك.

المسألة الثانية : التبرك بآثار النبي ﷺ المكانية كمكان سار فيه، أو جلس حوله ونحو ذلك .

المسألة الثالثة : التبرك بالأولياء والصالحين .

وسيكون -بمشيئة الله تعالى- مناقشة القاري من خلال هذه المسائل وذلك في المطلب الثاني .

* * * * * *

المطلب الثاني : مناقشة القاري فيما ذكره من المسائل

➢ المسألة الأولى :

التبرك بالنبي ﷺ وآثاره المنفصلة عنه كشعره، وعرقه ونحو ذلك .

القاري يرى جواز التبرك بالنبي ﷺ وآثاره المنفصلة عنه، وهذا حق قد دلت عليه النصوص الكثيرة، فالنبي ﷺ مبارك الذات، مبارك الصفات، مبارك الأفعال [١].

وهذه البركة مما أكرمه الله ﷻ بها، وإليك بعض هذه الأدلة على جواز التبرك بالنبي ﷺ وآثاره المنفصلة عنه .

١) جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها: « أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده رجاء بركتها » [٢].

فهذا الحديث فيه دلالة على بركة أعضاء جسده ﷺ .

٢) وجاء في صحيح مسلم من حديث أنس ﷺ: « أن رسول الله ﷺ أتى منى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلاق:

---

(١) انظر: هذه مفاهيمنا، للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ (٢٠٦) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الطب، باب الرقى بالقرآن والمعوذات (٤/٤٢-٤٣/ رقم٥٧٣٥). ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (٤/١٧٢٣/ رقم٢١٩٢).

خذ، وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس »[(١)].

قال النووي رحمه الله : (من فوائد الحديث التبرك بشعره ﷺ، وجواز اقتنائه للتبرك)[(٢)].

٣) وجاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فأُتيت فقيل لها: هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق، واستنقع[(٣)] عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها[(٤)]، فجعلت تنشف ذلك العرق فتحصره في قواريرها، ففزع النبي ﷺ فقال: وما تضعين يا أم سليم؟ فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: أصبتِ »[(٥)].

٤) وجاء أيضاً في صحيح البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يحلق (٢/٩٤٧/١٣٠٥) .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/٥٤) .

(٣) أي: اجتمع عرقه ﷺ ، قال ابن الأثير : (النّقع: الماء الناقع وهو المجتمع). النهاية في غريب الحديث (٥/١٠٨).

وقال الجوهري في الصحاح (٣/١٢٩٢-١٢٩٤) : (النقع: محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه .... واستنقع الماء في الغدير: أي اجتمع وثبت).

(٤) هي الصندوق الصغير الذي تترك فيه المرأة ما يعزِ عليها من متاعها. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٣/١٧٧) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي ﷺ، والتبرك به (٤/١٨١٥-١٨١٦/ رقم٢٣٣١).

« جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة[1]، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة، فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه! فأكسنيها، فقال: نعم. فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلّي أكفن فيها »[2].

فهذه الأحاديث التي سقتها فيها دلالة على جواز التبرك بالنبي ﷺ، وبآثاره المنفصلة عنه كشعره وعرقه ونحو ذلك .

فما ذهب إليه القاري من جواز التبرك بالنبي ﷺ، وبآثاره المنفصلة عنه حق قد دلت عليه النصوص الكثيرة .

◄ المسألة الثانية :

التبرك بآثار النبي ﷺ المكانية، كمكان سار فيه، أو جلس حوله، أو مكان نزل فيه ونحو ذلك .

سبق في المسألة الأولى أنه يجوز التبرك بآثار النبي ﷺ المنفصلة منه كشعره أو عرقه، أو ثيابه ونحو ذلك. ولكن هل هذه البركة التي أُعطيها النبي ﷺ

---

(١) البردة: الشملة المخططة، وقيل كساء أسود مُربّع فيه صور تلبسه الأعراب، وجمعها بُرَدٌ. النهاية في غريب الحديث (١/١١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٤/٩٧-٩٨/ رقم٦٠٤٦).

تتعدى إلى آثاره المكانية كمكان سار فيه، أو بئر وقف عليه وشرب منه، أو بقعة صلى فيها ؟ .

فالقاري يرى جواز ذلك، ولهذا قال في شرح العلم وزين الحلم : (ويتبرك بآبارها -أي المدينة- التي كان ﷺ يتوضأ ويغتسل ويشرب منها)[١].

وقال أيضاً في تلك البئر التي جلس النبي ﷺ على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا : (والعجب من الناس عموماً وخصوصاً أنهم ما ضبطوا هذه البئر، ولا جعلوا عليه من البناء الكبير رجاء للخير الكثير)[٢].

هذا الذي ذهب إليه القاري مجانب للصواب، وذلك من وجوه[٣]:

الوجه الأول : أنه لم يعرف دليل شرعي يومئ أو يشير إلى أن بركة بدن الرسول ﷺ قد تعدت إلى هذا المكان، فيكون مباركاً يشرع التبرك به .

الوجه الثاني : أن الصحابة -رضوان الله عليهم- لم ينقل عن أحد منهم أنه تبرك بشيء من المواضع التي جلس فيها رسول الله ﷺ، وتمسح بتلك الأماكن، لا في حياته ولا بعد مماته .

---

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٢٠٨/١) .

(٢) مرقاة المفاتيح (٢٠٤/١٠) .

(٣) انظر: هذه مفاهيمنا، للشيخ صالح آل الشيخ (٢٠٦-٢٠٨). والتبرك وأنواعه، للدكتور ناصر بن عبدالرحمن الجديع (٣٤١-٣٥٨). والتبرك المشروع والتبرك الممنوع، للدكتور علي بن نفيع العلياني (٦١) وما بعدها .

الوجه الثالث : أن سلف هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم من أئمة الهدى أنكروا هذا النوع من التبرك قولاً وفعلاً .

فعن المعرور بن سويد[1] -رحمه الله- قال: (خرجنا مع عمر -ابن الخطاب- في حجة حجها فقرأ بنا في الفجر ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[2] و﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾[3]، فلما قضى حجه ورجع والناس يبتدرون، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فقال: هكذا هلك أهل الكتاب اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً، من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل، ومن لم تعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصل)[4].

وورد أيضاً " أن عمر بن الخطاب بلغه أن أناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فأمر بها فقطعت "[5].

فهذا قول الخليفة الراشد الذي أمرنا النبي ﷺ بالاقتداء به، قال رسول الله ﷺ : " إني لا أدري ما بقائي فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر

---

(١) هو الإمام المُعمَّر أبو أمية الأسدي الكوفي المعرور بن سويد من أصحاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مات وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة، وهو أسود الرأس واللحية.

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٠٩)، والسير (٤/١٧٤) .

(٢) سورة الفيل، آية (١) .

(٣) سورة قريش، آية (١) .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/١٥١/ رقم٧٥٥٠)، وابن وضاح القرطبي في كتابه البدع والنهي عنها (٤٢)، وصححه ابن تيمية انظر: مجموع الفتاوى (١/٢٨١) .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/١٥٠/ رقم٧٥٤٥)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (٤٢).

وعمــــر »[١]. والذي قال عنه النبي ﷺ : « إن الله ﷻ جعل الحق على قلـــب عمر ولسانه »[٢].

وهذا الذي حذر منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من الحـــــق الــذي جعله الله على لسانه .

قال ابن وضاح[٣] رحمه الله :

(كان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهـــون إتيـــان تلـــك المساجد، وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قباءً وأحداً .

قال ابن وضاح : وسمعتهم يذكرون أن سفيان الثوري دخل مسجد بيت المقدس فصلى فيه، ولم يتبع تلك الآثار، ولا الصلاة فيها، وكذلك فعل غــيره

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنـــها كليهما (٥/٥٦٩/ رقم٣٦٦٢). وابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسـول الله ﷺ (١/٣٧/ رقم٩٧). وأحمد في مسنده (٥/٣٨٢) .

والحديث حسّنه الترمذي كما في جامعه، وصحّحه الحاكم كمـــا في المســتدرك (٣/٧٥)، وجوّد إسناده العقيلي كما في الضعفاء (٤/٩٥)، وحسّن إسناده الألباني كما في الصحيحـــة (٣/٢٣٥/ رقم١٢٣٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٥/٥٧٦-٥٧٧/ رقم٣٦٨٢)، وأحمد في مسنده (٢/٥٣، ٩٥) .

والحديث صحّحه ابن حبان كما في الإحسان في تقريب صحيح ابـــن حبـــان (١٥/٣٠٨/ رقم٦٨٩٥)، وحسّنه الألباني كما في المشكاة (٣/١٧٠٤/ رقم٦٠٤٢) .

(٣) هو محمد بن وضاح بن بزيغ المرْواني، مولى عبدالرحمن بن معاوية الداخل أبو عبدالله، الإمـــام الحافظ محدث الأندلس، ولد سنة (١٩٩هــ)، توفي ابن وضاح في المحرم سنة (٢٨٧هــ).

انظر: السير (١٣/٤٤٥-٤٤٦) .

أيضاً ممن يقتدى به، وقدم وكيع[(١)] أيضاً مسجد بيت المقدس فلم يعد فعل سفيان، -ثم قال ابن وضاح- فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين فقد قال بعض من مضى كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكراً عند من مضى ومتعجب إليه بما يبغضه عليه ومتقرب إليه بما يبعده منه، وكل بدعة عليها زينه وبهجه)[(٢)].

الوجه الرابع : أن هذا التبرك وسيلة إلى تعظيم البقاع التي لم يشرع لنا تعظيمها، وهي وسيلة من وسائل الشرك .

وبهذه الأوجه وغيرها مما لم أذكرها يتبين لنا أن التبرك بآثار الأنبياء -عليهم السلام- المكانية مما كان ينكره سلف الأمة، ولم يخالف في ذلك إلا ابن عمر رضي الله عنهما، فقد كان يتتبع الأماكن التي صلى فيها رسول الله ﷺ فيصلي حيث صلى ونحو ذلك، وابن عمر رضي الله عنهما ما كان يطلب بركة المكان، كما يظنه بعض المتأخرين، بل كان يطلب تمام الاقتداء بكل ما فعله رسول الله ﷺ في جميع أحواله، ومع ذلك فهذا الذي كان يفعله ابن عمر رضي الله عنهما لم يوافقه الصحابة عليه، بل إن أباه -وهو الذي له سنة متبعة- نهى الناس عن تتبع الآثار المكانية، وقوله مقدم على رأي ابنه عند الخلاف باتفاق، فكيف وابن عمر رضي الله عنهما لم يوافقه أحد من الصحابة ﷺ ، فالحق

---

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي، الكوفي، أحد الأعلام الحفاظ المتقنين، ممن رحل وكتب وجمع وصنف وحفظ وحدّث وذاكر وبث. ولد سنة (١٢٩هـ). ومات بغيد في طريق مكة سنة (١٩٦هـ).

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٧٣)، والعبر (١/٣٢٤) .

(٢) البدع والنهي عنها لابن وضاح (٤٢-٤٣) .

والصواب مع عمر ﷺ وبقية الصحابة ﷺ [١].

➤ المسألة الثالثة :

رأي القاري في التبرك بالأولياء والصالحين، وآثارهم .

القاري يرى جواز التبرك بالأولياء والصالحين، وآثارهم؛ ولهذا نقل عن النووي: جواز التبرك بآثار الصالحين، ولبس ملابسهم، والتيمن بها [٢].

وقال أيضاً في "جمع الوسائل في شرح الشمائل" عند شرحه لحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: « دخلت مع رسول الله ﷺ أنا وخالد بن الوليد على ميمونة، فجاءتنا بإناءٍ من لبن، فشرب رسول الله ﷺ وأنا على يمينه وخالد على شماله، فقال لي: الشربة لك فإن شئت آثرت بها خالداً، فقلت: ما كنت لأوثِرَ على سؤرِك أحداً ... » [٣] :

(من المعلوم أن خالداً ما كان يشرب سؤره كله مع إفادة أنه لو فرض فراغ اللبن بشرب خالد لكان الامتناع من الإيثار أولى للحرمان الكلي، لكن غفل ابن عباس عن أن سؤره ﷺ مع بقاء سور خالد أفضل فكان الإيثار

---

(١) انظر: هذه مفاهيمنا للشيخ صالح آل الشيخ (٢٠٧-٢٠٨) .

(٢) جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/١٨٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية (١٧٠-١٧١/ رقم٢٠٦). وفي جامعه في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أكل طعاماً (٤٧٢/٥-٤٧٣/ رقم٣٤٥٥)، وقال: هذا حديث حسن. وأخرجه أحمد في المسند (٢٢٠/١، ٢٢٥، ٢٨٤) .

والحديث فيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، وعمر بن أبي حرملة مجهول لا يعرف. وحسّن الحديث الأرناؤوط ورفقاؤه. انظر: تحقيق المسند (٣٨٨/٣/ رقم١٩٠٤)، ورقم (١٩٧٨)، و(١٩٧٩) و(٢٥٦٩).

موجباً للأكمل فإن سؤر المؤمن شفاء)[١].

وقال أيضاً بعد ذكره لحديث: ((سؤر المؤمن شفاء)) :

(فصحيح من جهة المعنى لرواية الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- مرفوعاً ((من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه))[٢] أي المؤمن)[٣].

وقال أيضاً في شرح عين العلم وزين الحلم (ويصافحهم -أي: الحجيج- متبركاً بأكفهم التي أصابت المنازل الشريفة والمحافل المنيفة)[٤].

فالقاري في هذا النص الذي بين أيدينا يعلل سبب التبرك بأيدي أولئك الحجيج هو أن أكفهم أصابت تلك الأماكن الشريفة، والمحافل المنيفة، فالتبرك بتلك الأماكن المشرفة من باب أولى عند القاري! وهذا أمر عجيب من القاري، بل والأعجب من ذلك أن القاري يرى جواز التبرك بالأموات؛ ولهذا قال في شرح عين العلم وزين الحلم :

(ويتبرك بزيارة الأحياء من العلماء والأولياء والأموات من الأنبياء والأصفياء)[٥].

وهذه دعوة إلى تعظيم القبور التي حذر الشارع من تعظيمها خوفاً

---

(١) جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/٣٠٤-٣٠٥) .

(٢) أطراف الغرائب والأفراد (٣/٢٨٠-٢٨١/ رقم٢٦٥٩) .

(٣) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (١٢٩) .

(٤) شرح عين العلم وزين الحلم (١/٢٠٧) .

(٥) المصدر السابق (١/٢٠٠) .

على هذه الأمة من الشرك، فقد جاء في الصحيحين من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله »[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع هي أوقعت كثيراً من الأمم، إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وبتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك، فإن يشرك بقبر الرجل الذي يعتقد نبوته، أو صلاحه، أعظم من أن يشرك بخشبة أو حجر على تمثاله؛ ولهذا نجد أقواماً كثيرين يتضرعون عندها، ويخشون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في المسجد، بل ولا في السَّحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد التي تُشد إليها الرحال .

فهذه المفسدة -التي هي مفسدة الشرك، كبيرة وصغيرة- هي التي حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد الثلاثة، ونحو ذلك.

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس واستوائها وغروبها؛ لأنها الأوقات التي يقصد المشركون بركة الصلاة للشمس فيها، فينهى المسلم عن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد (١/١٥٥/ رقم٤٢٧).

ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٥-٣٧٦/ رقم٥٢٨).

الصلاة حينئذٍ -وإن لم يقصد ذلك- سداً للذريعة .

فأما إذا قصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبياء والصالحين متبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ من الصلاة عند القبر -أيّ قبر كان- لا فضل فيها لذلك، ولا للصلاة في تلك البقعة مزية خير أصلاً، بل مزية شر) [1].

فالتبرك بقبور الأنبياء والصالحين من أموات المسلمين هو عين المحادة لله ورسوله ﷺ -وقد سبق نقل كلام شيخ الإسلام في هذه المسألة- وهو أعظم من التبرك بذوات الصالحين. وعلى كل حال فما ذهب إليه القاري من جواز التبرك بذوات الصالحين وآثارهم مجانب للصواب، ولما عليه أئمة أهل السنة والجماعة.

وسبب الخطأ عند القاري وغيره في هذه المسألة -التبرك بذوات الصالحين وآثارهم- هو قياسهم على ما ورد في حق النبي ﷺ من تبرك الصحابة ﷺ بنبيهم وبآثاره ﷺ ، وهذا القياس الذي ذهب إليه القاري وغيره ممن يجيزون التبرك بذوات الصالحين وآثارهم خطأ صريح لوجوه [2]:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩٢/٢-١٩٣). وانظر: فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، للشيخ عبدالرحمن بن حسن (٣٨٧/١-٣٨٨).

(٢) انظر: الاعتصام للشاطبي (٨/٢-١١)، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (١٨٦)، وتعليقات الشيخ عبدالعزيز بن باز على فتح الباري (٣٢٧/١-٥٢٢-٥٢٣) (١١٥/٣-١٢٤)، والتبرك أنواعه وأحكامه للجديع (٢٦١-٢٦٨).

- **الوجه الأول** : أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في حياته، ولا بعد موته، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، فهلا فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم ﷺ من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة؟ وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب[1]، وعلي بن الحسين[2]، وأويس القرني[3]، والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم؟! فدل ذلك على أن التبرك مخصوص بالنبي ﷺ .

الوجه الثاني : عدم المقارنة فضلاً عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة.

الوجه الثالث : التبرك بالصالحين وآثارهم من وسائل الشرك، فيجب منعه سداً للذريعة، وحماية لجناب التوحيد. ولهذا لما كان القاري من القائلين بجواز التبرك بالصالحين وآثارهم أقر بعض صور الشرك دون نكير لها .

فقد ذكر في ترجمة الإمام البخاري أن أهل سمرقند استسقوا مراراً فلم

---

(١) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي، أبو محمد القرشي، كان مولده لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وكان من سادات التابعين فقهاً وورعاً وعبادةً وفضلاً وزهداً وعلماً. مات سنة (٩٣هـ) .

انظر: مشاهير علماء الأمصار .

(٢) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن، من فقهاء أهل البيت وأفاضل بني هاشم وعباد المدينة، مات سنة (٩٢هـ) وله خمسون سنة.

انظر: مشاهير علماء الأمصار (٦٣).

(٣) هو سيد التابعين في زمانه، أبو عمر، أُويْسُ بن عامر بن جزْء بن مالك القرني المرادي اليماني، القدوة الزاهد.

انظر: السير (١٩/٤-٣٣) .

يسقوا، فقال بعض الصالحين[1] لقاضيها: أرى أن تخرج بالناس إلى قبر البخاري، ونستسقي عنده فعسى الله أن يسقينا ففعل، وبكى الناس عند القبر، وتشفعوا بصاحبه، فأرسل الله تعالى عليهم السماء بماء غزير أقام الناس من أجله نحو سبعة أيام لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر [2].

وقال أيضاً في ترجمة أبي أيوب الأنصاري -خالد بن زيد- ﷺ: (وهو -أي قبره- معروف إلى اليوم مُعظَّم، يستشفعون به فيشفعون) [3].

فالتبرك بالصالحين وآثارهم من وسائل الشرك، فصور الشرك الموجود اليوم عند بعض المسلمين من أسبابها التبرك بالصالحين وآثارهم .

الوجه الرابع : عدم تحقق الصلاح، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص، كالصحابة الذين أثنى الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، ومن شهد بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح، وقد عدم أولئك، أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم .

الوجه الخامس : أنا لو ظننا صلاح شخص، فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره .

---

(١) هكذا وصفهم بالصلاح وفيه نظر، لأن الصلاح الحقيقي هو المبني على الكتاب والسنة عقيدةً وعملاً.

(٢) مرقاة المفاتيح (٥٧/١) .

(٣) جمع الوسائل في شرح الشمائل (٢٨٦/١)، وشرح الشفاء (٦٠٤/١) .

وانظر: تعليق القاري على قصة ورقة بن نوفل حينما مر ببلال وهو يعذب فقال: (والله لئن قتلتموه لاتخذنه حنانا) أي لأجعلن قبره موضع حنان أي مظنة رحمة من الله، فأتمسح به متبركاً كما يتمسح بقبور الصالحين الذين قتلوا في سبيل الله من الأمم الماضية، فيرجع ذلك عار عليكم. شرح الشفاء (٥٠/١).

الوجه السادس : أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه، وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم.

قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- عند شرحه لحديث « من تشبه بقوم فهو منهم ... »[(١)] : (وكذلك التبرك بالآثار فإنما كان يفعله الصحابة ﷺ مع النبي ﷺ، ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم ببعض، ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علوِّ قدرهم، فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع النبي ﷺ مثل: التبرك بوضوئه، وفضلاته، وشعره، وشرب فضل شرابه وطعامه، وفي الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظَّم وللمعظِّم لما يخشى عليه من الغلو المدخل في البدعة، وربما يترقى إلى نوع من الشرك، كل هذا إنما جاء من التشبه بأهل الكتاب والمشركين الذين نهيت عنه هذه الأمة .

وقد كان السلف الصالح ينهون عن تعظيمهم غاية النهي كالحسن، والثوري، وأحمد ... وجاء إليه -أي إلى الإمام أحمد- رجل فمسح يده على ثيابه ومسح بهما وجهه، فغضب الإمام، وأنكر ذلك أشد الإنكار، وقال: عمّن أخذتم هذا الأمر؟!)[(٢)].

وبهذه الأوجه التي ذكرتها يتبين لنا أن قول القاري بجواز التبرك بالأولياء والصالحين وآثارهم مجانب للصواب، وليس عليه هدي سلف هذه الأمة .

وأما حديث « سؤر المؤمن شفاء » الذي زعم القاري أن معناه صحيح

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة (٣١٤/٤/ رقم ٤٠٣١)، وجود إسناده شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم (٢٦٩). وانظر: مجموع الفتاوى (٣٣١/٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٦١٤٩).

(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ بعثت بالسيف بين يدي الساعة (٤٦-٤٧).

وهو دليل على جواز التبرك بسؤر المؤمن، فهذا الحديث لا أصل له[١]، بل إن القاري نفسه حكم عليه بالوضع، ولذا أورده في كتابه "الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة" [٢].

وأما زعم القاري بأن معنى ذلك الحديث -سؤر المؤمن شفاء- صحيح، واستدل على ذلك برواية الدارقطني في "الأفراد" من حديث ابن عباس مرفوعاً: « من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه » أي المؤمن .

فالجواب عنه من جهتين :

الأولى : أن هذا الحديث موضوع لا يثبت عن النبي ﷺ [٣].

الثانية : أن هذا الحديث لو فرض صحته لما كان شاهداً لذلك المعنى! كيف وليس فيه أن سؤر المؤمن شفاء لا تصريحاً ولا تلويحاً [٤].

* * * * * *

(١) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/١٠٥/ رقم٧٨) .

(٢) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (١٢٩) .

(٣) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/١٠٦/ رقم٧٩) .

(٤) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/١٠٥) .

المبحث الثالث : شد الرحل إلى القبور والمشاهد .

وفيه مطلبان :

- المطلب الأول: رأي القاري في شد الرحل إلى القبور .
- المطلب الثاني: مناقشة القاري فيما ذهب إليه .

* * * * * *

المطلب الأول : رأي القاري في شد الرحل إلى القبور .

قال القاري عند شرحه لحديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا »[١] :

(« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » قيل: نفي معناه نهي أي: لا تشدوا إلى غيرها لأن ما سوى الثلاثة متساوٍ في الرتبة غير متفاوت في الفضيلة، وكان الترحل إليه ضائعاً وعبثاً، وفي شرح مسلم للنووي قال أبو محمد[٢]: يحرم شد الرحل إلى غير الثلاثة وهو غلط[٣]. وفي الاحياء[٤]: ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال به على المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصالحين، وما تبين لي أن الأمر كذلك، بل الزيارة مأمور بها لخبر: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها »[٥]، والحديث إنما ورد نهياً عن الشد لغير الثلاثة من المساجد لتماثلها، بل لا بلد إلا وفيها مسجد، فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر، وأما المشاهد فلا تساوي بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصلاة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (٣٦٧/١/ رقم١١٨٩). ومسلم في كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد (١٠١٤/٢-١٠١٥/ رقم١٣٩٧).

(٢) هو عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف، أبو محمد الجويني، إمام الشافعية والد إمام الحرمين أبي المعالي، كان إماماً في الفقه والأصول والأدب والعربية، توفي سنة (٤٣٨هـ). انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٧٣/٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (٥٩/١٢) .

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٧٧/٩-١٧٨) .

(٤) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣٣٦/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه (٦٧٢/٢/ رقم٩٧٧) بلفظ « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ...... » .

ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحل لقبور الأنبياء كإبراهيم وموسى ويحيى؟! [(١)]، والمنع من ذلك في غاية الإحالة، وإذا جوَّز ذلك لقبور الأنبياء والأولياء في معناهم، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة، كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد) [(٢)].

وقال أيضاً: (« لا تشد الرحال » أي: لا تطلب بركة البقاع بالسفر إليها، « إلا إلى مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى »، ولا يمنع هذا زيارة قبور الأنبياء والأولياء؛ لأن الحصر في حق المساجد دون سائر المشاهد) [(٣)].

وقال أيضاً بعدما ذكر جملة من الأحاديث التي فيها الحث على زيارة قبر النبي ﷺ كحديث « من زار قبري كنت له شفيعاً أو شهيداً »[(٤)]، ومنها حديث علي مرفوعاً « من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزر قبري فقد جفاني » ثم قال بعد ذلك: (وما وقع للشعبي والنخعي وغيرهما مما يقتضي كراهة زيارة القبور شاذ لا يعول عليه لمخالفته الإجماع!!! وقد فرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبي ﷺ!) [(٥)].

* *   * *   * *

---

(١) الجواب: نعم، يمنع لأن الحديث عام، وليس من هدي السلف أنهم كانوا يشدون الرحل للقبور كما يأتي بيانه -بمشيئة الله- قريباً .

(٢) مرقاة المفاتيح (٣٩٧/٢) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (١٨٩/١) .

(٤) يأتي الكلام على هذه الأحاديث قريباً -بمشيئة الله تعالى- (٣٠٧-٣١١) من هذه الرسالة.

(٥) شرح الشفاء (١٥٠/٢-١٥١) .

المطلب الثاني : مناقشة القاري فيما ذهب إليه .

يتبين لنا من كلام القاري السابق وما نقله عن بعض أهل العلم، أنه يرى أن حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد »(١) خاص في حق المساجد دون المشاهد من قبور الأنبياء والأولياء .

فالقاري يرى جواز شد الرحل إلى قبور الأنبياء والأولياء، وأن حديث « لا تشد الرحال ...... » خاص بالمساجد، وما عدا المساجد من المشاهد، والقبور فلا يدخل في عموم الحديث؛ ولهذا نقل عن الغزالي قوله -مرتضياً له- (والحديث إنما ورد نهياً عن الشد لغير الثلاثة من المساجد لتماثلها، بل لا بلد إلا وفيها مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر، وأما المشاهد فلا تساوي بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله)(٢).

وكلام القاري السابق يمكن إجماله في مسألتين، وسيكون مناقشة القاري من خلالهما :

المسألة الأولى : رأي القاري في الحصر الوارد في حديث « لا تشد الرحال ... » .

المسألة الثانية : رأي القاري فيمن قال بتحريم شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ .

* * * * * *

---

(١) سبق تخريجه (٣٠١) .

(٢) مرقاة المفاتيح (٢/٣٩٧) .

المسألة الأولى :

رأي القاري في الحصر الوارد في حديث « لا تشد الرحال ... » .

القاري يرى أن الحصر في حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » خاص بالمساجد دون سائر المشاهد؛ ولهذا قال عقيب حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » : (ولا يمنع هذا زيارة قبور الأنبياء، والأولياء؛ لأن الحصر في حق المساجد دون سائر المشاهد)[١].

فهذا هو رأي القاري في شد الرحل إلى قبور الأنبياء والأولياء، وأما زيارة قبر نبينا محمد ﷺ فإنه يرى استحباب ذلك؛ ولهذا أورد جملة من الأحاديث التي تحث على زيارة قبر النبي ﷺ ، ثم قال عقيب ذلك: (والأحاديث في هذا الباب كثيرة، والروايات فيها شهيرة منها ما رواه علي مرفوعاً « من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزر قبري فقد جفاني » وقد استدل به على وجوب الزيارة بعد الاستطاعة)[٢].

وخلاصة القول في رأي القاري أنه يرى جواز شد الرحل إلى القبور والمشاهد، وأما حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » فهو محمول عنده على نفي الفضيلة والاستحباب، ولهذا قال عند شرحه لحديث « لا تشد الرحال ... » : (« لا تشد الرحال » جمع رحل، وهو كور البعير، والمراد نفي فضيلة شدها وربطها)[٣].

---

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (١/١٨٩) .

(٢) شرح الشفاء (٢/١٤٩) .

(٣) مرقاة المفاتيح (٢/٣٩٧) .

هذا الذي ذهب إليه القاري مخالف لما ذهب إليه السلف ومن سار على نهجهم، والجواب عما ذهب إليه القاري من وجوه [١]:

الوجه الأول : قول القاري بأن المراد بالنفي في حديث « لا تشد الرحال ... » نفي الفضيلة، وأن شد الرحل إلى القبور والمشاهد جائز، قول مردود وقد أجاب عنه أهل العلم بجوابين :

أحدهما : أن هذا تسليم منه أن هذا السفر ليس بعمل صالح، ولا قربة، ولا طاعة .

ومن اعتقد أن السفر لزيارة القبور قربة وطاعة فقد خالف الإجماع، وإذا سافر لاعتقاده بأنه طاعة فإن ذلك محرم بإجماع المسلمين، فصار التحريم من جهة اتخاذه قربة، ومعلوم أن أحداً لا يسافر إليها إلا لذلك .

وأما إذا قصد بشد الرحل غرضاً من الأغراض المباحة كالتجارة مثلاً فهذا جائز .

الثاني : أن النفي في الحديث يقتضي النهي، والنهي يقتضي التحريم .

الوجه الثاني : أنه لم يرد عن النبي ﷺ لا من قوله ولا من فعله، ولا من قول أصحابه، ولا من فعلهم بأنه يجوز شد الرحل إلى القبور والمشاهد بل ورد عنهم ﷺ النهي عن ذلك، فدل ذلك على أن صدر هذه الأمة لا يرى جواز السفر إلى القبور والمشاهد، وأن ذلك من وسائل الشرك [٢].

---

(١) انظر: الرد على الاخنائي، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٤٤-١٤٥)، وجلاء العينين في محاكمة الأحمدين، لنعمان خير الدين الألوسي (٥٨٨-٥٨٩)، وغاية الأماني في الرد على النبهاني لأبي المعالي محمود شكري الألوسي (٢/٢٤٨-٢٤٩)، والنبذ الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين، للشيخ حمد بن ناصر آل معمر (١٦٩-١٧٠).

(٢) انظر: الكشف المبدي لتمويه أبي الحسن السبكي تكملة الصارم المنكي، للشيخ محمد بن =

الوجه الثالث : أن سلف هذه الأمة هم المرجع لفهم النصوص الشرعية، وحديث « لا تشد الرحال » فهمه السلف بأنه عام في جميع البقاع التي يقصد بها التقرب إلى الله، وإليك النقل من كلامهم :

أ) عن أبي بصرة رضي الله عنه أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه وهو جاء من الطور، فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور صليت فيه، قال: أما لو أدركتك قبل أن ترحل إليه ما رحلت، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى »[(١)].

ب) وعن قزعة[(٢)] قال: « سألت ابن عمر: آتي الطور؟ فقال: دع الطور ولا تأتها. وقال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد »[(٣)].

فهذا الصحابي الجليل بصرة بن أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه يرى حمل حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » على عمومه، وينهى عن شد الرحل إلى الطور الذي كلم الله موسى عليه، وهذا الصحابي الآخر أبو هريرة رضي الله عنه يوافق بصرة على هذا الفهم لهذا الحديث، ولا يُنكر عليه فهمه، مع أن بصرة

حسين الفقيه (٢٠٠) .

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/٧) والسياق له، والطيالسي (١٣٤٨) . وصححه الألباني، انظر: أحكام الجنائز وبدعها (٢٢٦)، والإرواء (٤/١٤٢).

(٢) قزعة بن يحيى، ويقال: ابن الأسود، أبو الفادية البصري، روى عن: ابن عمر، وابن عمرو ابن العاص، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وجماعة .
انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٨/٣٧٧) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/١٥٠/ رقم٧٥٣٩)، والأزرقي في أخبار مكة (٣٠٤)، وصحح إسناده الألباني، انظر: أحكام الجنائز (٢٢٦)، وتحذير المساجد من اتخاذ القبور مساجد (١٢٧).

ﷺ ينكر عليه ذهابه إلى الطور .

وهذا ابن عمر ﷺ ينهى عن شد الرحل إلى الطور، ويستدل على ذلك بحديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » فدل ذلك على أن السلف الصالح من الصحابة ومن سار على نهجهم يفهمون أن هذا الحديث « لا تشد الرحال ... » ليس خاصاً بالمساجد كما زعمه القاري وغيره، بل هو عام في كل مكان يقصد السفر إلى عينه للتقرب [١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكره لحديث بصرة بن أبي بصرة الغفاري في إنكاره على أبي هريرة ﷺ في ذهابه إلى الطور، قال: (فقد فهم الصحابي الذي روى الحديث أن الطور وأمثاله من مقامات الأنبياء، مندرج في العموم[٢]، وأنه لا يجوز السفر إليها، كما لا يجوز السفر إلى مسجد غير المساجد الثلاثة) [٣].

الوجه الرابع : وأما ما استدل به القاري من الأحاديث على استحباب شد الرحال إلى قبر نبينا محمد ﷺ فالجواب عنه من جهتين :

أحدهما : من حيث الإجمال، وهو أن جميع الأحاديث التي تُروى في زيارة قبر النبي ﷺ كلها ضعيفة بل موضوعة، هذا جواب من حيث الإجمال .

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/١٨٢) .

(٢) يقصد عموم حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... » .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/١٨٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (أحاديث زيارة قبره ﷺ كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء منها في الدين؛ ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها، وإنما يرويها من يروى الضعاف كالدارقطني والبزار وغيرهما)[١].

وقال أيضاً في موضع آخر: (كلها أحاديث ضعيفة، بل موضوعة، ليس في شيء من دواوين الإسلام التي يعتمد عليها، ولا نقلها إمام من أئمة المسلمين لا الأئمة الأربعة، ولا غيرهم، ولكن روى بعضها البزار، والدارقطني، ونحوهما بأسانيد ضعيفة، ولأن من عادة الدارقطني وأمثاله. يذكرون هذا في السنن ليعرف، وهو وغيره يبينون ضعف الضعيف من ذلك)[٢].

الثاني : من حيث التفصيل، وهو الرد على الأحاديث التي ذكرها القاري وزعم أنها تدل على استحباب زيارة قبر النبي ﷺ، كحديث « من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي »، وحديث « من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني »، وزعم القاري أن هذا الحديث الأخير رواه ابن عدي بسند يحتج به، ولهذا قال: (وعن ابن عدي بسند يحتج به « من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني »)[٣].

الجواب عن هذه الأحاديث :

١) حديث « من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي »، الجواب عن هذا الحديث من جهتين :

---

(١) الفتاوى (٢٣٤/١) .

(٢) المصدر السابق (١٤٩/٢٦) .

(٣) شرح الشفاء (١٤٩/٢) .

أ – من جهة الإسناد: فهذا الحديث رواه الدارقطني في سننه[١] عن هارون أبي قزعة عن رجل من آل حاطب عن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ: « من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي ... ».

هذا الحديث ذكر أهل العلم أن فيه علتين:

الأولى: الرجل الذي لم يسم فهو مجهول.

الثانية: ضعف هارون أبي قزعة فقد تُكلم فيه [٢].

ب – من جهة المتن: فإن هذا المتن كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن حديث « من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي » [٣]: (فإن هذا كذب ظاهر مخالف لدين المسلمين، فإن من

---

(١) (٢/٢٧٨/ رقم٢).

(٢) قال البخاري: لا يتابع عليه، وضعفه يعقوب بن شيبة، وذكره العقيلي، والساجي، وابن الجارود في الضعفاء. انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٤/٢٨٥)، ولسان الميزان لابن حجر (٦/١٨٠-١٨١)، والضعفاء للعقيلي (٤/٣٦١).

وانظر أيضاً كلام الحافظ ابن عبدالهادي في الصارم المنكي (١١١) فقد استفاض في الكلام على هذا الحديث وبين ضعفه، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رحمه الله (٣/٨٩-٩١/ رقم١٠٢١).

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٢/٢٧٨/ رقم١٩٢)، والبيهقي في الكبرى، في كتاب الحج، باب زيارة قبر النبي ﷺ (٥/٢٤٦)، وابن عدي في الكامل (٢/٧٩٠)، والطبراني في الكبير (١٢/٤٠٦/ رقم١٣٤٩٧)، كلهم من طريق أبي الربيع الزهراني عن حفص بن أبي داود عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً.

وهذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ لأن في سنده حفص بن أبي داود وليث بن أبي سليم وهما ضعيفان عند أهل الحديث. انظر: الرد على الاخنائي لابن تيمية (٥٠-٥١)، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة مع كلام المحقق عليها (١٣٤-١٣٥)، والصارم المنكي =

زاره في حياته، وكان مؤمناً به، كان من أصحابه، لا سيما إن كان من المهاجرين إليه، المجاهدين معه، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال « لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[1] أخرجاه في الصحيحين، والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة، كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين، بل ولا يشرع السفر إليه، بل هو منهي عنه، وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه، والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب، فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا إليه في حياته، فكيف بالسفر المنهي عنه؟)[2].

٢) وأما حديث « من حج البيت و لم يزرني فقد جفاني » .

هذا الحديث حكم عليه الحافظ الذهبي بالوضع كما في الميزان[3].

قال الألباني رحمه الله: (ومما يدل على وضعه أن جفاء النبي ﷺ من

لابن عبدالهادي (٦٢-٧٥)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رحمه الله (١/٦٢-٦٤/ رقم٤٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ « لو كنت متخذاً خليلاً ... » (٣/١٢/ رقم٣٦٧٣).

ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة (٤/١٩٦٧/ رقم٢٥٤٠).

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (١٣٤-١٣٥) .

(٣) ميزان الاعتدال (٤/٢٦٥). وانظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، للشوكاني (١١٦)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني (١/٦١/ رقم٤٥) .

الذنوب الكبائر إن لم يكن كفراً، وعليه فمن ترك زيارته ﷺ مرتكباً لذنب كبير وذلك يستلزم أن الزيارة واجبة كالحج وهذا مما لا يقوله مسلم؛ ذلك لأن زيارته ﷺ وإن كانت من القربات فإنها لا تتجاوز عند العلماء حدود المستحبات، فكيف يكون تاركها مجافياً للنبي ﷺ، ومعرضاً عنه؟!) [(١)].

٣) وأما حديث « من زار قبري كنت له شفيعاً أو شهيداً » [(٢)].

هذا الحديث رواه أبو داود في مسنده وفيه آفتان: الأولى: شيخ المصنف سوار بن ميمون، والثانية: الراوي عن عمر، وكلاهما مجهول.

٤) وأما حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ...... » [(٣)]، الذي استدل به الغزالي على استحباب زيارة القبور، وشد الرحال إليها، وأقره القاري على ذلك، فالجواب عنه من وجوه [(٤)]:

أ - يقال للقاري وغيره ممن استدل بهذا الحديث: ليس في هذا الحديث ما يدل على استحباب شد الرحل إلى زيارة قبر نبينا محمد ﷺ، ولا غيره من قبور المسلمين؛ ذلك لأن الأمر بمطلق الزيارة، أو استحبابها، أو إباحتها لا يستلزم السفر إلى ذلك، ولا استحبابه، ولا إباحته كما أن ذلك لا يتناول زيارتها لمن ينوح عندها، ولا زيارتها لمن يشرك عندها، ويدعوها ويفعل عندها من البدع ما نهى عنه كما أن قوله تعالى: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ [(٥)] لا يتناول

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/٦١) .

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١/٦٦/ رقم٦٥). انظر: الإرواء (٤/٣٣٣/ رقم١١٢٧) .

(٣) سبق تخريجه (٣٠١) .

(٤) انظر: الرد على الاخنائي (٢٣٥-٢٤٣) .

(٥) سورة البقرة، آية (١٩٦) .

أيام الحيض، ولا يومي العيدين. وكما أن قوله ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »[(١)]، وقوله « إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها »[(٢)]، لا يقتضي أنها تسافر مع غير زوج ولا ذي محرم، ولا على أن على زوجها أن يأذن لها إذا أرادت السفر إلى أحد المساجد، فلا يقال: إن هذه الأحاديث عامة في السفر وغيره.

فإن قيل: هذه المواضع قد عرف أنه أراد الإتيان إلى المسجد من البيت لم يرد السفر لأن هذا هو المعروف بينهم، قيل: وكذلك زيارة القبور لم يكونوا يعرفونها إلا من المدينة إلى مقابرها، ولم يُعرف قط أن أحداً من الصحابة والتابعين، وتابعيهم سافروا لزيارة قبر .

ب - أن النبي ﷺ خاطبهم بما كانوا يعرفونه من الزيارة، وهم لم يكونوا يعرفون زيارة القبور إلا كما يعرفون اتباع الجنائز: يتبعون الجنازة من البيت إلى المقبرة، وكذلك يخرج أحدهم لزيارة القبور من البيت إلى المقبرة، أو يمر بالقبر مروراً. فهذا الذي كانوا يعرفونه، ويفهمونه من قوله، فلم يكن أحد على عهد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ولا عهد الصحابة، والتابعين، وتابيعهم يسافر لزيارة قبر، لا قبر نبي، ولا صالح، ولا غيرهما، لا قبر نبينا محمد ﷺ، ولا إبراهيم، ولا غيره، بل هذا إنما حدث بعد ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة (١/٣٢٦-٣٢٧/ رقم٤٤٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأذان، باب استئذان المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد (١/٢٧٨/ رقم٨٧٣). ومسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة (١/٣٢٦-٣٢٧/ رقم٤٤٢).

ج – أن الزيارة التي أذن فيها الرسول ﷺ أو ندب إليها، أو فعلها، مقصودها نفع الميت والإحسان إليه بالدعاء له، والاستغفار، ومقصودها تذكر الموت، ولم يكن مقصودها أن تعود بركة الميت المزور على الحي الزائر، ولا أن يدعوه ويسأله، ويستشفع به، فهذا هو هدي النبي ﷺ في الزيارة .

د – ويقال أيضاً لمن يستدل بهذا الحديث على جواز شد الرحل إلى القبور. هب أن لفظ الحديث عام، فإن أحاديث النهي عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة تخص هذا كما تخص إتيان المساجد، ومعلوم أن إتيان المساجد أفضل من إتيان المقابر ونحوها، والسفر إليها أفضل -لا كما زعم القاري[1]- فإذا كان النبي ﷺ نهى عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة فالنهي عما يكون إتيانه والسفر إليه دون إتيان المساجد أولى بالنهي .

هـ- وكذلك يقال للقاري، وكل من استدل بحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » ليس في هذا الحديث دليل على استحباب السفر إليها بل ولا زيارتها، ذلك لأنه جاء في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن الانتباذ إلا في سقاء فاشربوا في الأوعية كلها ولا تشربوا مسكراً »[2]، وقد اتفق المسلمون على أن الانتباذ في الأوعية، والادخار أراد به إباحة ذلك بعد حظره، لم يرد به الندب

---

(١) فقد زعم القاري أن الرحلة إلى غير المساجد الثلاثة لا معنى لها؛ لأنه ما من بلد إلا وفيه مسجد، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله؟!.

انظر: مرقاة المفاتيح (٢/٣٩٧) .

(٢) سبق تخريجه (٣٠١) .

إلى ذلك، فكذلك قوله ﷺ : " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها " قد يقال: أراد به الإباحة بعد الحظر لم يرد الندب، ولا يلزم من إباحتها ولا من الندب إليها إباحة السفر كإتيان المساجد .

وبهذه الأوجه يتبين لنا أن حديث " كنت نهيتكم عن زيارة القبور ... " ليس فيه دلالة على استحباب شد الرحل إلى القبور، والمشاهد خلافاً لما ذهب إليه القاري ومن قبله الغزالي .

➢ المسألة الثانية :

رأي القاري فيمن قال بتحريم شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ .

قال القاري بعدما ذكر جملة من الأحاديث[١] التي فيها الحث على زيارة قبر النبي ﷺ : (هذا وما وقع للشعبي، والنخعي، وغيرهما مما يقتضي كراهة زيارة القبور شاذ لا يعول عليه لمخالفته الإجماع، وقد فرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم[٢]، كما أفرط غيره حيث قال كون الزيارة قربة معلوم من الدين بالضرورة، وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعل الثاني أقرب إلى الصواب؛ لأن تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً؛ لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه في هذا الباب، نعم يمكن حمل كلام من حرم أو كره على صورة خاصة من الزيارة من الاجتماع في وقت خاص على هيئة منكرة، أو صفة مكروهة من اجتماع الرجال والنساء في وقت واحد لما فيه من اتخاذ قبره عيداً الموجب لما أورد

---

(١) كل الأحاديث التي في زيارة قبر النبي ﷺ إما ضعيفة، أو موضوعة. انظر: (٣٠٧-٣١١) من الرسالة.

(٢) لم يفرط هذا الإمام وإنما دار حيث دار الدليل، والحق ما ذهب إليه ابن تيمية كما سبق بيانه في مسألة شد الرحل إلى القبور .

فيه وعيـــداً)[١].

المناقشـــــة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه قسم الناس تجـــاه مســـألة: شـــد الرحـــل إلى قبر النبي ﷺ إلى قسمـــين :

أ) منهم من فرط فيها وحرم شد الرحل إلى زيارة قبر النبي ﷺ كشـــيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أو كرهه كالشعبي والنخعي .

ب) ومنهم من أفرط من حيث حكم على جاحد الزيارة بـــالكفر؛ لأن شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ من القرب المعلومة من الدين بالضرورة عند هؤلاء.

ثم رجح القاري القول الثاني، وزعم أنه أقرب إلى الصـــواب!!! معلـــلاً بأن تحريم ما أجمع العلماء عليه بالاستحباب يكون كفراً؛ لأنه فوق تحريم المبـلح المتفق عليه في هذا الباب .

فالقاري من خلال ذكره لهذه المسألة نراه يرى استحباب شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ –وقد مضى مناقشة القاري في هذه المسألة مما أغنى عن إعادتها هنـــــا– ولكن يمكن أن نناقش القاري هنا في قضيتين :

الأولى : زعم القاري بأن مسألة شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ مجمع علـــى استحبابهـــا .

الثاني : زعم القاري بأن قول من قال إن جاحد شد الرحل إلى زيارة قبر النبي ﷺ كافر أقرب إلى الصواب .

* *　　* *　　* *

---

(١) شرح الشفاء (١٥١/٢) .

القضية الأولى :

زعمُ القاري بأن مسألة شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ مجمع على استحبابها.

هذه دعوى باطلة عارية عن الدليل، بل إن الدليل على خلاف ذلك .

والجواب عن هذه الدعوى من وجوه [(١)]:

١) يقال للقاري -وكل من ادعى الإجماع في هذه المسألة- أن تعريف الإجماع عند أهله هو اتفاق مجتهدي هذه الأمة على حكم شرعي لا يعلم لهم مخالف في هذا الحكم [(٢)].

ومن المعلوم أن مسألة شد الرحل لمجرد الزيارة ليس لها نصيب من هذا التعريف، وذلك يتبين بالوجه الثاني .

٢) من خلال التعريف المتقدم للإجماع نعلم أنه لو خالف واحد من العلماء المجتهدين في مسألة "ما" لم ينعقد الإجماع على الصحيح، كيف ومسألة شد الرحل إلى غير المساجد الثلاثة لم تكن معروفة عند السلف، بل ورد عنهم ﷺ النهي عن ذلك كما مر معنا في قصة بصرة الغفاري مع أبي هريرة ﷺ، وإنكار ابن عمر ﷺ على من أراد أن يذهب إلى الطور، فكيف يُدعى بعد ذلك أن المسألة مجمع عليها، فلو عكست القضية لكان هو الصواب بأن

---

(١) انظر: الكشف المبدي لتمويه أبي الحسن السبكي، للشيخ محمد بن حسين الفقيه (١٥٨) وما بعدها.

(٢) انظر: تقريب الوصول إلى علم الأصول، لابن جزي الغرناطي (٣٢٧)، ونيل السول على مُرتقى الوصول، للعلامة محمد يحيى الولاتي (١٦٣).

الإجماع منعقد على تحريم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ومن ذلك قبر النبي ﷺ .

٣) أن القاري نقض هذه الدعوى التي ادعاها، حيث ذكر أن الشعبي، والنخعي وغيرهما كانوا يكرهون زيارة القبور، فأين الإجماع مع وجود هذا الخلاف ؟.

* * * * * *

➢ **القضية الثانية** : زعمُ القاري بأن قول من قال إن جاحد شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ محكوم عليه بالكفر أقرب إلى الصواب زعمٌ باطل.

وقد علل القاري كونه أقرب إلى الصواب بقوله: (لأن تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً؛ لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه في هذا الباب)[١].

نلحظ هنا في تعليل القاري أنه بنى رأيه هذا على مقدمة وهي كون شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ من المسائل المجمع على استحبابها بين العلماء فهذا هو الأساس الذي أقام عليه القاري دعواه تلك، وقد هدمنا هذا الأساس –في المسألة الأولى– وبينّا أنه ليس ثمة إجماع في المسألة. وإذا بطل الأساس بطلت النتيجة التي توصل إليها القاري وزعم أنها أقرب إلى الصواب .

وأما حمل القاري كلام من قال بالتحريم، أو الكراهة على صورة خاصة من الزيارة كالاجتماع في وقت خاص على هيئة منكرة، أو صفة مكروهة من اجتماع الرجال والنساء في وقت واحد .... إلخ .

---

(١) شرح الشفاء (٢/١٥١) .

فهذا حمل بعيد عن الصواب بل مراد من حرم أو كره -شد الرحل إلى زيارة القبور- مراده شد الرحل من حيث هو، فلا يجوز إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، أو المسجد النبوي، أو المسجد الأقصى، وما عداها فلا يجوز شد الرحل إليه .

* * * * * *

الباب الرابع

عقيدة القاري في الأسماء والصفات

وفيه فصلان :-

- الفصل الأول : الأسماء .
- الفصل الثاني : الصفات .

* * * * * *

تمهيد :

أهمية معرفة توحيد الأسماء والصفات وبيان طريقة السلف في إثباته

(إن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الاطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[1]، فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن، ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2]، فالعلم بوحدانيته تعالى، وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفي به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له .

فهنا أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يُعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعبد بموجبها ومقتضاها)[3].

فالعلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله أجل العلوم، وأشرفها، وأعظمها، لأن شرف العلم بشرف المعلوم (ومما لا شك فيه أن أجل معلوم وأعظمه واكبره هو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص، وعن كل

---

(١) سورة الطلاق، آية (١٢) .

(٢) سورة محمد، آية (١٩) .

(٣) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (١/٥٣٥)، وانظر أيضاً (١/٢٢٧) .

تمثيل وتشبيه في كماله)[١].

ولما كان الإيمان بأسماء الله وصفاته بهذه المثابة نجزم قطعاً بأن باب النجاة فيه إنما يكون بمتابعة الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، لأن الله ﷻ أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة كما قال تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٢]، فمن الدين الكلام في أسماء الله وصفاته، بل هو أعظم أبواب الدين، لأن به معرفة الله ﷻ فالله ﷻ لم تره العيون في هذه الدنيا، وما آمن به من آمن به برؤيته، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، وهذا الإيمان أعظمه العلم بالله وبأسمائه ونعوت جلاله وصفات كماله وجماله .

وإذا كان الأمر كذلك، فإن ذكره على وجه الكمال في الكتاب والسنة لا بد منه؛ لأن الله أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، وهذا الكمال يقتضي أن طريقة الصدر الأول طريقة محكمة، فما فهموه من الكتاب والسنة في هذا الباب هو العلم والحكمة .

فطريق النجاة في هذا الباب وغيره أن يُسلك فيها طريقة سلف هذه الأمة، لأن النبي ﷺ وصف السلف بأنهم خير القرون[٣]، وكونهم خير القرون، يدل على أنهم جمعوا من العلم أسْلَمه وأعلمه وأحكمه، وجمعوا من العمل ما كان على صواب وظهر فيه إخلاصهم ومتابعتهم لنبيهم ﷺ ، فطريقة السلف الصالح

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٣١١) .

(٢) سورة المائدة، آية (٣) .

(٣) كما جاء في حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: « خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ... » أخرجه البخاري في الشهادات رقم (٢٦٥٢).

في أسماء الله وصفاته: أنهم يثبتون الأسماء الحسنى والصفات العليا لله ﷻ إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل على حد قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (١).

وقد بين الإمام إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني(٢) اعتقاد أئمة الهدى من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم في هذا الباب فقال :

(إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة، حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم يشهدون لله تعالى بالوحدانية وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم ﷻ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله أو شهد له بها رسوله ﷺ على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته العدول الثقات عنه، ويثبتون له ﷻ، منها ما أثبت لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه، فيقولون إنه خلق آدم بيده، كما نص سبحانه عليه في قوله عز من قائل ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ ﴾(٣). ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين تحريف المعتزلة والجهمية أهلكهم الله ولا يُكيفون بكيف، أو يشبهون بأيدي المخلوقين تشبيه المشبهة خذلهم الله، وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من

---

(١) سورة الشورى، آية (١١) .

(٢) هو أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد بن إسماعيل الصابوني، الإمام العلامة، المفسر، المحدّث، المذكر، شيخ الإسلام، ولد سنة (٣٧٣هـ)، روى ابن عساكر عن إمام الحرمين أنه قال: كنت أتردد وأنا بمكة في المذاهب فرأيت النبي ﷺ وهو يقول: عليك باعتقاد أبي عثمان الصابوني. أهـ. توفي الصابوني سنة (٤٤٩هـ).

انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٦٩/١٢)، والسير (٤٠/١٨-٤٤) .

(٣) سورة ص، آية (٧٥) .

التحريف[١] والتكييف[٢] والتشبيه[٣] ومنّ عليهم بالتعريف والتفهيم حتى سلكوا سُبل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعليل والتشبيه، وابتغوا قول الله ﷻ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[٤] ...)[٥].

* *　* *　* *

---

(١) التحريف لغة: التغيير وإمالة الشيء عن وجهه، يقال: انحرف عن كذا أي: مال وعدل. واصطلاحاً: هو التغيير لألفاظ الأسماء والصفات أو معانيها، كقول الجهمية في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ أي: استولى، وقوله ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ أي: أمره.

التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية لابن رشيد (٢٢)، وانظر: شرح الواسطية للهراس (٢١).

(٢) المراد به السؤال عن حقيقة الشيء وكنهه .

انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/٦٤)، وشرح العقيدة الواسطية لشيخنا ابن عثيمين (١/٩٧).

(٣) المراد بالتشبيه: تشبيه الخالق بالمخلوق كقول المشبهة لله يد كأيدينا وسمع كأسماعنا، ونحو ذلك. انظر: التنبيهات السنية (٢٥)، والتنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية لابن سعدي(١٦-١٨) .

(٤) سورة الشورى، آية (١١) .

(٥) عقيدة أصحاب الحديث (٢٦-٢٧) .

الفصل الأول

الأسمـــــــاء

- وفيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول: الاسم والمسمــــى .
- المبحث الثاني: هل أسماء الله توقيفية أم اجتهادية .
- المبحث الثالث: أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين .
- المبحث الرابع: حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .
- المبحث الخامس: معنى الإحصاء الوارد في الحديث .

* * * * * *

توطئـــــة :

تناول القاري -رحمه الله- عدة مسائل تتعلق بأسماء الله ﷻ فقد تحـــدث عن اشتقاق الاسم وعلاقته بالمسمى، وهل أسماء الله ﷻ توقيفية أم اجتهاديـــة، كما تعرض إلى مسألة عدد أسماء الله ﷻ وهل هي محصورة في عدد معين أم لا، كما تحدث عن معنى الإحصاء الوارد في الحديث، وكذلك عن معنى الإلحـــاد الذي ذمه الله ﷻ .

وفيما يلي سأورد هذه المسائل في خمسة مباحث :

المبحث الأول : الاسم والمسمى وفيه ثلاث مطالب :

المبحث الثاني : هل أسماء الله ﷻ توقيفية أم اجتهادية ؟.

المبحث الثالث : أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين .

المبحث الرابع : حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

المبحث الخامس : معنى الإحصاء الواردة في الحديث .

* *   * *   * *

المبحث الأول : الاسم والمسمى

قال القاري رحمه الله عن الاسم (... الأصح أنه من الأسماء المحذوفة العجز كيد، ودم، بدليل تصاريفه من سميت ونحوه، واشتقاقه من السمو وهو العلو لأن التسمية تنويه بالمسمى ورفع لقدره، وعند الكوفية، أصله وسم وهو العلامة لأنه علامة دالة على المسمى فحذف حرف العلة تخفيفاً ثم أدخلت عليه همزة الوصل ...) [(١)].

وقال أيضاً : (الاسم هو اللفظ الدال على المعنى بالوضع لغة، والمسمى هو المعنى الموضوع له الاسم والتسمية، وضع ذلك اللفظ لذلك المعنى، أو إطلاقه عليه وقد يطلق الاسم ويراد به المعنى فالمراد بالاسم هو المسمى على التقدير الثاني وغير المسمى على التقدير الأول، وقال مشايخنا التسمية هو اللفظ الدال على المسمى، والاسم هو المعنى المسمى به ......) [(٢)].

يتبين لنا من خلال النصين السابقين أن القاري تطرق إلى ثلاث مسائل:

- **المسألة الأولى : تعريف الاسم .**
- **المسألة الثانية : اشتقاق الاسم عند أهل اللغة .**
- **المسألة الثالثة : هل الاسم هو المسمى؟ أو غيره؟ ...**

وفيما يلي سأورد هذه المسائل في ثلاثة مطالب في المبحث الثاني، وسيكون مناقشة القاري من خلال هذه المطالب .

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/١) .

(٢) المصدر السابق (٧٢/٥) .

المطلب الأول : تعريف الاسم .

القاري عرف الاسم بأنه اللفظ الدال على المعنى بالوضع لغة [١].

هذا التعريف الذي ذكره القاري لا يخرج عما قاله أهل اللغة .

قال أبو بكر بن السراج[٢] المتوفى سنة (٣١٦هـ) :

الاسم : (ما دل على معنىً [٣] مفردٍ) [٤].

وقال السهيلي[٥]: الاسم (اللفظ الذي وضع دلالة على المعنى) [٦].

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٥/٧٢) .

(٢) هو محمد بن السري بن سهل أبو بكر، إمام النحو، أبو بكر السراج، صاحب المبرد، انتهى إليه علم اللسان، كان يلثغ بالراء فيجعلها عيناً، كان مُكباً على الغناء واللّذّة، وله أخبار سامحه الله، من مصنفاته: "شرح كتاب سيبويه"، و"الشعر والشعراء". مات سنة (٣١٦هـ).
انظر: السير (٤/٤٨٣-٤٨٤)، والأعلام (٦/١٣٦) .

(٣) ذلك المعنى يكون شخصاً وغير شخص، فالشخص نحو: رجل، وفرس، وحجر، وبلد، وعمر، وبكر. وأما ما كان غير شخص فنحو: الضرب، والأكل، والظن، والعلم، واليوم، ونحو ذلك. انظر: الأصول في النحو لأبي بكر السراج (١/٣٦) .

(٤) المصدر السابق (١/٣٦) .

(٥) هو الحافظ العلامة البارع، أبو القاسم وأبو زيد عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد من أصبغ بن حسين بن سعدون، ويكنى أيضاً أبا الحسين، ولد سنة بضع وخمسمائة، كان السهيلي واسع المعرفة غزير العلم عالماً بالنحو واللغة. من مصنفاته: "الروض الأنف"، و"كتاب الفرائض". مات سنة (٥٨١هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ (٤/١٣٤٨-١٣٤٩) .

(٦) نتائج الفكر في النحو للسهيلي (٣٩) .

وقد بين السهيلي المراد بالمعنى فقال: (والمعنى هو الشيء الموجود في العيان -إن كان من المحسوسات- كزيد وعمرو -وفي الأذهان إن كان من المعقولات- كالعلم والإرادة . . .).

وقال الزمخشري: (الاسم: ما دل على معنى في نفسه دلالة مجردة عن الاقتران)[١].

ومن خلال هذه التعريفات يتبين لنا أن القاري لم يخرج في تعريفه عما قاله علماء اللغة، فالاسم هو اللفظ الدال على معنى .

* * * * * *

المطلب الثاني : اشتقاق الاسم عند أهل اللغة .

تطرق القاري إلى اشتقاق الاسم عند أهل اللغة، وذكر الخلاف بين مدرستي أهل البصرة، وأهل الكوفة في اشتقاق الاسم، ورجح رحمه الله أن الاسم من الأسماء المحذوفة العجز خلافاً لما عليه أهل الكوفة بأن المحذوف فاء الكلمة، فالقاري يرى ما يراه أهل البصرة بأن الاسم مشتق من السمو وهو العلو.

وهذا هو الراجح وذلك للأسباب التالية : -

الأول : الاستقراء لكلام العرب، فإنه لا يوجد في كلام العرب كلمة سقطت منها فاء الفعل فألحقت بها همزة الوصل في أولها، نحو قولك "عِدَه" و"زِنَه" وأصله "وعِده" و"وَزِنْه" فهنا سقطت فاء الكلمة من "زنه" و"عده"، ولم تلحق بها همزة الوصل، فالعرب لا تعرف شيئاً دخلته ألف الوصل وحذفت فاؤه، وإنما تُلحق العرب ألف الوصل في أول الكلمة إذا سقطت لامها لأنه يسكن أولها فتحتاج إلى الوصل مثل: ابن، واست، واسم، ونحو ذلك.

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش (٢٢/١) .

وهذا يبين لنا أن أصل اسم ليس من وسم وإنما هو من سمو [(١)].

الثاني : أن تصغير "اسم" بالاتفاق هو "سُمَيّ" [(٢)]، فلو كان أصل الكلمة "وسم" لقيل في تصغيرها "وسيم".

الثالث : أن جمع "اسم" بالاتفاق على "أسماء" مثل: "قنو - أقناء" و"حنو - أحناء" [(٣)]، فلو كان أصل "اسم" وسم لقيل في جمعها أوسام.

فالجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها فلا يقال: وسيم ولا أوسام.

وبهذا يتبين أن الاسم مشتق من السمو كما ذهب إليه أهل البصرة ورجحه القاري رحمه الله.

* * * * * *

المطلب الثالث : هل الاسم هو المسمى ؟ أو غيره ؟

تعرض القاري إلى مسألة الاسم والمسمى هل هو هو؟ أو غيره؟.... ، وذكر أقوال أهل العلم في هذه المسألة، ولكنه لم يستوف هذه الأقوال، لأن ثمة أقوالاً أخرى لم يوردها أهمها "أن الاسم للمسمى" وهو ما عليه أكثر أهل

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٤٠-٤١)، ولسان العرب لابن منظور (١٤/٤٠١).

(٢) انظر: كتاب العين للفراهيدي (٧/٣١٨)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٤٠-٤١)، وتفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (١/٣٢)، وتفسير البغوي (١/٣٨)، وشرح السنة للبغوي (٥/٣٠)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٧١)، ولسان العرب (١٤/٤٠١)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦/٤٠٨).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٤٠)، ولسان العرب لابن منظور (١٤/٤٠١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٧١)، وفتاوى شيخ الإسلام (٦/٢٠٨).

السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره -كما يأتي بيانه بمشيئة الله- وقبل الدخول في تلك الأقوال التي ذكرها القاري يحسن بي إعطاء بعض التصورات اللغوية عن الاسم، والمسمى، والتسمية، لأن معرفة هذه الأمور الثلاثة والفرق بينها، سوف يكون فيها تصور للمسألة، ومن ثم يكون الحكم عليها، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وقد سبق لنا الكلام على معنى الاسم في اللغة بأنه اللفظ الدال على المسمى .

وأما المسمى: فهو الشيء الموجود في الأعيان أو الأذهان [(١)].

وأما التسمية: فهي عبارة عن فعل المُسمِّي ووضعه الاسم للمُسمَّى، كما أن التحلية عبارة عن فعل المُحلى ووضعه الحلية للتحلية [(٢)].

فالتسمية: مصدر سمَّى "يُسمى" "تسميةً"، فالتسمية نطق بالاسم وتكلُّمٌ به، وليست هي الاسم نفسه، وأسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها وليست هي أعيان الأشياء [(٣)].

فهنا ثلاث حقائق: اسم ومسمى وتسمية، كحلية ومحلى وتحلية، وعلامة ومعلم وتعليم . ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقها وإذا جعلت الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة ولا بد [(٤)].

---

(١) انظر: نتائج الفكر للسهيلي (٣٩)، وبدائع الفوائد (١/١٦) .

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٧) .

(٣) فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية (٦/١٩٥) .

(٤) بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٧) .

إذن فالاسم في أصل الوضع ليس هو المسمى وما قال نحـوي قـط ولا عربيّ إن الاسم هو المسمى. فالعرب يقولون مسمى هذا الاسم كذا ولا يقـول أحد اسم هذا الاسم كذا، ويقولون: هذا الرجل مسمى بزيد، ولا يقولـون: هذا الرجل اسمُ زيدٍ، ويقولون باسم الله، ولا يقولون: بمسمى الله [(١)].

ولكن هاهنا تنبيه نبه عليه فارس المعقول والمنقول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو: (أن الاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب، وقد يراد به مجـرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى، فإنه من الكلام، و"الكلام" اسم للفظ والمعـنى وقد يراد به أحدهما) [(٢)].

فعلى هذا فالاسم تارة يراد به المسمى، وتارة يراد به اللفظ الدال عليـه، وهذا ما أوضحه شمس الدين ابن قيم الجوزية .

حيث قال: (... الاسم يُراد به المسمى تارة، ويراد به اللفـظ الـدال عليه أخـرى.

فإذا قلت: قال الله كذا، واستوى الله على عرشـه، وسمـع الله، ورأى وخلق، فهذا المراد به المسمى نفسُه .

وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحمن من أسمـاء الله، والرحمن وزنُه فعلان، والرحمن مشتق من الرحمة ونحو ذلـك، فالاسـم هنـا للمسمى ...) [(٣)].

---

(١) المصدر السابق (١/١٦-١٧) .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام (٦/٢٠٩-٢١٠) .

(٣) شفاء العليل (٢/٢٧٧). وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (١/١٠٢).

وبعد بيان هذه الحقائق الثلاثة: الاسم، والمسمى، والتسمية.. أقول: إن مسألة "الاسم والمسمى" هل هو هو؟ أو غيره؟، أو لا يقال: هو هو، ولا يقال: هو غيره... ونحو ذلك من المسائل المحدثة التي أحدثها علماء الكلام، ولم تكن معروفة في عهد السلف الأوائل[١]، بل إن النزاع فيها اشتهر بعد الأئمة بعد أحمد وغيره [٢]، ولهذا يقول الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: (حدث في دهرنا هذا حماقات خاض فيها أهل الجهل والغباء، ونوكى[٣] الأمة والرعاع[٤]، يتعب إحصاؤها، يمل تعدادها فيها القول في اسم الشيء أهو هو؟ أم غيره؟) [٥].

وقال في موضع آخر: (وأما القول في الاسم أهو المسمى أم غير المسمى؟، فإنه من الحماقات الحادثة، التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرء من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قول الصادق ﷻ: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ

---

(١) ولهذا يقول شيخ الإسلام إبراهيم الحربي لما سئل عن الاسم والمسمى قال: (لي مذ أجالس أهل العلم سبعون سنة، ما سمعت أحداً منهم يتكلم في الاسم والمسمى).
انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٣٥٩) .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/١٨٥) .

(٣) نوكي : قال الجوهري: النُوكُ بالضم: الحمقُ. قال قيس بن الخطيم: وداءُ النوكِ ليس له دواءٌ، والنوَاكةُ: الحماقة، ورجل أنوك ومستنوك أي أحمق .
الصحاح (٤/١٦١٢)، وانظر: لسان العرب لابن منظور (١٠/٥٠١) .

(٤) الرعاع: الأحداث الطغام . انظر: الصحاح (٣/١٢٢٠)، وقال ابن منظور: الرعاع: الأحداث، رعاع الناس: سُقّاطهم وسَفِلتهم. لسان العرب (٨/١٢٨).

(٥) صريح السنة (١٧-١٨) .

أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[(١)]، وقولـــه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[(٢)]...)[(٣)].

ولكن البحث في هذه المسألة لم يتوقف، بل كثرت أقوال الناس فيـــها وهذا مما اضطر علماء أهل السنة للخوض في هذه المسألة، وبيان الحـــق فيـــها والرد على الأقوال المخالفة لهذا الحق.

وسبب حدوث هذه المسألة (أن الجهمية قالوا: إن الاسم غير المســـمى وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، وهؤلاء هم الذين ذمهم الســـلف وغلظوا فيهم القول، لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، بل هـــو المتكلم به، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء)[(٤)].

والقاري تكلم على مسألة "الاسم والمسمى"، وذكر أقوال أهل العلـــم في هذه المسألة، ولكنه لم يستوف هذه الأقوال، كما سبق التنبيه على ذلـــك؛ لأن ثمة أقوالاً أخرى لم يوردها أهمها "أن الاسم للمسمى" وهو ما عليه أكثر أهـــل السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره[(٥)]، وهو الذي دلت عليه النصوص كمـــا سيأتي -بمشيئة الله- .

---

(١) سورة الإسراء، آية (١١٠) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٣) صريح السنة (٢٦-٢٧) .
وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/١٨٥-١٨٦).

(٤) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/١٨٦)، وانظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/٢٢٤) .

(٥) انظر: الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/١٨٧) .

وهذه الأقوال التي ذكرها القاري هي :

القول الأول : (أن الاسم عين المسمى والتسمية)[(١)].

وقد استبعد القاري هذا القول فقال عنه (وهو بعيد جداً) . وهو كما قال لأن ثمة فرقاً بين الاسم والمسمى والتسمية كما مر معنا[(٢)].

القول الثاني : (أنه غيرهما وهو المنقول عن الجهمية[(٣)] والكرامية[(٤)] والمعتزلة، وقال ابن جماعة وهو الحق ولعله نظر إلى ظهور الفرق في الاستعمالات اللغوية ...)[(٥)].

فالقاري هنا يظهر من كلامه الذي وجه به قول ابن جماعة، أنه لم يرتضي قول الجهمية والكرامية والمعتزلة، ولهذا قال عن قول ابن جماعة (وهو الحق) (لعله نظر إلى ظهور الفرق في الاستعمالات اللغوية) .

---

(١) انظر: شرح ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي (٤٧)، ومرقاة المفاتيح (٤/١) .

(٢) انظر: (٣٣٠) .

(٣) هم أتباع جهم بن صفوان القائل بالجبر، وبأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وان الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل به فقط، قتل بمرو، قتله "سلم بن أحوز المازني" في آخر ملك بني أمية. انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري (٢٧٩-٢٨٠)، والفَرْق بين الفِرَق (١٩٩-٢٠٠).

(٤) هم أتباع محمد بن كرام، والكرامية إحدى فرق المرجئة، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأن المنافقين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ مؤمنين على الحقيقة. انظر: مقالات الإسلاميين (١٤١)، الفرق بين الفرق (٢٠٢) وما بعدها، والملل والنحل للشهرستاني (١٢٤/١) وما بعدها .

(٥) شرح ضوء المعالي على منظومه بدء الأمالي (٤٧)، ومرقاة المفاتيح (٤/١) .

وهذا التوجيه من القاري وجيه، لأن ثمة فرقاً بين الاسم والمسمى في لغة العرب كما مر معنا .

ولكن كان على القاري أن يرد هذا القول كما هو شأن سلفنا الصالح تُجاه هذا القول، ولهذا يروى عن الشافعي[(١)] والأصمعي[(٢)] وغيرهما أنه قال: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى فأشهد عليه بالزندقة[(٣)]، أو يستفصل عن قولهم (الاسم غير المسمى) لأن كلمة (غير) كلمة حق يُراد بها باطل، فهؤلاء الجهمية والمعتزلة ومن سار على شاكلتهم استغلوا الفرق بين الاسم والمسمى في لغة العرب، فعبروا بلفظ (غير) فقالوا: (الاسم غير المسمى) وهذا الكلام منهم يرمون به إلى شيء وهو أن أسماء الله ﷻ مخلوقة، ولهذا منع أهل السنة والجماعة القول بأن (الاسم غير المسمى) لما في لفظ (الغير) من الإجمال فهو يحتمل وجهين :

أحدهما: حق، والآخر: باطل .

---

(١) هو الإمام عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبدالله محمد بن إدريس ابن العباس بن عثمان بن شافع القرشي، المطّلبي، المكي، الفزّي. ولد بغزة عام (١٥٠هـ)، ومات سنة (٢٠٤هـ).

انظر: البداية والنهاية (١٠/٢١٠-٢١٣)، والسير (١٠/٥-٩٩) .

(٢) هو الإمام الحافظ، حجة الأدب، لسان العرب، أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن علي ابن أصمع الباهلي، من أهل البصرة، ولد سنة بضع وعشرين ومائة، ومات سنة (٢١٥هـ)، كان الإمام أحمد بن حنبل يثني على الأصمعي في السنّة .

انظر: الأنساب للسمعاني (١/١٢٣)، والسير (١٠/١٧٥-١٨١) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/١٨٧)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/٢١١-٢١٢) .

أما الوجه الحق: فهو متعلق بالجانب اللغوي الذي يفرق بين الاسم والمسمى، فإن كان مرادهم بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فهذا حقٌ؛ لأن الأسماء التي هي الأقوال ليست نفسها هي المسميات وهذا لا ينازع فيه أحد من العقلاء [١].

وأما الوجه الباطل: وهو غاية قول -الجهمية- أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، وهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى، ولذلك قالوا:

الاسم غير المسمى فأسماء الله غيره وما كان غيره فهو مخلوق [٢].

وهذا من أبطل الباطل، ومن أجل هذا المقصد الفاسد عند هؤلاء الجهمية والمعتزلة ومن سار على شاكلتهم منع أهل السنة القول بأن الاسم غير المسمى دفعاً للباطل الذي أراده هؤلاء .

القول الثالث : (أنه عين المسمى وغير التسمية ......).

وهذا القول هو الذي يذهب إليه القاري، ولهذا يقول في شرحه على منظومة بدء الأمالي :

(وليس الاسم غير المسمى   لد أهل البصيرة خير آل

قال: "البصيرة" نور في القلب يدرك به الأشياء، والمراد بأهلها أهل السنة .... والمعنى ليس الاسم غير المسمى عند أهل السنة بل هو عينه كما

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية (٦/٢٠٣) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/١٠٢) .

قال شارحوه، فلو قال -يقصد الناظم- إن الاسم عين للمسمى لكان أظهر وأسمى، ثم ذكر الخلاف في المسألة، وذكر قول من يقول إن الاسم عين للمسمى، ثم قال: (ودليله قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[(١)]...)[(٢)].

فاستدلال القاري بهذه الآية على أن الاسم عين المسمى مما يؤيد ما ذكرنا عنه من أنه يرى أن الاسم عين المسمى، ولهذا لما ذكر هذا القول قال: ودليله و لم يقل واستدلوا بكذا ... وفرق بين العبارتين .

فالقاري يرى أن الاسم عين المسمى، وهذا الذي ذهب إليه القاري هو قول للأشاعرة والماتريدية، وهذا القول مما أنكره جمهور الناس من أهل السنة وغيرهم[(٣)]. حتى بعض كبار الأشاعرة كالغزالي والرازي .

فالغزالي يقول: (والحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى، وأن هذه الثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة)[(٤)].

وقال الرازي: (والمشهور من قول أصحابنا رحمهم الله تعالى أن الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة إنه غير التسمية وغير المسمى، واختيار الشيخ الغزالي أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متباينة، وهو الحق عندي)[(٥)].

---

(١) سورة الأعلى، آية (١) .

(٢) شرح ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي (٤٧) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩١/٦) .

(٤) المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (٢٨) .

(٥) لوامع البينات (٢١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض رده على من يقول الاسم عين المسمى ... قال: (... لو اقتصروا على أن أسماء الشيء إذا ذكرت في الكلام فالمراد بها المسميات -كما ذكروه في قوله تعالى: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ ﴾ [(١)] ونحو ذلك- لكان ذلك معنى واضحاً لا ينازعه فيه من فهمه، لكن لم يقتصروا على ذلك، ولهذا أنكر قولهم جمهور الناس من أهل السنة وغيرهم، لما في قولهم من الأمور الباطلة مثل دعواهم أن لفظ اسم الذي هو (أ - س - م) معناه ذات الشيء ونفسه، وأن الأسماء -التي هي الأسماء- مثل زيد وعمرو، هي التسميات ليست هي أسماء المسميات وكلاهما باطل مخالف لما يعلمه جميع الناس من جميع الأمم ولما يقولونه .

فإنهم يقولون : إن زيداً وعمراً ونحو ذلك هي أسماء الناس، والتسمية جعل الشيء اسماً لغيره هي مصدر سميته إذا جعلت له اسماً .

و(الاسم) هو القول الدال على المسمى، ليس الاسم الذي هو لفظ اسم هو المسمى، بل قد يراد به المسمى، لأنه حكم عليه ودليل عليه .

وأيضاً : فهم تكلفوا هذا التكليف، ليقولوا إن اسم الله غير مخلوق ومرادهم أن الله غير مخلوق، وهذا مما لا تنازع فيه الجهمية والمعتزلة، فإن أولئك ما قالوا الأسماء مخلوقة إلا لما قال هؤلاء هي التسميات فوافقوا الجهمية والمعتزلة في المعنى، ووافقوا أهل السنة في اللفظ .

ولكن أرادوا به ما لم يسبقهم أحد إلى القول به من أن لفظ اسم وهو (ألف سين ميم) معناه إذا أطلق هو الذات المسماة، بل معنى هذا اللفظ هي

---

(١) سورة مريم، آية (١٢) .

الأقوال التي هي أسماء الأشياء، مثل: زيد، وعمرو، وعالم، وجاهل، فلفظ الاسم لا يدل على أن هذه الأسماء هي مسماه)[١].

فالقول بأن الاسم عين المسماة غلط، لأن العرب تفرق بين الاسم والمسمى وهؤلاء يقولون باتحاد الاسم والمسمى[٢].

وأما استدلاله بقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[٣]، فهذا في الحقيقة حجة عليه لا له، لأن النبي ﷺ امتثل هذا الأمر وقال: « سبحان ربي الأعلى »، ولو كان الاسم عين المسمى كما زعموا لقال: (سبحان اسم ربي الأعلى)، ثم إن الأمة كلهم لا يجوز أحد منهم أن يقول عبدت اسم ربي، ولا سجدت لاسم ربي، ولا ركعت لاسم ربي، ولا باسم ربي ارحمني، وهذا يدل على أن الأشياء متعلقة بالمسمى لا باسم[٤].

وللناس في (الاسم) المذكور في هذه الآية وما شابهها قولان معروفان وكلاهما حجة على من قال بأن الاسم عين المسمى[٥].

القول الأول :

من قال إن "الاسم" هنا صلة والمراد سبح ربك، وإذا قيل صلة فهو زائد لا معنى له، فيبطل قولهم أن مدلول لفظ اسم (ألف سين ميم) هو

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٦/١٩١-١٩٢) .

(٢) انظر: (٣٣٠) .

(٣) سورة الأعلى، آية (١) .

(٤) انظر: بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١/١٨) .

(٥) فتاوى شيخ الإسلام (٦/١٩٨) .

المسمى، فإنه لو كان له مدلول مراد لم يكن صلةً. ومن قال إنه هو المسمى وأنه صلة، فقد تناقض فإن الذي يقول هو صلة لا يجعل له معنى، كما يقوله من يقول ذلك في الحروف الزائدة التي تجئ للتوكيد كقوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[1]، وقوله ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾[2]، ونحو ذلك.

والقول الثاني :

إنه ليس بصلةٍ، بل المراد تسبيح الاسم نفسه، فهذا مناقض لقولهم مناقضة ظاهرة.

والتحقيق: أنه ليس بصلة، بل أمر الله بتسبيح اسمه، كما أمر بذكر اسمه، والمقصود بتسبيحه وذكره هو تسبيح المسمى وذكره فإن المسبح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه، فيقول: سبحان ربي الأعلى، فهو نطق بلفظ (ربي الأعلى)، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى. فمن يقول: سبحان الله، وسبحان ربنا. إنما نطق بالاسم الذي هو الله، والاسم الذي هو ربنا، فتسبيحه إنما وقع على الاسم، لكن مراده هو المسمى، فهذا يبين أنه ينطق باسم المسمى، والمراد المسمى، لكن هذا لا يدل على أن لفظ اسم الذي هو (ألف سين ميم) المراد به المسمى[3].

وبهذا الإيضاح يبطل استدلال القاري على أن الاسم عين المسمى.

وثـمّة أدلة أخرى استدل بها من يقول بأن الاسم عين المسمى، ضربت

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٥٩) .

(٢) سورة المؤمنون، آية (٤٠) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٦/١٩٨-٢٠١) .

صفحاً عن ذكرها مخافة الإطالة، ولأن القاري لم يذكرها، ومن أراد الاطلاع على هذه الأدلة والرد عليها فعليه بقاعدة في الاسم والمسمى لشيخ الإسلام ابن تيمية[(١)]، وبدائع الفوائد لتلميذه ابن قيم الجوزية[(٢)].

والقول الحق في هذه المسألة :

أن الاسم للمسمى وهو دليل وعلم عليه .

وهذا القول هو قول أكثر أهل السنة وفي مقدمتهم الإمام المبجّل إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، وتبعه على ذلك ابن جرير الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا القول موافق للكتاب العزيز والسنة الصحيحة:

قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [(٣)].

وقال تعالى ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [(٤)].

وقال تعالى ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [(٥)].

وقال النبي ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً » [(٦)].

وقال ﷺ : « لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي

---

(١) انظر: الفتاوى (٦/١٩٠-٢٠١) .

(٢) انظر: بدائع الفوائد (١/١٨-٢٢) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٤) سورة الإسراء، آية (١١٠) .

(٥) سورة الحشر، آية (٢٤) .

(٦) يأتي تخريجه بمشيئة الله قريباً. انظر: (٣٤٥).

يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب »[١].

فهذه النصوص تدل على أن الاسم للمسمى ودليل عليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (وأما الذين يقولون "الاسم للمسمى" كما يقوله أكثر أهل السنة فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنة والمعقول)[٢].

وأصحاب هذا القول إذا قيل لهم: هل الاسم هو المسمى أو غيره؟.

أجابوا بجوابين :

الأول : أن هذه المسألة حادثة لم ترد في الكتاب والسنة، ولم ترد عن السلف الصالح، ولهذا كان يشق على الإمام أحمد الكلام في الاسم والمسمى، ويقول: هذا كلام محدث، ولا يقول إن الاسم غير المسمى ولا هو هو ولكن يقول: إن الاسم للمسمى[٣].

والثاني : أن هذا السؤال فيه إجمال، ولا بد من الاستفصال، فيقال:

(الاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٢/٥١٢-٥١٣/رقم٣٥٣٢).

ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (٤/١٨٢٨/رقم٢٣٥٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٢٠٦-٢٠٧) .

(٣) انظر: طبقات الحنابلة لأبي يعلى (٢/٢٧٠) .

وإذا قلت: الله: اسم عربي، والرحمن: اسم عربي، والرحمن من أسماء الله تعالى، ونحو ذلك. فالاسم هنا للمسمى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال، فإذا أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق .

وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى) [1].

* * * * * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢/١٠٢). وانظر أيضاً: شفاء العليل لابن قيم الجوزية (٢/٢٧٧) .

المبحث الثاني : هل أسماء الله ﷻ توقيفية أم اجتهاديـــة ؟ .

وفيه مطلبـــــان :

- المطلب الأول: رأي القاري في أسماء الله ﷻ هل هي توقيفية أم لا ؟ .
- المطلب الثاني: عرض رأي القاري على منهج السلف .

* *　　* *　　* *

المطلب الأول : رأي القاري في أسماء الله ﷻ هل هي توقيفيـــة أم لا؟

قال القاري رحمه الله عند شرحه لحديث (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) [١].

قوله "مائة إلا واحداً" قال: (فائدته -أي فائدة مجيء هـــذه الكلمـــة- التأكيد والمبالغة في المنع عن الزيادة والنقصان، لأن أسماء الله توقيفية ...) [٢].

وقال أيضاً: (قال في المعـــالم [٣] عنـــد قولـــه تعـــالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ﴾ [٤]: الإلحاد في أسمائه تعالى تســـميته بمـــا لم ينطـــق به كتاب ولا سنـــة) [٥].

وقال أيضاً ناقلاً عن القشيري [٦]: (قال أبو القاسم القشيري رحمـــه الله أسماء الله توجد توقيفاً ويراعى فيها الكتاب والسنة، والإجماع، فكل اســـم ورد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اســـم إلا واحـــدة (٤/٣٨٢/ رقم٧٣٩٢). ومسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل مـــن أحصاها (٤/٢٠٦٢/ رقم ٢٦٧٧).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/٧٢-٧٣). وانظر: (٣/١٤٠) .

(٣) انظر: تفسير البغوي المسمى معالم التنـــزيل (٢/٢١٨) .

(٤) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٥) مرقاة المفاتيح (٥/٧٣) .

(٦) هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيري الخرساني، أبو القاسم، ولد ســـنة (٣٧٦هــ)، من مصنفاته: "الرسالة"، و"التفسير الكبير". توفي سنة (٤٦٥هــ).

انظر: تاريخ بغداد (١١/٨٣)، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجـــوزي (١٦/١٤٨-١٤٩)، وطبقات الأولياء لابن الملقن (١٩٨-٢٠٠) .

في هذه الأصول وجب إطلاقه في وصفه تعالى، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه في وصفه تعالى وإن صح معناه)[١].

وقال أيضاً عند شرحه لحديث أبي سعيد ﷺ قال: « كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك ... »[٢] الحديث .

(قوله « وتبارك اسمك » أي: تكاثر خيره فضلاً عن مسماه، أو تعاظم اسمك عن أن يلحد فيه، أو يخترع لك من غير توقيف منك إذ لا يعلم اللائق بك من الأسماء إلا أنت)[٣].

* * * * * *

المطلب الثاني : عرض رأي القاري على منهج السلف .

يتبين لنا من خلال كلام القاري السابق كما في المطلب الأول، وما نقله عن أهل العلم أنه يرى أن أسماء الله ﷻ توقيفية لا مجال للعقل فيها، وأن من سمى الله ﷻ بما لم يسم به نفسه فقد الحد في أسماء الله ﷻ وهذا الذي قرره

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/٧٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه في أبواب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢/٩-١٠/ رقم٢٤٢). والنسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب الذكر والدعاء بين التكبير والقراء (٢/١٣٢/ رقم٨٩٩). وأبو داود في سننه كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك "اللهم وبحمدك" (/٤٩٠/ رقم٧٧٠). وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب افتتاح الصلاة (١/٢٦٤/ رقم٨٠٧).

والحديث صححه أحمد شاكر كما في تحقيقه لسنن الترمذي (٢/١١)، والألباني كما في الإرواء (٢/٥١) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/١٤٠) .

القاري وما نقله عن أهل العلم في حق أسماء الله ﷻ هو الحق الذي عليه علماء أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة يثبتون من أسماء الله ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو أثبته له رسوله ﷺ ، لا يتجاوزون الكتاب والسنة، فلا مجال للعقل في أسماء الله ﷻ؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه ﷻ من الأسماء الحسنى، فوجب الوقوف في ذلك على الكتاب والسنة .

وقد دل كتاب الله ﷻ وسنة النبي ﷺ وكلام أئمة السنة على أن أسماء الله توقيفية :

الأول : الأدلة من كتاب الله ﷻ على أن أسماء الله توقيفية .

١ - قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾[1]، وتسمية الله ﷻ بما لم يسم به نفسه قفوٌ على الله بلا علم .

٢ - وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2]، فتسمية الله ﷻ بما لم يسم به نفسه أو إنكار ما سمى به نفسه تقولٌ على الله بما لا علم للمرء به. فوجب على المرء المسلم أن يسلك الأدب في أسماء الله ﷻ وصفاته وأن يقتصر على ما جاء به النص .

قال ابن سعدي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ : (في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه، فكل هذه قد

---

(١) سورة الإسراء، آية (٣٦) .

(٢) سورة الأعراف، آية (٣٣) .

حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه)[(١)].

الثاني : الأدلة من السنة على أن أسماء الله ﷻ توقيفية .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول: « اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[(٢)].

قال شيخنا ابن عثيمين[(٣)] في قوله « لا أحصي ثناءً عليك .. » :

(إن التسمية بالأسماء من الثناء، فلا يمكن أن ندرك ما يستحقه الله ﷻ من الأسماء، فوجب علينا أن نتوقف فيما لم يرد به النص) أهـ .

٢ - وحديث « ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٢٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/٣٥٢/ رقم٤٨٦).

(٣) هو شيخنا أبو عبدالله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهبي التميمي، العلامة، المفسر، الفقيه، الأصولي، النحوي، الفرضي، مفتي الأنام، كان آية في العلم ونشره وبذله بين الناس بعامة وطلاب العلم بخاصة. ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (١٣٤٧هـ) في مدينة عنيزة، وتوفي في مساء يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام (١٤٢١هـ). من مصنفاته: "شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية"، و"القواعد المثلى في صفات الله وأسماء الحسنى"، و"الأصول من علم الأصول" .

بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك .... »[١].

فهذا الحديث فيه دلالة صريحة على أن أسماء الله ﷻ ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم[٢]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن أسماء الله ﷻ توقيفية.

قوله: « أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك ».

هذا ليس قسيماً لما سمى به نفسه، بل هو تقسيم وتفصيل لما سمى به نفسه، فـ(أو) في قوله « أو علمته أحداً من خلقك » حرف عطف، والمعطوف بها -في هذا السياق- أخص مما قبله، فيكون هذا من باب عطف الخاص على العام، لأن ما سمى الله به نفسه يتناول جميع الأنواع المذكورة، فوجه الكلام أن يقال: (سميت به نفسك فأعلمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك)[٣].

الثالث : أقوال أئمة السنة في ذلك .

١ - قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله :

(اعلم أن أسماء الله تعالى التوقيف[٤]، فإنه يُسمى جواداً ولا يسمى سخياً وإن كان في معنى الجود، ويُسمى رحيماً ولا يُسمى رقيقاً، ويسمى عالماً ولا يُسمى عاقلاً، وعلى هذا لا يقال: يا خادع، يا مكار. وإن ورد في

(١) يأتي تخريجه قريباً إن شاء الله (٣٥٣) .

(٢) شفاء العليل لابن قيم الجوزية (٢/٢٧٦) .

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/٢٧٦) بتصرف .

(٤) هكذا في المطبوع، ولعلها "توقيفية" .

القرآن ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾[١]، ﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ ﴾[٢]، لكن لما لم يرد الشرع بتسميته به لم يجز ذلك له)[٣].

٢ – وقال قوام السنة الأصبهاني[٤] رحمه الله :

(... فلا يسمى -أي الله جل وعلا- إلا بما سمى به نفسه في كتابه، أو سماه به رسوله ﷺ وأجمعت عليه الأمة أو أجمعت الأمة على تسميته به، ولا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ أو أجمع عليه المسلمون، فمن وصفه بغير ذلك فهو ضال)[٥].

٣ – قال الإمام ابن أبي زمنين[٦] في كتابه "أصول السنة" : (باب في الإيمان بصفات الله وأسمائه): (قال محمد: واعلم أن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يُخبر به تبارك وتعالى عن نفسه علماً،

---

(١) سورة النساء، آية (١٤٢) .

(٢) سورة الأنفال، آية (٣٠) .

(٣) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٢/٢٣٥).

(٤) هو الحافظ الكبير شيخ الإسلام، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي التيمي الأصبهاني، الملقب بقوام السنة، ولد سنة (٤٥٧هـ)، قال عنه يحيى بن منده: كان حسن الاعتقاد جميل الطريقة قليل الكلام ليس في وقته مثله. أهـ. مات يوم الأضحى سنة (٥٣٥هـ). من مصنفاته: "الترغيب والترهيب"، و"الحجة في بيان المحجة" .

انظر: تذكرة الحفاظ (٤/١٢٧٧-١٢٨٢) .

(٥) الحجة في بيان المحجة (٢/٣٨٣) .

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى بن محمد المُرِّي الأندلسي الألبيري شيخ قرطبة، ولد سنة (٣٢٤هـ)، وتوفي في ربيع الآخر سنة (٣٩٩هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٧/١٨٨-١٨٩)، وتذكرة الحفاظ (٣/١٠٢٩).

والعجز عمّا لم يدع إيماناً وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه، وعلى لسان نبيه ...) [١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (ثم القول الشامل في جميع هذا الباب -يعني باب الأسماء والصفات- أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث، قال الإمام أحمد ﷺ : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث) [٢].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى :

(... ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع) [٣].

* *　　* *　　* *

(١) أصول السنة لابن أبي زمنين (٦٠) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٥/٢٦) .

(٣) بدائع الفوائد (١/١٦٢) .

المبحث الثالث: أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين.

المطلب الأول: رأي القاري في: هل أسماء الله ﷻ محصورة في عدد معين أم لا؟

قال القاري عند شرحه لحديث: « إن لله تسعة وتسعين اسماً ... »[١]:

(قوله « تسعة وتسعين » لا يدل على الحصر إذ ثبت في الكتاب: الرب، المولى، النصير ...)[٢].

وقال أيضاً في قوله ﷺ « من أحصاها »: (قيل من أحصاها صفة لها فلا يدل على الحصر، مثل لفلان ألف شاة أعدها للاضياف، فلا يدل على أنه لا يملك غيرها)[٣].

* * * * * *

المطلب الثاني: عرض رأي القاري على منهج السلف.

يتبين لنا من خلال هذين النصين اللذين نقلتهما من كلام القاري أنه يرى أن أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين، وهذا هو الحق الذي يجب اعتقاده خلافاً لما قرره أبو محمد بن حزم[٤] حيث زعم أنها تسعة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مرقاة المفاتيح (٧٣/٥).

(٣) المصدر السابق (٧٣/٥).

(٤) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أبو محمد الأندلسي، القرطبي اليزيدي الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، صاحب التصانيف، ولد بقرطبة سنة (٣٨٤هـ)، ومات سنة (٤٥٠هـ).
=

وتسعون اسماً فقط، ونفى أن يكون ثمة اسم زائد على التسعة والتسعين، وهذا الكلام الذي زعمه ابن حزم خلاف الحق الذي يجب اعتقاده [١].

فأسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين، وهذا ما عليه جمهور العلماء[٢] وهو الذي يرجحه القاري كما مر معنا، ومما يدل عليه رجحان هذا القول: قوله ﷺ « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً ... »[٣].

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن أحداً حصره ولا الإحاطة به[٤].

= من مصنفاته: "المحلى"، و"الفصل في الملل والأهواء والنحل".

انظر: السير (١٨/١٨٤-٢١٢).

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢/٤٨٢-٤٨٦)، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني (١١/٢٢٤).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/٣٣٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (١/٣٩١، ٤٥٢)، والحاكم في المستدرك في كتاب الدعاء (١/٥٠٩)، وصححه ابن حبان كما في موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (٥٨٩) رقم (٢٣٧٢)، وصححه الألباني . انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٣٣٦-٣٤١/ رقم١٩٩) .

(٤) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لشيخنا ابن عثيمين (١٤) .

فدل هذا الحديث على أن لله أسماء لا يعلمها أحد من خلقه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهم .

ولذا يقول الخطابي رحمه الله : (فهذا يدلك على أن لله أسماء لم ينزلها في كتابه، حجبها عن خلقه ولم يظهرها لهم)[١].

ومما يدل على أن أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين حديث الشفاعة وفيه « ... فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ﷻ ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ... »[٢] الحديث.

فقوله « ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه ... » هذا لا يكون إلا بما له ﷻ من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي بها يمدح كما قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[٣]، وقوله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[٤] أي: الوصف الأكمل الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه .

فقوله « لم يفتح على أحد من قبلي » هذا مما يدل على أن أسمائه ﷻ ليست محصورة بعدد معين .

قال الإمام النووي رحمه الله : (واتفق العلماء على أن هذا الحديث -يعني حديث أبي هريرة ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً...»- ليس فيه حصر

---

(١) شأن الدعاء (٢٤-٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (٣/٢٥٠-٢٥١/ رقم٤٧١٢). ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/١٨٤-١٨٦/ رقم١٩٤).

(٣) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٤) سورة النحل، آية (٦٠) .

لأسمائه ﷻ ، فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ...) [(١)].

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : (إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل ...) [(٢)].

وما قرره ابن قيم الجوزية هنا من أن أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد هو ما قرره شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية[(٣)] رحمه الله.

* * * * * *

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي (٨/١٧) .

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم (١٦٦/١). وانظر: شفاء العليل (٢٧٨/٢) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٤٨٢/٢٢-٤٨٦) .

المبحث الرابع : حقيقة الإلحاد في أسمـــاء الله ﷻ .

وفيه مطلبـــــان :

- المطلب الأول: رأي القاري في حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

- المطلب الثاني: عرض رأي القاري على منهج السلف .

* * * * * *

المطلب الأول: رأي القاري في حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

قال القاري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] :

(﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ هي أحسن أسماء المباني لأنها دالة على معاني هي أحسن المعاني)[2].

وقال أيضاً في قوله تعالى ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ... ﴾ :

(أي: اتركوا الذين يزيغون، ويميلون عن الحق إلى الباطل في أسمائه، أي: من جهة مبانيها وطريقة معانيها، ومن جملتها اشتقاق أسماء الآلهة منها كاللات والعزى ومناة ونحوها .

وقيل: الإلحاد فيها تسميته بما لم يرد في الكتاب والسنة إطلاقها، كيا سخي، ويا مكار، ويا عقل)[3].

* * * * * *

المطلب الثاني : عرض رأي القاري على منهج السلف .

يتبين لنا من خلال كلام القاري السابق الذي نقلته عنه أنه تضمن ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : في معنى الإلحاد .

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٣/ب) .

(٣) المصدر السابق رقم اللوح (٢٧٣/ب، ٢٧٤/أ) .

المسألة الثانية : أن أسماء الله ﷻ لها معانٍ وليست أعلاماً محضة .

المسألة الثالثة : أن الإلحاد في أسماء الله أنواع .

وسيكون مناقشة القاري من خلال هذه المسائل .

* *　　* *　　* *

المسألة الأولى : معنى الإلحاد .

الإلحاد لغة: الميل، ومنه اللحد في القبر، وهو الشق في جانب القبر[1].

والإلحاد في لغة العرب له عدة معان، فمن معاني "ألحد" مال، وعدل، وماری، وجادل، وفي الحرم: ترك القصد فيما أمر به، وأشرك به، أو ظلم، أو احتكر الطعام[2].

قال ابن فارس رحمه الله تعالى :

(لحد : اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة، يقال: ألحد الرجل إذا مال عن طريقةِ الحق والإيمان، وسمي اللحد لأنه مائل في أحد جانبي الجدث)[3].

إذاً نخلص من كلام أئمة اللغة أن من معاني الإلحاد هو الميل عن الحق،

---

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي (٤٠٤)، وتاج العروس للزبيدي (٥/٢٣٦-٢٣٧)، والمصباح المنير للفيومي (٢١٠)، والمفردات للراغب الأصفهاني (٤٥١-٤٥٢).

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي (٤٠٤)، وانظر: لسان العرب لابن منظور (٣/٣٨٨-٣٩٠)، والصحاح للجوهري (٢/٥٣٤) .

(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/٢٣٦). وانظر: الصحاح للجوهري (٢/٥٣٤)، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي (٢٤٧) .

وهذا ما قرره القاري في معنى الإلحاد .

أما تعريف الإلحاد في أسماء الله فهو: الميل والعدول بأسماء الله وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت فيها [(١)]، فمن سمى الله ﷻ بما لم يسم به نفسه فقد ألحد في أسماء الله، لأن الواجب الاقتصار على ما ورد به النص، لأن أسماء الله توقيفية كما مر معنا، ومن أثبت الأسماء دون ما تضمنته من الصفات فقد ألحد في أسماء الله ﷻ، لأن الواجب إثبات الأسماء مع ما تضمنته من الصفات -كما سيأتي بمشيئة الله في المسألة الثانية- .

* *　　* *　　* *

المسألة الثانية: أسماء الله ﷻ دالة على معانٍ .

القاري رحمه الله يرى أن أسماء الله ﷻ دالة على معانٍ هي أحسن المعاني خلافاً لما عليه أهل التعطيل[(٢)] الذين سلبوا الأسماء معانيها وحقائقها بلا برهان ولا حجة إلا أهواءً، وآراء فاسدة، لا تسمن ولا تغني من جوع، فأهل التعطيل لا يثبتون لله إلا أسماء مجردة عن المعاني، فيقولون: عليم بلا علم، سميع بلا سمع، ونحو ذلك. وإن أثبتوا لها معنى أولوها بالمعاني المجازية التي يعلم بالضرورة أن الله ورسوله ﷺ لم يريداها، بل أرادا غيرها. ويدخل في هؤلاء الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية في الصفات الفعلية الخبرية، فإن مسلكهم فيها

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١٦٩/١)، ومدارج السالكين (٣٩/١) .
وانظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية لابن سعدي (١٧٢).

(٢) التعطيل لغة: الإخلاء، يقال: جيد عطل، أي خال من الزينة، وأما معناه في هذا الباب: فهو جحد الصفات وإنكار قيامها بذاته ﷻ ونفي ما دلت عليه من صفات الكمال .
انظر: التنبيهات السنية لابن رشيد (٢٣) .

كمسلك الجهمية في الصفات الذاتيـــة [١].

فالقاري يثبت للأسماء معان هي أحسن المعاني، ولهذا قال في تفسيره عند قوله تعـالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[٢]: (﴿ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ تأنيث الأحسن، وفضل أسمائه تعالى على سائر الأسماء في الحسن لصياغتها على مبانٍ هي ألطف المباني، ولدلالتها على معانٍ هي أشرف المعاني)[٣].

وبهذا خالف أهل التعطيل، وإن كان قد وقع منه بعض التعطيل كمـــا في صفة العلو ونحوها، كما سيأتي -بمشيئة الله ﷻ[٤]- ، فمن نفى معاني أسماء الله الحسنى أو بعضها فقد وقع في الإلحاد كما قال تعالى ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٥].

فالحق أن أسماء الله ﷻ مشتملة على معانٍ وصفات تليق بجلاله وعظمتــه والأدلة الدالة على ذلك هي :

<u>الأول</u> : قـــال الله تعـــالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، فالله ﷻ في هذه الآيـــة وصف أسمائه بأنها حسنى، وحسنى على وزن "فُعْلَى" تـــأنيث "أفْعَـــل" وهـــو الأحسن، (فأسماء الله تعالى كلها حسنى، أي: بالغة في الحسن كماله، وذلـــك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه لا احتمـــالاً ولا

---

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافعية لابن سعدي (١٧٥-١٧٦).
(٢) سورة طه، آية (٨) .
(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (٨٣٨) .
(٤) في فصل الصفات .
(٥) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

تقديراً)[١].

فلو كانت أسماء الله ﷻ أعلاماً محضة لم يكن فرق بين الرحمن، والجبار، كيف وقد قال ﷺ في الحديث المعروف في السنن: يقول الله " أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته "[٢]، فإذا كانت الرحم مشتقة من اسم الرحمن امتنع أن يكون لا معنى فيه[٣]، فأسماء الله ﷻ ليست أعلام محضة، لأنها لو كانت كذلك لم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة، وبهت بين، فإن من جعل معنى اسم "القدير" هو معنى اسم "السميع، البصير" ومعنى اسم "التواب" هو معنى اسم "المنتقم" ومعنى اسم "المعطي" هو معنى اسم "المانع" فقد كابر العقل واللغة والفطرة[٤].

الثاني : قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٥]، وقال ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾[٦]، فالآية الثانية دلت على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة.

قال ابن القيم رحمه الله: (لو لم تدل أسماء الله ﷻ على معانٍ وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لشيخنا ابن عثيمين (٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٨/٣/ رقم١٦٥٩)، والحاكم في المستدرك (١٥٧/٤)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥٢/٥-٥٣) .

(٤) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٣٨/١) .

(٥) سورة يونس، آية (١٠٧) .

(٦) سورة الكهف، آية (٥٨) .

ٱلۡمَتِينُ ﴾ [(١)]، فعلم أن القوي من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة، وكذلك قوله ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [(٢)]، فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة لـه لم يسم قوياً ولا عزيزاً، وكذلـك قولـه ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ ﴾ [(٣)]، ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ ﴾ [(٤)]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ ﴾ [(٥)]، وفي الصحيح عـن النبي ﷺ « إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفـع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه نور، لـو كشـفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » [(٦)]، فأثبت المصـدر الذي اشتق منه اسم "البصـير") [(٧)].

الثالث : الله ﷻ أخبر عن نفسه بأفعال هذه الأسماء، فمن أسمائه السميع، كما قال تعالى ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [(٨)]، وأخبر عن نفسه بأنه يسمع كما قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ ﴾ [(٩)]، وكذلك من أسمائـه

---

(١) سورة الذاريات، آية (٥٨) .

(٢) سورة فاطر، آية (١٠) .

(٣) سورة النساء، آية (١٦٦) .

(٤) سورة هود، آية (١٤) .

(٥) سورة البقرة، آية (٢٥٥) .

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله ﷺ « إن الله لا ينـام » (١/١٦١-١٦٢/ رقم١٧٩).

(٧) مدارج السالكين لابن القيم (١/٣٧) .

(٨) سورة الشورى، آية (١١) .

(٩) سورة المجادلة، آية (١) .

العالم كما قال تعالى ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾[١]، وأخبر عن نفسه بأنه يعلم كما قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾[٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً .

فلو لم تكن أسماؤه مشتملة على معانٍ وصفاتٍ لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع، يعلم، يقدر، ونحو ذلك، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها [٣].

* * * * * *

المسألة الثالثة : الإلحاد في أسماء الله أنواع .

لقد ذكر القاري رحمه الله ثلاثة أنواع من أنواع الإلحاد في أسماء الله وهي:

١ – تسميته ﷻ بما لم يسم به نفسه .

٢ – اشتقاق أسماء الآلهة منها كاللات من الإله والعزى من العزيز ونحو ذلك .

٣ – أن يسم الله ﷻ بما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبا المكارم، وأبيض الوجه .

والقاري –رحمه الله– في ذكره لهذه الأنواع لا يريد الحصر، يدلنا على

---

(١) سورة الأنبياء، آية (٨١) .

(٢) سورة الأعلى، آية (٧) .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣٨/١) .

ذلك قوله (فمن جملتها ...) [١]، ثم ذكر هذه الأنواع الثلاثة. و"من" في قوله (فمن جملتها ...) تبعيضية، أي: بعض أنواع الإلحاد هي ... إلخ

وهذه الأنواع التي ذكرها القاري رحمه الله حقٌ، وجماع أنواع الإلحاد التي ذكرها أهل العلم من أهل التحقيق أربعة وهي :

١ - أن يسمي الله ﷻ بما لم يسم به نفسه [٢].

فمن سمى الله ﷻ بما لم يسم به نفسه فقد ألحد في أسماء الله ﷻ لأن أسماء الله ﷻ توقيفية -كما مر معنا[٣]- .

ولذا يقول الإمام البغوي[٤] رحمه الله تعالى : (قال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله تسميته بما لم يتسم به و لم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ) [٥] أهـ .

---

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٣/ب) .

(٢) انظر بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١٦٩/١)، وتيسير العزيز الحميد لشيخ سليمان (٦٤٥-٦٤٦)، والقواعد المثلى لشيخنا ابن عثيمين (١٧)، وتفسير القرآن العزيز لأبي المظفر السمعاني (٢٣٥/٢)، وتفسير البغوي (٢١٨/٢)، وزاد المسير لابن الجوزي (٢٩٣/٣)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠٨/٧)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣٥١/٢)، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٤٢٧/٤)، وفتح القدير للشوكاني (٢٦٨/٢).

(٣) انظر: (٣٤٦، ٣٥١) .

(٤) هو الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، أبو محمد الإمام العلامة القدوة الحافظ شيخ الإسلام محي السنة الشافعي المفسِّر، كان زاهداً، ورعاً، عالماً بالتفسير، والفقه. من مصنفاته: "معالم التنزيل"، و"شرح السنة". توفي سنة (٥١٦هـ). انظر: السير (٤٣٩/١٩-٤٤٢)، وشذرات الذهب (٤٨/٤-٤٩)، وطبقات المفسرين للداودي (١٦١/١-١٦٢).

(٥) معالم التنزيل للبغوي (٢١٨/٢)، وانظر: أنوار القرآن وأسرار الفرقان للقاري رقم اللوح (٢٧٣/ب) .

ومثال هذا النوع لتسمية الفلاسفة له بأنه العلة الفاعلة، وتسميته النصارى له بـ"الأب" ونحو ذلك .

٢ - اشتقاق أسماء الأوثان والأصنام من أسماء الله الحسنى [١].

ذلك لأن أسماء الله تعالى مختصة به لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[٢]، وقوله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[٣]، فكما اختص بالعبادة وبالألوهية فهو مختص بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله ﷻ ميل بها عما يجب فيها[٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « إلحاد الملحدين أن دعوا اللات من أسماء الله » [٥].

وقال مجاهد: (اشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا اللات من الله)[٦].

---

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل القرآن لابن جرير الطبري (١٣٣/٩)، وتفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٢٣٦/٢)، وتفسير البغوي (٢١٨/٢)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠٨/٧)، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٤٢٧/٤)، والنكت والعيون للماوردي (٢٨٢/٢)، وفتح القدير للشوكاني (٢٦٨/٢)، وتفسير ابن سعدي (١٢٢/٣)، وتفسير المراغي (١١٩/٩)، وأضواء البيان للشنقيطي (٣٠٣/٢)، ومدارج السالكين (٣٧/١)، وبدائع الفوائد لابن القيم (١٦٩/١-١٧٠)، وتيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله (٦٤٥)، والقواعد المثلى لشيخنا ابن عثيمين (١٧).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٣) سورة طه، آية (٨) .

(٤) انظر: القواعد المثلى لشيخنا ابن عثيمين (١٧) .

(٥) أخرجه عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣٣/٩) .

(٦) أخرجه عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣٣/٩) .

٣ - إنكار شيء من الأسماء الحسنى، أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام[١]. كما فعل أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم. وإنما كان ذلك إلحاداً لوجوب الإيمان بها وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله فإنكار شيء من ذلك ميل بها عما يجب فيها [٢].

فمن عطل الأسماء الحسنى عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم أنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع، والبصير، والحي، والرحيم، ونحو ذلك، ويقولون: لا حياة له ولا سمع له، ولا بصر له. فهذا القول من أعظم الإلحاد في أسماء الله الحسنى عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة.

وهذا النوع يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم -كما مر معنا في النوع الثاني- وهؤلاء المعطلة سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه، ثم هؤلاء الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي، والمتوسط، والمنكوب، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ فقد ألحد في صفات الله فليستقل أو ليستكثر [٣].

---

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة للموصلي (٣٤٢)، وبدائع الفوائد (١/١٦٩-١٧٠)، ومدارج السالكين (١/٣٩)، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٦٤٦)، والقواعد المثلى (١٦). وانظر أيضاً: تفسير ابن سعدي (٢/١٨٠-١٨١)، والتوضيح المبين لابن سعدي (١٧٥-١٧٦).

(٢) القواعد المثلى (١٦).

(٣) انظر: بدائع الفوائد (١/١٦٩-١٧٠).

٤ – تشبيه ما تضمنته أسماء الله الحسنى من الصفات بصفات خلقه[١].

كما فعل أهل التشبيه الذين شبهوا ما تضمنته أسماء الله الحسنى من الصفات بصفات خلقه.

وهذا الفعل منهم ميل بها إلى الباطل، ولأن النصوص لا يمكن أن تدل عليه، بل هي دالة على بطلانه كما قال تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[٢]، فمن شبه ما تضمنته أسماء الله الحسنى من الصفات بصفات خلقه فقد وقع في الشرك، وهذا من أنواع الإلحاد في أسماء الله، ولهذا فسر بعض الأئمة الإلحاد بالشرك.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾: (يشركون)[٣] وقال عطاء: (الإلحاد: المضاهاة)[٤].

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله ﷺ وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى بل أثبتوا له الأسماء والصفات،

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد (١/١٧٠)، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين لابن سعدي (١٧٣)، وتفسير ابن سعدي (٣/١٢٠-١٢٢)، والقواعد المثلى (١٧)، وتيسير العزيز الحميد (٦٤٦-٦٤٧).

(٢) سورة الشورى، آية (١١).

(٣) جامع البيان للطبري (٩/١٣٤).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٦١٦).

ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً، وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء [(١)].

* * * * * *

(١) بدائع الفوائد (١/١٧٠) .

المبحث الخامس : معنى الإحصاء الوارد في الحديث .

وفيه مطلبان :

- المطلب الأول: قول القاري في معنى الإحصاء .
- المطلب الثاني: عرض كلام القاري ومناقشته فيها .

* * * * * *

المطلب الأول: قول القاري في معنى الإحصاء .

قال القاري عند شرحه لحديث « إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » [1].

(قوله « من أحصاها » أي: من آمن بها، أو عدها وقرأها كلمة كلمة على طريق الترتيل تبركاً وإخلاصاً، أو حفظ مبانيها وعلم معانيها وتخلق بما فيها) [2].

وقال أيضاً : (« من أحصاها » أي: حفظها كما فسر به الأكثرون، ويؤيده الرواية الصحيحة « من حفظها دخل الجنة » [3] ذكره النووي[4].

ونقل القاري عن الطيبي أنه قال في معنى الإحصاء (أي حفظها كما ورد في بعض الروايات الصحيحة[5]، فإن الحفظ يحصل بالإحصاء وتكرار مجموعها، فالإحصاء كناية عن الحفظ، أو ضبطها حصراً وتعداداً وعلماً وإيماناً، أو إطاقتها بالقيام بما هو حقها والعمل بمقتضاها، وذلك بأن يعتبر معانيها فيطالب نفسه بما تتضمنه من صفات الربوبية وأحكام العبودية، فيتخلق بها. قال ابن الملك مثل أن يعلم أنه سميع بصير فكف لسانه وسمعه

---

(١) سبق تخريجه (٣٤٥) .

(٢) مرقاة المفاتيح (٧٢/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٠٦٣/٤/ رقم٢٦٧٧) .

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨/١٧) .

(٥) انظر: صحيح مسلم رقم الحديث (٢٦٧٧) .

عما لا يجوز وكذا في باقي الأسماء) [(١)] أهـ .

* *　　* *　　* *

المطلب الثاني : عرض كلام القاري ومناقشته فيها .

يتبين لنا من خلال كلام القاري السابق أنه نقل خلاف[(٢)] أهل العلم في المراد بالإحصاء الوارد في حديث أبي هريرة ﷺ دون ترجيح لأحد تلك الأقوال، وإن كان قد يقال بأن القاري يرجح أن المراد بالإحصاء "الحفظ"؛ لأنه نقل كلام النووي وكلام الطيبي، بأن المراد بالإحصاء "الحفظ"، وذكر استدلالهم بالرواية الصحيحة « من حفظها » بدل « أحصاها » ولم يعقب على هذا الاستدلال، بخلاف الأقوال الأخرى التي ذكرها فإنه سردها دون استدلال لها، وتفسير "الإحصاء" بالحفظ ليس هو معنى الإحصاء، بل هو معنى بعض الإحصاء، ولهذا نظّر الحافظ ابن حجر على تفسير من فسر الإحصاء: بالحفظ، فقال: (في هذا نظر؛ لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ "حفظها" تعيين السرد عن ظهر قلب، بل يحتمل الحفظ المعنوي) [(٣)].

إذن الحفظ يحتمل الحفظ الحسي الذي هو السرد عن ظهر قلب،

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/٧٣-٧٤) .

(٢) انظر: الخلاف في هذه المسألة: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (٢٢-٢٤)، وشأن الدعاء للخطابي (٢٦-٣٠)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٢٠٧)، وبدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١/١٦٤)، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني (١١/٢٢٨-٢٣٠)، ومعارج القبول للحكمي (١/١٢٥) .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١١/٢٢٩) .

والحفظ المعنوي الذي هو فهم معانيها والعمل بما فيها، وهذا حق وهو بعض معنى الإحصاء وجماع القول في معنى الإحصاء هو ما ذكره القاري عن بعض أهل العلم وهو قول من قال المراد بالإحصاء هو (حفظ مبانيها، وعلم معانيها، وتخلق بما فيها). فهذه الثلاثة المذكورة هي مراتب الإحصاء، إلا أن من قال بهذا التفسير للإحصاء لو استبدل كلمة "وتخلق بما فيها" بكلمة "ودعاؤه بها" لكان أولى لأن الله ﷻ يقول ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[1]. ولأن هذه العبارة "وتخلق بما فيها" ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة [2].

إذن الإحصاء الوارد في الحديث شامل لثلاث مراتب كما قاله العلامة ابن القيم :

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعدّها .

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها .

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[3]، وهو مرتبتان: أحداهما: دعاء ثناء وعبادة .

والثانية: دعاء طلب ومسئلة .

فلا يثنى على الله ﷻ إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسئل إلا بها، فلا يقال يا موجود أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني،

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٢) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٦٤) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

بل يسئل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم، فمثلاً إذا كان السائل يطلب المغفرة فإنه يتوسل باسم الغفور، فيقول: يا غفور اغفر لي، وليس من المناسب أن يقول: يا شديد العقاب اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: يا شديد أجرني من عقابك، هذا هو المناسب، وقس على ذلك جميع الأسماء الحسنى [١].

وبالله التوفيق.

* * * * * *

---

(١) ينظر بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٦٤)، والمجموع الثمين لشيخنا ابن عثيمين (٢/٦٩).

الفصل الثاني

الصفـــــــــات

- وفيه مباحث :

- المبحث الأول: مذاهب الناس في صفات الله ﷻ كما ذكرها القاري .
- المبحث الثاني: مجمل كلام القاري في نصوص الصفات .
- المبحث الثالث: تقسيم الصفات عند القاري .
- المبحث الرابع: أقوال القاري المفصلة لبعض نصوص الصفات.

* * * * * *

المبحث الأول :
مذاهب الناس في صفات الله سبحانه وتعالى كما ذكرها القاري

لقد أشار القاري إلى اختلاف الناس في صفات الله تعالى فقال: (وأما ما ورد من الآيات المتشابهة والأحاديث المشكلات حيث جاء فيهما ذكر الوجه واليد والعين والقدم وأمثالها من الصفات ففيه ثلاث مذاهب بعد الإجماع على التنزيه من التشبيه :

أحدها : تفويض علمها إلى عالمها وعليه جمهور السلف وكثير من الخلف ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ [1].

وثانيها : تأويلها وإليه مال أكثر الخلف وبعض السلف .

وثالثها : أن لا تأويل ولا توقف بل المذكورات كلها صفات زائدة على الذات لا يعلم معناها من جميع الجهات وهو مختار إمامنا الأعظم وأحمد بن حنبل وأتباعه كابن تيمية وهو قول ابن خزيمة وغيرهم من أكابر الأمة من المحدثين ...) [2].

نلحظ في كلام القاري السابق أنه ذكر أقوال الناس في الصفات دون تعليق عليها أو ترجيح بينها وإن كان قد يقال إنه يذهب إلى القول الأول لأنه استدل لمذهبهم بالقرآن وقال إنه يؤيده، ولكن على كل حال فكلام

---

(١) سورة آل عمران، آية (٧) .

(٢) الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٠٤) .

القاري السابق تضمن ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : قول القاري بأن مذهب جمهور السلف التفويض .

المسألة الثانية : زعم القاري أن بعض السلف مال إلى تأويل آيات وأحاديث الصفات .

المسألة الثالثة : بيان الحق من هذه الأقوال التي ذكرها القاري .

وسأورد -بمشيئة الله تعالى- هذه المسائل في ثلاث مطالب، وسيكون مناقشة القاري من خلالها .

* * * * * *

المطلب الأول : قول القاري إن مذهب جمهور السلف التفويض:

زعم القاري أن مذهب جمهور السلف التفويض الكامل لنصوص الصفات معنى وكيفية، وهذا الزعم الذي نسبه القاري لمذهب السلف ذكره في أكثر من كتاب من كتبه، فمن ذلك ما ذكره في ضوء المعالي .

قال القاري: (ومذهب الخلف جواز تأويل الاستواء بالاستيلاء، ومختار السلف: عدم التأويل، بل اعتقاد التنزيل مع وصف التنزيه له سبحانه عما يوجب التشبيه، وتفويض الأمر إلى الله وعلمه في المراد به، كما قال الإمام مالك: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب)[1] واختاره إمامنا الأعظم ...)[2].

---

(١) يأتي تخريجه قريباً بمشيئة الله تعالى (٣٧٨) .

(٢) ضوء المعالي (٥٤)، وانظر: شرح الشمائل (١/٢٦٤-٢٦٥) .

وقال أيضاً: (فالتفويض إلى الله والاعتقاد بحقيقة مراد الله من غير أن يعرف مراده من كمال العبودية في العبد ولذا اختاره السلف) [(١)].

نلاحظ هنا أن القاري استدل -على أن مذهب السلف التفويض الكامل معنىً وكيفيةً- بقول الإمام مالك وآية سورة آل عمران، واعتبر مذهب التفويض الذي نسبه إلى السلف منقبة من مناقب السلف تدل على ورعهم وإعراضهم عن المراء في الدين ولذا قال القاري: (فالتفويض إلى الله والاعتقاد بحقيقة مراد الله من غير أن يعرف مراده من كمال العبودية في العبد ولذا اختاره السلف، والتعرض إلى تفسير المتشابهات وتأويلها كما اختاره الخلف غير جازمين بأنه مراده سبحانه عبادة في العبد، إلا أن العبودية أقوى من العبادة، لأن العبودية هي الرضا بما يفعل الرب، والعبادة هي: فعل ما يرضى به الرب[(٢)]، والرضا فوق العمل ...) [(٣)].

مناقشة القاري في دعواه تلك :-

وهذا القول الذي نسبه القاري إلى جمهور السلف، فيه تجهيل للسلف بمعاني نصوص الصفات، وهذا بلا شك قول باطل، لأن التفويض في باب صفات الله تعالى عند السلف المراد به هو تفويض الكيفية فقط دون المعنى.

فالسلف الصالح كانوا يعرفون معاني نصوص الصفات، ويفوضون علم

---

(١) ضوء المعالي (٥٥)، وانظر: شرح الشمائل (٢/٢٥) .

(٢) فالعبودية والعبادة ألفاظ متداخلة والزعم بأن بعضها أقوى من بعض لا يسلم .

(٣) ضوء المعالي (٥٥) .

كيفيتها إلى الله تعالى، فالكيف هو المجهول عند السلف لا المعنى، وهـذا مـا يدل عليه كلام الإمام مالك إمام دار الهجرة، وكلام شيخه ربيعة (الاستواء معلوم، والكيف مجهول)[١] لا كما زعمه القاري .

فالإمام مالك وشيخه ربيعة رحمهما الله بيّنا في هذا النص المنقول عنهما أمرين:

أحدهما : أن الاستواء معلوم -أي معلوم المعنى- .

والثاني : أن الكيف مجهول -أي مجهول الحقيقة- وهذا هو حقيقة مذهب السلف الصالح فإنهم يؤمنون بصفات الله الواردة في الكتاب وصحيح السنة، ويفهمون ما دلت عليه من المعاني اللائقة بالله تعالى، وأما الكيفية فيفوضون علمها إلى الله ﷻ .

فهذان الإمامان نفيا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء، وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه [٢].

قال ابن العربي[٣]: (ومذهب مالك رحمه الله: أن كل حديث

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٣٩٨/رقم٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/١٥٠-١٥١)، وفي الاعتقاد (١١٩)، والذهبي في العلو (٢/٩٥٢/رقم٣٤٤) وصحح إسناده .

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/٣٠٩-٣١٠) .

(٣) هو العلامة الحافظ القاضي أبو بكر، محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، صاحب التصانيف، ولد سنة ثمان وستين وأربع مائة، وتوفي بفاس سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة.

انظر: السير (٢٠/١٩٧-٢٠٤)، والعبر (٤/١٢٥) .

منها معلوم المعنى، ولذلك قال للذي سـأله: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فقول ربيعة ومالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب موافق لقول الباقين: امروها كما جاءت بلا كيف، فإنما نفوا علم الكيفية، و لم ينفوا حقيقة الصفة.

ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه -على ما يليق بالله- لما قالوا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ولما قالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف، فإن الاستواء حينئذٍ لا يكون معلوماً بل مجهولاً بمنزلة حروف المعجم.

وأيضاً: فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم من اللفظ معنى، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات .

وأيضاً: فإن من ينفي الصفات الخبرية -أو الصفات مطلقاً- لا يحتاج إلى أن يقول بلا كيف فمن قال: إن الله ليس على العرش لا يحتاج أن يقول بلا كيف فلو كان من مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا بلا كيف.

وأيضاً: فقولهم: أمروها كما جاءت يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معانٍ، فلو كانت دلالتهما منتفية لكان الواجب أن يقال: أمروا ألفاظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد، أو أمروا ألفاظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة، وحينئذٍ فلا تكون

---

(١) عارضة الأحوذي (١٦٦/٣) .

قد أمرت كما جاءت ولا يقال حينئذٍ بلا كيف، إذ نفي الكيفية عما ليس بثابتٍ لغو من القول)[١].

فالسلف الصالح مبرؤون من التفويض الكلي الذي يزعمه القاري، بل إنهم يفهمون نصوص الصفات ويثبتون معانيها ولا أدل على ذلك من النصوص التي تعرض لها السلف بالتفسير، فتفسير السلف لهذه النصوص فرع معرفتهم لمعانيها، لأن تفسير الشيء فرع العلم به.

وإليك بعض تفاسير السلف لهذه النصوص .

۞ بعض تفاسير السلف لنصوص الصفات .

فمن تلك النصوص التي تعرض لها السلف بالتفسير لفظ استوى في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٢].

قال مجاهد في تفسير ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ علا على العرش [٣].

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ظهر على العرش وعلا عليه [٤].

ومن تلك النصوص أيضاً صفة النزول :

---

(١) الحموية (٧٩-٨٠)، وانظر: الحموية ضمن مجموع الفتاوى (٥/٤١-٤٢)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/٢٠١-٢٠٥).

(٢) سورة الأعراف، آية (٥٤) .

(٣) يأتي تخريجه في مبحث الاستواء (٥٥٤) .

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيد (١/٢٧٣) .

روى عبدالعزيز بن المغيرة عن حماد بن سلمة: أنه حدثهم بحديث نـزول الرب ﷻ فقال: من رأيتموه ينكر هذا، فاتهموه [١].

وقال والد أبي حفص بن شاهين: (حضرت أبا جعفر، فسئل عن حديث النـزول، فقال: النـزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة) [٢].

ومن تلك النصوص أيضاً صفة العلو :

قال علي بن الحسن بن شقيق: (سألت عبدالله بن المبارك: كيف ينبغي أن نعرف ربنا ﷻ ؟ قال: على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض) [٣].

فابن المبارك رحمه الله لم يفوض صفة علو الله ﷻ على عرشه وفوقيته على خلقه، بل أثبت المعنى .

وأصرح من ذلك ما قاله أبو حنيفة رحمه الله لما سأله أبو مطيع البلخي عن قول من يقول: لا أعرف الله أفي السماء أم في الأرض؟ فقال: قد كفر، لأن الله تعالى يقول: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٣]، وعرشه فوق سبع سماوات. قلت: فإن قال: إنه على العرش ولكن لا أدري أين العرش؟ في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر. لأنه أنكر كونه في السماء فمن أنكر

---

(١) العلو للذهبي (٢/٩٦٤/رقم٣٥٠)، وسير أعلام النبلاء (٧/٤٥١)، وانظر: مختصر العلو (١٤٤/رقم١٣٩).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٥٤٧) .

(٣) يأتي تخريجه قريباً في مبحث العلو .

أنه في السماء فقد كفر، لأن الله تعالى في أعلى عليين وهو يُدعى من أعلى لا من أسفل [(١)].

ومع هذا النص الواضح من الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى نرى القاري ينفي صفة العلو ويتأول كلام هذا الإمام على غير وجهه -كما سيأتي بمشيئة الله في مبحث العلو- بل ويزعم أن مذهب السلف التفويض، وهذا أمر غريب من القاري -عفا الله عنه- فالإمام أبو حنيفة في هذا النص يثبت صفة العلو لله ﷻ ويثبت استواء الرب على العرش كما جاءت بذلك النصوص، بل إنه يكفر من يقول: لا أدري أين العرش مع اعتقاده أن الله على العرش. فأين هذا القول من مذهب أهل التفويض الذي نسبه القاري للسلف ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فإن معرفة مراد الرسول ﷺ ومراد الصحابة ﷺ هو أصل العلم، وينبوع الهدى .

وإلا فكثير ممن يذكر مذهب السلف ويحكيه لا يكون له خبرة بشيء من هذا الباب، كما يظنون أن مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها، أنه لا يفهم أحد معانيها، لا الرسول ﷺ ولا غيره ......

فيجعلون مضمون مذهب السلف أن الرسول ﷺ بلغ قرآناً لا يفهم معناه، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها وأن جبريل عليه السلام كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك، وهذا ضلال عظيم وهو أحد أنواع الضلال في كلام الله والرسول ﷺ ...) [(٢)].

---

(١) انظر: تتميم المقاصد الملحق بشرح الفقه الأكبر (١٩٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٤١٣-٤١٤) .

وقال شمس الدين ابن قيم الجوزية :

(والصنف الثالث: أصحاب التجهيل: الذين قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا نعقل معانيها، ولا ندري ما أراد الله ورسوله منا، ولكن نقرؤها ألفاظاً لا معاني لها ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله، وهي عندنا بمنزلة ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾[1]، ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ ﴾[2] ......

وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف، وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات ولا يفهمون معنى قوله ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[3].

وقوله: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[4]، وقوله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[5]، وأمثال ذلك من نصوص الصفات .

وبنوا هذا المذهب على أصلين :

أحدهما : أن هذه النصوص من المتشابه .

والثاني : أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله، فنتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم يقرأون: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، وقوله ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[6]، ويروون " ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء

(١) سورة مريم، آية (١) .

(٢) سورة الشورى، آية (١، ٢) .

(٣) سورة ص، آية (٧٥) .

(٤) سورة الزمر، آية (٦٧) .

(٥) سورة طه، آية (٥) .

(٦) سورة المائدة، آية (٦٤) .

الدنيـــا »[(١)]، ولا يعرفون معنى ذلك ولا ما أريد به، ولازم قولهم: أن الرسول ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه .

ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا: تجرى على ظواهرها وتأويلها مما يخـــالف الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يثبتون لها تأويلاً، ويقولون: تجرى على ظواهرها، ويقولون: الظاهر منها غير مراد والرب منفـــرد بعلم تأويلها، وهل في التناقض أقبح من هذا؟!! وهؤلاء غلطوا في المتشـــابه وفي جعل هذه النصوص من المتشابه وفي كون المتشـــابه لا يعلـــم معنـــاه إلا الله، فأخطأوا في المقدمات الثلاث واضطرهم إلى هذا: التخلص من تأويلات المبطلـــين وتحريفات المعطلين، وسدوا على نفوسهم الباب، وقالوا: لا نرضى بالخطأ، ولا وصول لنا إلى الصواب فهؤلاء تركوا التدبر المأمور به والتذكر والعقل لمعـــاني النصوص الذي هو أساس الإيمان وعمود اليقين وأعرضوا عنه بقلوبهم وتعبـــدوا بالألفاظ المجردة التي أنزلت في ذلك وظنوا أنها أنزلت للتلاوة والتعبد بهـــا دون تعقل معانيها وتدبرها والتفكر فيها)[(٢)].

ومما سبق يتبين أن السلف الصالح كانوا يفهمون معاني نصوص الصفات لا كما زعمه القاري بأنهم كانوا مفوضة .

وأما الآية التي استدل بها القاري، وزعم أنها تؤيد هذا المذهب الذي عزاه للسلف، فالجواب عنها :

أن هـــذه الآيـــة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ

---

(١) يأتي تخريجه في مبحث النـــزول .

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٤٢٢-٤٢٤)، وانظر: بدائع الفوائد (٢/٢-٥) .

ءَامَنَّا بِهِۦ ... ﴾[١] فيها قراءتان منقولتان عن السلف ولكل قراءة توجيه[٢]:

الأولى : الوقف على لفظ الجلالة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ على معنى أن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله.

الثانية : الوقف على قوله ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ على معنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله.

وهذا الاختلاف في الوقف مرده إلى الخلاف في معنى التأويل المقصود في الآية، وهذا يستدعي منا بيان المراد بالتأويل في عرف السلف .

لفظ التأويل في عرف السلف له معنيان [٣]:

الأول : الحقيقة التي يؤول إليها الكلام .

وهذا الكلام قد يكون خبراً وقد يكون إنشاءً .

فتأويل الخبر وقوع المخبر به، وتأويل الإنشاء فعله إن كان أمراً، وتركه إن كان نهياً .

مثاله في الخبر قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[٤]، فقوله ﴿ هَلْ

---

(١) سورة آل عمران، آية (٧) .

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٨٢/٣-١٨٤)، وتفسير ابن كثير (٥٢٠/١-٥٢١)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٢٥٤/١).

(٣) انظر: تقريب التدمرية لشيخنا ابن عثيمين رحمه الله (٨٤) وما بعدها، والتدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩٢) .

(٤) سورة الأعراف (٥٣) .

يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ يعني ما تؤول إليه الحقيقة وهو وقوع ما أخبروا به، يـــوم يأتي ذلك المُخبَر به، يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق.

ومثاله في الإنشاء (الطلب) قول عائشة -رضي الله عنها- : « كان النـــبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفـــر لي يتأول القرآن » [(١)]، أي يمتثل ما أمره الله به في قولـــــه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝ ﴾ [(٢)].

وتقول مثلاً فلان لا يتعامل بالربا يتأول قوله تعـــالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ ﴾[(٣)]، والتأويل بهذا المعنى مجهول حتى يقع فيدرك واقعاً .

والثاني : بمعنى التفسير . وهذا هو الغالب على اصطلاحـــات مفســـري القرآن كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنفين في التفسير: (واختلف علمـــاء التأويل).

ومنه أيضاً قول النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: « اللهم فقهـــه في الدين وعلمه التأويل » [(٤)].

فالتأويل بهذا المعنى معلوم لأهل العلم، ولهذا قال ابن عبـــاس ﷺ « أنـــا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/٣٥٠/رقم٤٨٤).

(٢) سورة النصر، آية (١-٣) .

(٣) سورة البقرة، آية (٢٧٥) .

(٤) أخرجه البخاري، في الاعتصام بالسنة، باب قول النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم (٤/٣٦٦/رقم٧٣١١) .

ومسلم في الزكاة باب النهي عن المسألة (٢/٧١٩/رقم١٠٣٧) .

من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله »[١] أي تفسيره .

وعلى هذا فلا منافاة بين من وقف على لفظ الجلالة "الله" وبين من وقف على ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ عند التحقيق لأن كلا القولين حق باعتبار[٢]، فمن رأى الوقف على لفظ الجلالة "الله" فمراده بالتأويل المعنى الأول، وهي الحقيقة التي يؤول إليها، فحقائق الأمور وكنهها لا يعلمها إلا الله ﷻ، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ جملة مستأنفة مبتدأ و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ خبره .

ومن رأى الوقف على ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ فمراده بالتأويل المعنى الثاني، وهو أن الراسخين في العلم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه .

وعلى هذا فيكون قوله ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ حالاً منهم وهذا فيه مدح للراسخين في العلم .

وبعد هذا البيان يتضح لنا أن ما ادعاه القاري من نسبة التفويض لمذهب السلف لا يصح عنهم رحمهم الله تعالى .

* * * * * *

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨٣/٣) .

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٥/٥-٣٧)، والتدمرية (٨٩) وما بعدها، وتفسير ابن كثير (٥٢٠/١-٥٢١)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٢٥٣/١-٢٥٥)، وتفسير ابن سعدي (٣٥٧/١-٣٥٨).

المطلب الثاني : زعم القاري أن بعض السلف مال إلى تأويل آيات وأحاديث الصفات .

القاري تارة ينسب التأويل لآيات وأحاديث الصفات للسلف كما نص على ذلك في رده على القائلين بوحدة الوجود(١)، وتارة ينسبه للخلف دون السلف كما نص على ذلك في ضوء المعالي(٢). فهل القاري متناقض في كلامه حينما ينسب هذا التأويل تارة للسلف وتارة ينفيه عنهم؟ أم أن له مقصد ومغزى يرمى إليه؟!.

الجواب: إن للقاري مقصد يريد أن يقرره، وهو أن التأويل عنده تأويلان، تأويل إجمالي وهذا هو الذي ينسبه إلى السلف، وتأويل تفصيلي وهذا الذي بنسبه إلى الخلف .

فالقاري حينما ينسب التأويل لبعض السلف مراده التأويل الإجمالي -الذي هو في الحقيقة مذهب أهل التفويض- فالسلف عند القاري مفوضة لأنهم لا يقولون بظواهر نصوص الصفات على زعمه. فظاهر النصوص عندهم غير مراد -كما زعمه القاري- وكذلك الخلف ظاهر النصوص عندهم غير مراد. فاتفق كل من السلف والخلف على التأويل حيث يرى كل من السلف والخلف أن ظواهر نصوص الصفات غير مراد، إلا أن السلف كان تأويلهم إجمالياً والخلف كان تأويلهم تفصيلياً .

فالقاري حينما ينسب التأويل لبعض السلف مراده التأويل الإجمالي -الذي هو مذهب أهل التفويض- وهذا التفريق بين التأويل الإجمالي والتأويل

---

(١) انظر: الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٠٤) .

(٢) انظر: ضوء المعالي (٥٤) .

التفصيلي ذكره القاري في كتابه جمع الوسائل في شرح الشمائل حيث قال: (وفيها -أي آيات وأحاديث الصفات- المذهبان المشهوران، أن التأويل إجمالاً وهو تنزيه الله تعالى عن ظواهرها وتفويض التفصيل إليه ﷺ ، وهو مذهب أكثر السلف، والتأويل تفصيلاً وهو مختار أكثر الخلق، وفي الحقيقة لا خلاف بين الفريقين فإنهم اتفقوا على التأويل، وإنما اختار السلف عدم التفصيل لأنهم لم يضطروا إليه لقلة أهل البدع والأهواء في زمانهم، وآثر الخلف التفصيل لكثرة أولئك في زمانهم وعدم إقناعهم بالتنزيه المجرد ولذا زل في هذا المقام قدم جماعة من الحنابلة[1] وغيرهم نسأل الله العافية)[2].

وهذا التفريق من القاري بين التأويل التفصيلي والتأويل الإجمالي المنسوب إلى السلف يؤكد ما ذكره العلامة المقبلي بأن مذهب أهل التفويض المنسوب إلى السلف هو في الحقيقة مذهب أهل التأويل .

قال العلامة المقبلي: (المذهب الثالث: من يقول ليس المراد هو ظاهر العبارة بحسب ما يفهم من اللغة لكنا جهلنا المعنى المراد، فنمسك عن الفحص عنه كما أمسك السلف .

وهذا المذهب في الحقيقة هو الأول - أي مذهب أهل التأويل- وإن كان أسلم من الذي قبله باعتبار أنه سهل، فهو ليس بمذهب ثالث، لأن صاحبه إنما سكت عن التعيين، وقد حكم بالتأويل في الجملة فهو متأول لا مسلم)[3].

---

(١) لم تزل قدمهم رحمهم الله بل إنهم ثبتوا على قانون السلف في هذا الباب وهو إجراء الصفات على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل .

(٢) شرح الشمائل (١/٢٦٤-٢٦٥)، وانظر: المرقاة (١/٢٨٠) (٣/٢٩٩) .

(٣) الأرواح النواضح ذيل العلم الشامخ (٣٩٥) .

إذن فنسبة التأويل الإجمالي للسلف هو كنسبة التفويض للسلف وكلاهما خطأ وقد سبق بيان بطلانه في المسألة الأولى مما أغنى عن إعادته .

* * * * * *

المطلب الثالث : بيان الحق من هذه الأقوال التي ذكرها القاري .

الحق هو المذهب الثالث : بأن لا تؤول هذه الصفات عن معانيها اللائقة بالله ﷻ ولا تفوض، بل إن الله ﷻ متصف بجميع الصفات الثابتة في الكتاب وصحيح السنة على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل كما قال تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [١].

فالله ﷻ متصف بالسمع والبصر والقدرة والإرادة والعلو والاستواء على العرش والنزول في ثلث الليل الآخر، ومتصف باليد، والساق والأصابع ... إلخ.

فهذه الصفات يجب إثباتها لله ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته من غير صرف لها عن ظاهرها، وكذلك يجب إثبات ما تدل عليه من المعاني اللائقة بالله ﷻ خلافاً لما عليه المفوضة .

قال ابن خزيمة[٢] -رحمه الله تعالى- : (فنحن وجميع علمائنا من أهل

---

(١) سورة الشورى، آية (١١) .

(٢) هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري الشافعي، إمام الأئمة الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، ولد سنة (٢٢٣هـ). قال عنه الدارقطني: كان ابن خزيمة إماماً ثبتاً، معدوم النظير. مات سنة (٣١١هـ).

انظر: السير (٣٦٥-٣٨٢) .

الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا أنا نثبت لله ما أثبته لنفسه نقر بذلك بألسنتنا ونصدق ذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين عز ربنا عن أن يُشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقاله المعطلين وعز أن يكون عدماً كما قال المبطلون، لأن ما لا صفه له عدم، تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم تنزيله على لسان نبيه ﷺ ...)[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في باب الأسماء والصفات :

(الأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصف به رسله نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته فإن الله ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3].

فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل كما قال تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ

---

(١) كتاب التوحيد لابن خزيمة (٢٦/١-٢٧) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٣) سورة فصلت، آية (٤٠) .

ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[١]، ففي قوله ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وقوله ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ رد للإلحاد والتعطيل)[٢].

وهذا الذي نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ومن قبله أئمة الهدى هو الحق الذي يجب اعتقاده في باب الأسماء والصفات، وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل .

(أما الزائغون عن هذا الحق الذي يجب اعتقاده في باب الأسماء والصفات فهم على قسمين: ممثلة ومعطلة، وكل منهم غلا في جانب وقصّر في جانب.

فالممثلة غلوا في جانب الإثبات وقصروا في جانب النفي، والمعطلة غلوا في جانب النفي، وقصروا في جانب الإثبات، فخرج كل منهم عن الاعتدال في الجانبين، فالممثلة أثبتوا لله الصفات على وجه تماثل صفات المخلوقين. (وتصور هذا القول يكفي في رده وبطلانه)

أما المعطلة فهم الذين أنكروا ما سمى الله تعالى ووصف به نفسه إنكاراً كلياً أو جزئياً وحرفوا من أجل ذلك نصوص الكتاب والسنة فهم محرفون للنصوص معطلون للصفات وقد انقسم هؤلاء إلى أربع طوائف[٣]:

---

(١) سورة الشورى، آية (١١) .

(٢) تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع (٦-٨) تحقيق السعوي.

(٣) انظر في بيان أقوال هذه الطوائف والرد عليهم : كتاب التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

الطائفة الأولى: الأشاعرة ومن ضاهاهم من الماتريدية وغيرهم .

الطائفة الثانية: المعتزلة ومن تبعهم من أهل الكلام وغيرهم .

الطائفة الثالثة: غلاة الجهمية والقرامطة والباطنية ومن تبعهم .

الطائفة الرابعة: غلاة الغلاة من الفلاسفة والجهمية والقرامطة والباطنية وغيرهم ...)[١].

يجدر بي في هذا المقام أن أذكر الركائز التي قام عليها معتقد أهل السنة والجماعة في باب الصفات .

ارتكز معتقد أهل السنة والجماعة -في باب الصفات- على ثلاث أسس رئيسة وكل واحد منها قد دل عليه كتاب الله ﷻ، وهذه الأسس هي[٢]:

الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص الكتاب والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتاً ونفياً .

فأهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ وينفون ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، وقد سبق نقل كلام بعض أئمة السنة في ذلك.

وكلام أئمة السنة في الإثبات يرتكز على قاعدتين عظيمتين ذكرهما فارس المعقول والمنقول حقاً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

---

(١) انظر: تقريب التدمرية لشيخنا ابن عثيمين (٢٢-٣٦) .

(٢) انظر: الأسماء والصفات للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله (٦، ٤٨)، والصفات الإلهية في الكتاب والسنة لشيخ محمد بن أمان الجامي رحمه الله (٦٥)، ومعتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات للتميمي (٨٧).

القاعدة الأولى : القول في بعض الصفات كالقول في بعض [١].

(فمن يقر بأن الله حي بحياة، عليم بعلم، قدير بقدره، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة، وينازع في محبته ورضاه، وغضبه، وكراهيته، ونحو ذلك، فيجعل ذلك مجازاً ويفسره، إما بالإرادة وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات) [٢].

فيقال له: لا فرق بين ما نفيته وما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

وتتضح هذه القاعدة بمثال: وهو إذا كان المخاطب يثبت لله تعالى حقيقة الإرادة وينفي حقيقة الغضب ويفسره، إما بإرادة الانتقام، وإما بالانتقام نفسه.

فيقال له: لا فرق بين ما أثبته من حقيقة الإرادة وما نفيته من حقيقة الغضب فإن إثبات حقيقة الغضب يستلزم التمثيل، فإثبات حقيقة الإرادة يستلزمه أيضاً، لأن القول في أحدهما كالقول في الآخر.

وعلى هذا يلزمك إثبات الجميع، أو نفي الجميع، فإن قال: الإرادة التي أثبتها لا تستلزم التمثيل لأنني أعني بها إرادة تليق بالله ﷻ لا تماثل إرادة المخلوق.

قيل له: فأثبت لله غضباً يليق به ولا يماثل غضب المخلوق .

فإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام وهذا لا يليق بالله تعالى.

---

(١) التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق السعدي (٣١)، والفتاوى (١٧/٣) .

(٢) التدمرية لابن تيمية (٣١) .

قيل له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة وهذا لا يليق بالله ﷻ .

فإن قال: هذه إرادة المخلوق، وأما إرادة الله فتليق به .

قيل له: والغضب بالمعنى الذي قلت غضب المخلوق، وأما غضب الله فيليق به، وهكذا القول في جميع الصفات التي نفاها يقال له فيها ما يقول هو فيما أثبته) [١].

وبهذه القاعدة نرد على الأشاعرة والماتريدية الذين أثبتوا بعض الصفات ونفوا أكثرها .

القاعدة الثانية : القول في الصفات كالقول في الذات [٢].

فمن أثبت لله ﷻ ذاتاً لا تماثل ذوات المخلوقين لزمه أن يثبت له صفات لا تماثل صفات المخلوقين، لأن القول في الصفات كالقول في الذات.

وبهذه القاعدة نرد على أهل التمثيل وأهل التعطيل من المعتزلة ونحوهم.

الأساس الثاني :

تنزيه الله تعالى عن أن يماثل شيء من صفاته، شيئاً من صفات المخلوقين[٣]، وهذا الأساس يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

(١) تقريب التدمرية (٣٩-٤٠) .

(٢) التدمرية (٤٣)، والفتاوى (٣/٢٥) .

(٣) انظر: التدمرية لابن تيمية (٨)، والفتاوى (٣/٣-٤)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/٦٩)، والأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي ومعتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات للتميمي (٨٧، ١٠٧).

شَيْءٌ ﴾[(١)]، وقوله: ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[(٤)]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على تنزيه الرب ﷻ عن مماثلة خلقه .

والتنزيه عند السلف مبني على أصول هي :

(أ) تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب مع إثبات الصفات الواردة في الكتاب وصحيح السنة إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل على حد قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[(٥)]، فينزه الله عن كل ما يوجب النقص أو العيب سواءٌ أكان متصلاً كالموت والعجز والسنة والنوم والنسيان ونحو ذلك، أو كان منفصلاً كالشريك والظهير والشفيع بدون إذنه والولد والوالد والكفؤ والند ونحو ذلك[(٦)].

(ب) التفصيل في الإثبات والإجمال في النفي [(٧)].

فنثبت لله تعالى جميع ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ بالتفصيل من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل لأن الله تعالى أعلم بنفسه، ثم رسوله ﷺ أعلم الناس بالله وأفصح الخلق في بيان العلم والتعريف والدلالة والإرشاد،

---

(١) سورة الشورى، آية (١١) .

(٢) سورة النحل، آية (٧٤) .

(٣) سورة النحل، آية (٦٠) .

(٤) سورة مريم، آية (٦٥) .

(٥) سورة الشورى، آية (١١) .

(٦) انظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين للعلامة ابن سعدي (١٤-٢٣)، وشرح العقيدة النونية للهراس (٢/٥٥-٥٩) .

(٧) التدمرية (٨-١٦)، والفتاوى لابن تيمية (٣/٤-٧) .

وأما النفي فهو مجمل فننفي عن الله ﷻ كل نقص وعيب قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[1]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2].

والمراد بالنفي المجمل هو الذي لا يُتعرض فيه لنفي عيوب ونقائص معينة كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[3]، هذا نفي مجمل لأنه نفي للمماثلة في جميع الصفات فلم يقل جل وعلا ليس كمثله شيء في سمعه أو في علمه أو في قدرته ونحو ذلك، بل أجمل في النفي و لم يفصل .

وهذه القاعدة -أعني التفصيل في الإثبات والإجمال في النفي- إنما هي في الغالب وإلا فقد يرد في النصوص الإثبات المجمل والنفي المفصل .

فمثال الأول : قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[4]، و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5].

ومثال الثاني : قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾[6]، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[7].

ولكن قد يُقال إن هذه الأمثلة من الإثبات المفصل، لأن النفي إذا ورد في القرآن فإنما يراد به كمال الضد -كما سوف يتضح في الأصل الثالث بمشيئة الله-

---

(١) سورة الشورى، آية (١١) .
(٢) سورة الإخلاص، آية (٤) .
(٣) سورة الشورى، آية (١١) .
(٤) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .
(٥) سورة الفاتحة، آية (٢) .
(٦) سورة الإخلاص، آية (٣) .
(٧) سورة الكهف، آية (٤٩) .

وعلى هذا فتكون الآيات التي ورد فيها النفي المفصل محمولة على الإثبات المفصل لأن المراد بالنفي إثبات كمال الضد، وكمال الضد في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾[١] هو صفة الغنى التام، فلكمال أحديته وكمال صمديته لم يلد و لم يولد، وهذا من الإثبات المفصل، وهكذا في بقية الآيات التي فيها تفصيل، فليس المراد بها تفصيل النفي وإنما المراد به إثبات كمال الضد .

(ج) أن الله لا يوصف بالنفي المحض [٢].

إن المعتبر في النفي ثبوت كمال الضد، لأن مجرد النفي دون إثبات الكمال لا مدح فيه بل هو إساءة أدب مع الله جل وعلا. فالله ﷻ لا يوصف بالنفي المحض وذلك للأمور الآتية :

الأول : أن النفي المحض عدم محض، والعدم ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاً [٣].

الثاني : أن نفي الشيء عن الشيء قد يكون لعدم قابليته له لا لكماله الذي أوجب أن ينتفي عنه[٤]، مثل قولنا: الجدار لا يظلم .

الثالث : أن النفي قد يكون للعجز عن هذا المنفي فيكون النفي حينئذٍ نقصاً[٥]، ولهذا يقول الإمام ابن أبي العز[٦] -رحمه الله- موضحاً منهج السلف

---

(١) سورة الإخلاص، آية (٣) .

(٢) انظر: التدمرية (٥٧) .

(٣) المصدر السابق (٥٧) .

(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لشيخنا ابن عثيمين (٢٣) .

(٥) المصدر السابق .

(٦) هو العلامة صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي =

في التنزيه ويرد على طريقة أهل الكلام المذموم (... وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1] لكمال عدله، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2] لكمال علمه، ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[3] لكمال قدرته، ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[4] لكمال حياته وقيوميته، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[5] لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفي الصِّرْف لا مدح فيه، ألا يُرى أن قول الشاعر:

قبيلةٌ لا يغدرون بذمَّة ولا يظلمون الناس حبَّة خردلِ

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده وتصغيرهم بقوله "قبيلة" علم أن المراد عجزهم وضعفهم لا كمال قدرتهم.

وقول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ

ليسوا من الشر في شيء وإن هانا[6]

الصالحي، ولد سنة (٧٣١هـ)، واشتغل بالعلم فمهر ودرّس، وأفتى. مات سنة (٧٩٢هـ). انظر: شذرات الذهب (٨/٥٥٧)، ومقدمة المحقق على شرح ابن أبي العز للأرناؤوط (٦٧/١) وما بعدها.

(١) سورة الكهف، آية (٤٩) .

(٢) سورة سبأ، آية (٣) .

(٣) سورة ق، آية (٣٨) .

(٤) سورة البقرة، آية (٢٥٥) .

(٥) سورة الأنعام، آية (١٠٣) .

(٦) انظر: خزانة الأدب (٤٤٦/٧)، وشرح أبيات مغني اللبيب (٨٧/١) .

لما اقترن بنفي الشر عنهم ما يرد على ذمهم عُلم أن المـــــراد عجزهـــم وضعفهم أيضاً، ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصــــــلاً والنفـــي مجملاً عكس طريقة أهل الكلام المذموم فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبـــات المجمــــل ...)[1].

الأساس الثالث :

قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بصفاتـــــه[2] (عـــدم إدراك الكيفيــــة).

إن إدراك حقيقة كيفية الصفات مستحيل، لأن الله تعالى قـــال ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[3].

قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى: نفــــى الإحاطـــة بـــالله علمـــاً شاملاً للإحاطة بذاته وصفاته فلا يعلم حقيقة ذاته وكنهها إلا هـــو وكذلـــك صفاتـــه . أهـــ

وقال الشنقيطي رحمه الله تعـــــالى: (قولـــه ﴿يُحِيطُونَ بِهِۦ﴾ فعـــل مضارع، والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمـــر والفعـــل الماضي ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن كما قال ابن مالك في الخلاصة.

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز (١/٦٨-٦٩) .

(٢) الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي رحمه الله (٤٤) وما بعدها.

وانظر: القواعد المثلى (٢٧)، ومعتقد أهل السنة والجماعة في توحيـــد الأسمـــاء والصفـــات للتميمي (١٢٩) وما بعدها .

(٣) سورة طه، آية (١١٠) .

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن

وقد قرر علماء البلاغة من مبحث الاستعارة التبعية أنه ينحل عن مصدر وزمن ونسبه، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً فيحيطون في مفهومها "الإحاطة" فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح فيصير المعنى لا إحاطة للعلم البشري برب السموات والأرض فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين)[١].

فإدراك حقيقة كيفية الصفات لا علم لنا به لأنه جل وعلا لم يخبرنا بذلك بل أخبرنا بصفاته و لم يخبرنا عن كيفية صفاته، و لم يتعبدنا بذلك ولا أراده منا، فالصفات نثبتها لله ﷻ لورود النصوص بها، فالله جل جلاله أراد أن يعرف عباده بنفسه وبما له من صفات الجلال والكمال، فجاءت النصوص تبين ذلك. فنحن نثبت ما جاءت به النصوص ونفهم المعاني، ولكن كيفية هذه الصفات لا يعلمها إلا الله –جل وعلا– فلا يجوز أن نكيفها كما أنه لا يجوز أن نشبهها بصفات أحد من خلقه كما قال تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢]، وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[٣].

* *　　* *　　* *

(١) الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي (٤٤-٤٥).

(٢) سورة الشورى، آية (١١).

(٣) سورة الإسراء، آية (٣٦).

المبحث الثاني:
مجمل كلام القاري في نصوص الصفات.

القاري مضطرب في باب الصفات، فتارة يذكر مذهب أهل التأويل من الماتريدية ونحوهم وينتصر لهم، بل وينتسب إلى الماتريدية، ويزعم كما زعم أهل التأويل من قبله أن حمل نصوص الصفات على ما تداولته العرب يوقع الناس في التجسيم والتشبيه .

وتارة يذكر مذهب أهل التفويض ويزعم أنه مذهب السلف.

وتارة يذكر مذهب السلف الحق، وينتصر له، بل ويذكر ردود أهل السنة على من ينكر الصفات، ويدافع عن أعلامهم -كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما الله- الذين لهم قدم صدق في بيان عقيدة التوحيد .

وهذا الاضطراب الذي وقع فيه القاري ليس في كتاب متقدم، وآخر متأخر.

لا.. لأن الأمر لو كان كذلك لأخذنا كلامه المتأخر دون المتقدم.

ولكن هذا الاضطراب الذي وقع فيه القاري يكون أحياناً في الكتاب الواحد، ولا يكون بين ما قرره في كلامه السابق وكلامه اللاحق إلا صفحات.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن القاري ينقل عن غيره من غير تمحيص، وإليك البيان على ذلك من كلام القاري .

أ) نسبته نفسه إلى علماء الماتريدية .

قال القاري: (فالصفات الأزلية عندنا ثمانية لا كما زعم الأشعري من أن الصفات الفعلية إضافات، ولا كما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر بكون كل من الصفات الفعلية صفة حقيقية أزلية فإن فيه تكثير القدماء جداً، وإن لم تكن متغايرة فالأولى أن يقال إن مرجع الكل إلى التكوين . . .) [١].

القاري تارة ينسب نفسه إلى الماتريدية فيعبر بقوله (عندنا) ويعني بذلك عند الماتريدية، كما في هذا النص الذي بين أيدينا، وتارة يقول (أصحابنا الماتريدية)[٢]، وتارة يقول (مذهب أئمتنا الحنفية)[٣].

ففي هذا النص الذي بين أيدينا نجد القاري ينسب نفسه إلى الماتريدية الذين لا يثبتون إلا ثمان صفات ويرجعون الصفات الفعلية إلى صفة التكوين. وسوف يأتي بمشيئة الله بيان رأيهم في الصفات الفعلية في مبحث مستقل .

ب) ذكره لمذهب أهل التفويض وزعمه بانه مذهب السلف .

سبق في المطلب الأول من المبحث الأول أن القاري زعم أن مذهب السلف التفويض واعتبر هذا منقبة من مناقب السلف، ولهذا يقول: (فالتفويض إلى الله والاعتقاد بحقيقة مراد الله من غير أن يعرف مراده من كمال العبودية في العبد ولذا اختاره السلف، والتعرض إلى تفسير المتشابهات وتأويلها كما اختاره الخلف غير جازمين بأنه مراده سبحانه عبادة في العبد، إلا أن العبودية أقوى من

---

(١) شرح الفقه الأكبر (٤٣)، وشرح ضوء المعالي (٣٦) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٧٠) .

(٣) شرح ضوء المعالي (٤٢) .

العبادة، لأن العبودية هي الرضا بما يفعل الرب، والعبادة هي فعل ما يرضي به الرب، والرضا فوق العمل ...)[١].

فكلامه هنا يفهم منه أنه يرجح مذهب التفويض الذي نسبه إلى السلف وقد تقدم بيان بطلان هذه النسبة .

ج) ذكره لمذهب السلف وانتصاره له .

تعرض القاري لتشنيع شيخه الهيتمي على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية حيث رماهما الهيتمي بأبشع التهم من التجسيم ونحو ذلك، فدافع عنهما القاري، ورد على شيخه، وقرر ما قرراه في باب الصفات، بل إن القاري عد الشيخين من أئمة السنة الذابين عن دين الله تعالى، ثم حقق أن عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية هي بعينها عقيدة الإمام أبي حنيفة. وإليك نص عبارته.

قال القاري: (قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: إنه ذكر شيئاً بديعاً وهو أنه ﷺ لما رأى ربه واضعاً[٢] يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعَذَبَة. قال العراقي: لم نجد لذلك أصلاً. قال ابن حجر: بل هذا من قبح رأيهما وضلالهما إذ هو مبني على ما ذهبا إليه وأطالا في الاستدلال له والحط على أهل السنة في نفيهم له وهو إثبات الجهة والجسمية لله تعالى، ولهما في هذا المقام من القبائح وسوء الاعتقاد ما تصم عنه الآذان ويقضي عليه بالزور

(١) ضوء المعالي (٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٤٣) من حديث معاذ بن جبل ﷺ ، وصححه الأرناؤوط انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/١٣٦)، وهذا الحديث شرحه ابن رجب الحنبلي في جزء سماه (اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى).

والبهتان قبحهما الله، وقبح من قال بقولهما، والإمام أحمد وأجلاء مذهبه مبرؤن عن هذه الوصمة القبيحة كيف وهي كفر عند كثيرين .

أقول -القاري- صانهما[(١)] الله من هذه السمة الشنيعة والنسبة الفظيعة ومن طالع شرح منازل السائرين[(٢)] تبين له أنهما كانا من أكابر أهل السنة والجماعة ومن أولياء هذه الأمة، ومما ذكره في الشرح المذكور قوله على ما نصه، وهذا الكلام من شيخ الإسلام -يعني الشيخ عبدالله الأنصاري الحنبلي قدس الله سره الجلي- تبين مرتبته من السنة ومقداره في العلم وأنه بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل على عادتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك كرمي الرافضة لهم بأنهم نواصب، والناصبة بأنهم روافض، والمعتزلة بأنه نوائب حشوية، وذلك ميراث من أعداء رسول الله ﷺ في رميه، ورمى أصحابه بأنه صباة قد ابتدعوا دينا محدثاً، وهذا الميراث لأهل الحديث والسنة من نبيهم بتلقيب أهل الباطل لهم بالألقاب المذمومة، وقدس الله روح الشافعي حيث يقول وقد نسب إلى الرفض:

إن كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

ورضي الله عن شيخنا أبي عبدالله بن تيمية حيث يقول:

إن كان نصبا حب محمد ... فليشهد الثقلان أني ناصبي

وعفا الله عن الثالث[(٣)] حيث يقول:

---

(١) يعني به الشيخين ابن تيمية وابن قيم الجوزية رحمهما الله .

(٢) يعني مدارج السالكين لابن قيم الجوزية .

(٣) يقصد به نفسه وهو العلامة ابن قيم الجوزية. وهذان البيتان ظن الباحث شمس الأفغاني رحمه الله تعالى أنهما من كلام القاري، وليس الأمر كذلك، بل لا زال الكلام موصلاً =

فإن كان تجسيماً ثبوت صفاته وتنــزيها عن كل تأويل مفتــر

فإني بحمد الله ربي مجســـم هلموا شهوداً واملأوا كل محضر [١].

ثم ذكر -يقصد به ابن قيم الجوزية- في الشرح المذكور ما يدل على براءته من التشنيع المسطور وهو (أن حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلى إفهام العامة ولا نعني بالعامة الجهال بل عامة الأمة كما قال مالك رحمه الله. وقد سئل عن قوله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٢] كيف استوى فأطرق مالك حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة [٣].

وفرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة وبين الكيف الذي لا يعقله البشر، وهذا الجواب من مالك رحمه الله شاف عام في جميع مسائل الصفات من السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة والإرادة والنزول والغضب والرحمة والضحك فمعانيها كلها معلومة وأما كيفياتها فغير معقولة إذ تعقل الكيف فرع العلم بكيفية الذات وكنهها فإذا كان ذلك غير معلوم فكيف تعقل لهم كيفية الصفات، والعصمة من هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه

= لابن قيم الجوزية. انظر: الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات للشمس الأفغاني رحمه الله (٤٩٥/١) .

(١) انظر: مدارج السالكين (٨٦/٢-٨٧) .

(٢) سورة طه، آية (٥) .

(٣) سبق تخريجه (٣٧٨) .

وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يثبت له الأسماء والصفات وينفي عنه مشابهة المخلوقات فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه ونفيك منزهاً عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل ومن قال هو استواء ليس كمثله شيء فهو الموحد المنزه[1].

انتهى كلامه وتبين مرامه وظهر أن معتقده موافق لأهل الحق من السلف وجمهور الخلف، فالطعن الشنيع والتقبيح الفظيع غير موجه عليه ولا متوجه إليه فإن كلامه بعينه مطابق لما قاله الإمام الأعظم والمجتهد الأقدم في فقهه الأكبر ما نصه (وله تعالى يد ووجه ونفس فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس فهو له صفات بلا كيف ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته فإن فيه إبطال الصفة ... ، فإذا انتفى عنه التجسيم فالمعنى البديع الذي ذكره في الحديث الكريم له وجه ظاهر وتوجيه باهر ...)[2].

فالقاري هنا نجده يدافع عن إمامين من أئمة السنة -وهما شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية- بل ويقرر ما قرراه في هذا الباب وهو أن يوصف الله ﷻ بما وصف به نفسه وبما وصف به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل على حد قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3]، بل وحقق أن عقيدة الشيخين موافقة لأهل الحق من السلف، وأن كلام الشيخين هو بعينه مطابق لما قرره الإمام الأعظم في

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٨٤-٨٥) .

(٢) جمع الوسائل (١/٢٠٧-٢٠٩)، والمرقاة (٨/٢٥١-٢٥٢) .

(٣) سورة الشورى، آية (١١) .

باب الصفات حيث قال الإمام (وله يد ووجه ونفس ...) .

وليت القاري ثبت على هذا المعتقد الذي قرره من كلام ابن قيم الجوزية رحمه الله الذي هو بعينه عقيدة سلف هذه الأمة، ولكن نجد القاري بعد هذا الكلام النفيس الذي هو زبدة كلام السلف في باب الصفات -يقرر خلافه ويزعم أنه لو حمل ما في القرآن العظيم على ما تداولته العرب فيما بينهم من اليد والعين والاستواء وغيرها لوقع جميع الناس في فساد الاعتقاد من التجسيم والتشبيه وإثبات الجهة وغير ذلك مما ينزه عنه رب العالمين، وهذه الشبه التي رد بها القاري نصوص الصفات هي بعينها شبهة الجهمية، وإليك نص عبارته.

قال القاري :

(قلت لو حمل ما في القرآن العظيم على ما تداولته العرب فيما بينهم من اليد والعين والاستواء وغيرها لوقع جميع الناس في فساد الاعتقاد من التجسيم والتشبيه وإثبات الجهة وغير ذلك مما ينزه عنه رب العالمين، فالمخلص من مثل هذا في الآية والحديث أحد أمرين، إما التفويض والتسليم كما هو طريق أكثر السلف، أو التأويل اللائق بالمقام دفعا لتوهم فهوم العوام كما هو سبيل غالب الخلف، والثاني أضبط وأحكم، والأول أحوط وأسلم والله سبحانه أعلم)[1].

فهذا مثال واحد لاضطراب القاري في كتاب واحد وهو جمع الوسائل في شرح الشمائل وليس بين كلامه المتقدم الذي فيه يقرر عقيدة السلف الصالح

---

(١) شرح الشمائل (٢/٢٥)، وانظر (١/٢٦٤-٢٦٥) من شرحه على الشمائل .

وكلامه المتأخر الذي يقرر فيه عقيدة الخلف إلا صفحات .

ففي النص الأول -الذي دافع فيه عن الشيخين- يوافق القاري ويقرر ما قرره ابن قيم الجوزية على أن العصمة في باب الصفات أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، وأن حرمة نصوص الأسماء والصفات بأن تجرى على ظواهرها واعتقاد مضمونها المتبادر إلى أفهام عامة الأمة.

وفي هذا النص الثاني -الذي يقرر فيه عقيدة الخلف- يخالف القاري ابن قيم الجوزية في تقريره السابق لعقيدة السلف في باب الصفات .

بل ويزعم القاري بأنه لو حمل ما في القرآن العظيم على ما تداولته العرب فيما بينهم من اليد والعين ... إلخ لوقع الناس في فساد الاعتقاد، وهذا الكلام من القاري غريب وعجيب وهو قدح في القرآن لأن هذا الكلام يتضمن أن القرآن الذي نزل بلغة العرب والذي أنزله الله لهداية الناس وأمر العباد بتدبره وتعقله. يوصل إلى فساد الاعتقاد والتجسيم.

وهذا معلوم بطلانه، لأن تدبر القرآن الذي نزل بلغة العرب وفهمه وتعقله يوصل إلى الهدى وإلى الرشاد وإلى الطريق المستقيم -سيما فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته فهو لا يوصل إلى فساد الاعتقاد كما زعم القاري- ذلك لأن الله ﷻ أنزل هذا القرآن بلغة العرب وأمر بتدبره وتعقله قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[1]، وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات التي

(١) سورة ص، آية (٢٩) .

(٢) سورة يوسف، آية (٢) .

تحث العباد على تدبر هذا القرآن وتعقله وفهمه.

والنصوص التي تدل على اضطراب القاري في هذا الباب كثيرة، ولعل فيما ذكرت كفاية[1] وسوف يأتي -بمشيئة الله- زيادة بيان في الصفات التفصيلية.

* * * * * *

(١) انظر على سبيل المثال رده على القائلين بوحدة الوجود (٢٣) فقد أوّل حديث الجارية الذي فيه إثبات صفة العلو ثم بعده بصفحات يذم التأويل ويقول إنه هو الذي أفسد الدين والدنيا (٤٦)، وقارن بينه كلامه في المرقاة (٢٥١/٨-٢٥٢) و(٤٥٩/٩، ٤٦١-٤٦٢)، وقارن بين ما ذكره في شرحه على الفقه الأكبر (٧٠-٧٢)، وتتميم المقاصد الملحق بشرح على الفقه الأكبر (١٩٦-٢٠٠) .

المبحث الثالث : تقسيم الصفات عند القاري .

يقسم القاري الصفات إلى قسمين: ذاتية وفعلية .

قال القاري في شرحه ضوء المعالي :

(... أطلق الناظم صفات الله، فشملت صفات الذات وصفات الأفعال)[1].

وقال أيضاً في شرحه على الفقه الأكبر :

(... منعوتاً -أي الله جل جلاله- بأسمائه "وصفاته الذاتية" كالعلم والحياة والكلام وهي قديمة بالاتفاق "والفعلية" أي موصوفاً بصفاته الفعلية كالخلق والرزق ونحوها، فمذهب الماتريدية أنها قديمة، ومذهب الأشاعرة أنها حادثة، والنزاع لفظي عند أرباب التدقيق ...)[2].

وقال أيضاً : (فالصفات الأزلية عندنا ثمانية لا كما زعم الأشعري من أن الصفات الفعلية إضافات، ولا كما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر بكون كل من الصفات الفعلية صفة حقيقية أزلية فإن فيه تكثير القدماء جداً ... فالأولى أن يقال: إن مرجع الكل إلى التكوين فإنه إن تعلق بالحياة يسمى إحياء ...)[3].

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه تضمن ثلاث مسائل : -

---

(١) ضوء المعالي (٤٠) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٣٣) .

(٣) شرح الفقه الأكبر (٤٣)، وانظر: ضوء المعالي (٤٢) .

المسألة الأولى : تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية .

المسألة الثانية : حصر القاري الصفات الذاتية في ثمان صفات .

المسألة الثالثة : جعله الصفات الفعلية ليست صفات لله تعالى على الحقيقة، بل جعلها داخله تحت صفة التكوين .

وسأورد هذه المسائل في مطالب وسيكون مناقشته -بمشيئة الله- من خلالها.

* * * * * *

المطلب الأول : تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية .

قسم القاري نصوص الصفات إلى ذاتية وفعلية وهذا التقسيم قال به بعض أئمة أهل السنة .

(فالصفات الذاتية: هي التي لا تنفك عن الرب جل وعلا بحال فهي ملازمة لذاته ﷻ ولا تعلق لها بالمشيئة والاختيار كالغنى والقدرة والعلو والرحمة والسمع والبصر ونحو ذلك من الصفات التي هي من لوازم ذاته.

والصفات الفعلية: هي كل صفة تعلقت بمشيئته وإرادته ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية كالاستواء والمجيء والنزول ونحو ذلك .

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبار وذلك مثل صفة الكلام فهي صفة ذاتية باعتبار الأصل إذ أنه جل وعلا لم يزل ولا يزال متكلماً، وصفة فعلية باعتبار آحاد الكلام لتعلقه بمشيئته واختياره فالله جل وعلا يتكلم متى شاء بما

شاء وكيف شاء)[١].

فهذا التقسيم الذي ذكره القاري ومن قبله بعض أئمة أهل السنة تقسيم صحيح وهو مبني على الاستقراء، والتتبع لنصوص الصفات الواردة في الكتاب والسنة .

وهو كالحال تماماً في تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وكالحال تماماً في استقراء كلام العرب، وأنه لا يخرج عن ثلاثة أشياء: فعل، واسم، وحرف. فهذا التقسيم صحيح ولا إشكال فيه. والله أعلم .

* * * * * *

المطلب الثاني: حصر القاري الصفات الذاتية في ثمان صفات.

حصر القاري الصفات الذاتية في ثمان صفات، وهي: العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والتكوين .

ولهذا يقول: (فالصفات الأزلية عندنا ثمانية لا كما زعم الأشعري...)[٢].

وهذا الحصر الذي ذكره القاري هو ما عليه الماتريدية [٣].

وهو حصر ترده نصوص الكتاب والسنة، فصفات الله جل وعلا لا

---

(١) انظر: التنبيهات السنية للشيخ عبدالعزيز الرشيد (٢٠)، والفتاوى لابن تيمية (٦/٢١٧-٢٤٤)، (٦/٢٦٨-٢٧٢)، (٥/٩٩)، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن قيم الجوزية (٣٠٠-٣٠١) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٤٣). وانظر: شرح ضوء المعالي (٤٢) .

(٣) انظر: الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات لشمس الأفغاني (٢/٤٣٠) وما بعدها.

يعدها العاد، ولا يحصيها إلا رب العباد. ولهذا جاء في الحديث « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[(١)].

وذكره بأسمائه وصفاته من الثناء عليه، فدل ذلك على أن أسماء الله وصفاته لا حصر لها.

ولعلي هنا أذكر بعض النصوص الدالة على أن الصفات الأزلية أكثر مما ذكره القاري. فمن تلك النصوص الدالة على الصفات الذاتية الأزلية:

١) صفة العزة:

قال تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[(٢)]، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٣)]، ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[(٤)].

٢) صفة العلو:

قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾[(٦)]، وقوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾[(٧)].

---

(١) يأتي تخريجه قريباً بمشيئة الله تعالى.

(٢) سورة فاطر، آية (١٠).

(٣) سورة المنافقون، آية (٨).

(٤) سورة ص، آية (٨٢).

(٥) سورة فاطر، آية (١٠).

(٦) سورة آل عمران، آية (٥٥).

(٧) سورة النساء، آية (١٥٨).

➢ ٣) صفة اليديـــن :

قال تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[١]، وقال تعـــالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾[٢].

➢ ٤) صفة الوجـــه :

قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[٣]، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾[٤].

فهذه بعض النصوص الدالة على أن الصفات الذاتيـــة الأزليـــة ليســـت محصورة فيما ذكره القاري، بل إنه لا حصر لها، وقد ذكرنا جملة مـــن تلـــك الصفات في المبحث الرابع من هذا الفصل .

* *   * *   * *

المطلب الثالث: الصفات الفعليـــة .

القاري يرجع جميع الصفات الفعلية إلى صفة التكوين، ويقول إن صفـــة التكوين صفة أزلية، وإن الصفات الفعلية كلها من متعلقات التكوين وليســـت صفات حقيقية .

وإليك نص عبارته: قال القاري عند شرحه لكلام الإمام أبي حنيفة:

---

(١) سورة ص، آية (٧٥) .

(٢) سورة المائدة، آية (٦٤) .

(٣) سورة الرحمن، آية (٢٧) .

(٤) سورة القصص، آية (٨٨) .

(قال الإمام: ... فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك من صفات الفعل ...).

قال القاري: (كالإحياء، والإفناء، والإثبات، والإنماء، وتصوير الأشياء، والكل داخل تحت صفة التكوين، فالصفات الأزلية عندنا ثمانية لا كما زعم الأشعري ...)[(١)].

وقال أيضاً: (والتحقيق أن التكوين صفة أزلية لله تعالى لإطباق العقل والنقل على أنه خالق العالم ومكون له، وامتناع إطلاق اسم المشتق على الشيء من غير أن يكون مأخذ الاشتقاق وصفاً له قائماً به، فالتكوين ثابت أزلاً وأبداً، والمكوَّن حادث بحدوث التعلق ...)[(٢)].

وقال أيضاً: (والحاصل أنا نقول: التكوين قديم، والمتعلق به هو المكوَّن وهو حادث ... على أن التكوين في الأزل لم يكن ليكون العالم به في الأزل، بل ليكون وقت وجوده فتكوينه باقٍ أبداً فيتعلق وجود كل موجود بتكوينه الأزلي ...)[(٣)].

وقال أيضاً بعد تقسيمه الصفات إلى ذاتية وفعلية :

(... وأما الفعلية: وهي التكوين المعبر عنه بخلق الأشياء، ورزق الأحياء، والإبداع، والإنشاء، والإحياء، والإفناء، والإنبات، والإنماء، وأمثال ذلك. ففي كونها قديمة نزاع، فمذهب أئمتنا الحنفية أنها قديمة، ومذهب

---

(١) شرح الفقه الأكبر (٤٣) .

(٢) المصدر السابق (٤٤) .

(٣) شرح الفقه الأكبر (٤٢) .

الأشاعرة أنها حادثة، وقيل: المنازعة في القضية لفظية لا حقيقية)[١].

المراد بالتكوين عند القاري -والماتريدية- الإخراج من العدم إلى الوجود[٢].

وصفات الأفعال كلها يرجعونها إلى هذه الصفة .

نلحظ هنا في نصوص القاري التي سقتها من كلامه أنه يقول: إن صفة التكوين صفة أزلية لا تعلق لها بمشيئة الله وقدرته، وإن المتجدد إنما هو المفعول المخلوق فقط من غير تجدد الفعل ولهذا يقول: (فالتكوين ثابت له أزلاً وأبداً والمكوَّن حادث بحدوث التعلق...) (والحاصل أنا نقول التكوين قديم...).

فالتكوين عند القاري صفة أزلية، وأن الصفات الفعلية كلّها من متعلقات التكوين وليست صفات حقيقية ولهذا يقول: (فالصفات الأزلية عندنا ثمانية ... لا كما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر بكون كل من الصفات الفعلية صفة حقيقية أزلية فإن فيه تكثير القدماء جداً ...)[٣].

فالشبهة عند القاري في منعه لصفات الأفعال هو أن إثباتها يلزم منه قيام الحوادث بذات الرب، أو يلزم منه تكثير القدماء -وهذا الكلام باطل كما يتبين في الرد بمشيئة الله تعالى- .

ونلحظ أيضاً أن القاري لا يرى أن ثمة خلافاً بين الأشاعرة والماتريدية في صفة التكوين ويقول بأن الخلاف بينهما خلاف لفظي ولهذا يقول:

---

(١) شرح ضوء المعالي (٤٢) .

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية للتفتازاني (٦٨) .

(٣) شرح الفقه الأكبر (٤٣) .

(فمذهب الماتريدي أنها قديمة، ومذهب الأشاعرة أنها حادثة والنزاع لفظي عند أرباب التدقيق كما يتبين عند التحقيق ...) [(١)].

فالماتريدية يقولون بصفة التكوين ويعتبرونها صفة أزلية، وأن الصفات الفعلية كلها من متعلقات التكوين وليست صفات حقيقية[(٢)]، بينما الأشاعرة لا يعترفون بهذه الصفة، فصفات الأفعال عندهم كلها حادثة وهي ليست من صفات الله تعالى، بل هي إضافات واعتبارات، وليس التكوين صفة أخرى غير القدرة والإرادة، فمرجع صفات الأفعال عندهم مجموع القدرة والإرادة.

وعلى كل حال سواء أكان الخلاف لفظياً أم معنوياً فكل من قول الماتريدية والأشاعرة باطل، لأن الدافع لهم جميعاً على ما قالوه الفرار عن القول بقيام الصفات الاختيارية بالله تعالى وهو ما يسمونه بحلول الحوادث.

وخلاصة كلام القاري السابق أجمله في قضيتين وسيكون مناقشة القاري من خلالهما بمشيئة الله تعالى :

القضية الأولى : أن التكوين غير المكوَّن أو الفعل غير المفعول .

القضية الثانية : القول بأزلية التكوين وعدم تعلقه بمشيئة الله تعالى وقدرته.

* *　　* *　　* *

---

(١) نفس المصدر (٣٣). وانظر: شرح ضوء المعالي (٤٢-٤٣) .

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية للتفتازاني (٦٨-٧٣) .

القضية الأولى: أن التكوين غير المكون أو الفعل غير المفعول.

القاري يرى مغايرة الفعل للمفعول أو الخلق للمخلوق وهذا هو الحق الذي عليه سلف هذه الأمة :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض ذكره للنزاع بين الناس في معنى حديث النزول وما أشبهه في الكتاب والسنة من الأفعال المضافة إلى الرب ﷻ (... إن الرب تعالى هل يقوم به فعل من الأفعال، فيكون خلقه للسموات والأرض فعلاً فعله غير المخلوق، أو أن فعله هو المفعول، والخلق هو المخلوق؟ على قولين معروفين :

الأول : وهو المأثور عن السلف وهو الذي ذكره البخاري في كتاب خلق أفعال العباد عن العلماء مطلقاً، و لم يذكر فيه نزاعاً، وكذلك ذكره البغوي وغيره مذهب أهل السنة، وكذلك ذكره أبو علي الثقفي ... وهو قول السلف قاطبة، وجماهير الطوائف، وهو قول جمهور أصحاب أحمد، متقدميهم كلهم وأكثر المتأخرين منهم وهو أحد قولي القاضي أبي يعلى، وكذلك هو قول أئمة المالكية والشافعية وأهل الحديث ...) [(١)].

والقول بأن الخلق غير المخلوق والفعل غير المفعول قد دل عليه صحيح المنقول وصريح المعقول، فمن ذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول: « اللهم

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥٢٨-٥٢٩، ٣٧٨) و(٦/٢٢٩) و(١٦/٣٧٣) وما بعدها، ودرء تعارض العقل والنقل (٢/٢٦٤) .

أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[١]، (فالنبي ﷺ في هذا الحديث استعاذ بأفعال الرب وصفاته، فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه .

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره على أن "كلام الله غير مخلوق" بأنه استعاذ به فقال: « من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل منه »[٢]، فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقة لأنه استعاذ بهما، والعافية القائمة ببدن العبد مخلوقة فإنها نتيجة معافاته)[٣].

وقد دلّ عليه أيضاً صريح المعقول :

(فإنه قد ثبت بالأدلة "العقلية والسمعية" أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن، وأن الله انفرد بالقدم والأزلية، وقد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[٤]، فهو حين خلق السموات ابتداءاً، إما أن يحصل منه فعل يكون هو خلقاً للسموات والأرض، وإما أن لا يحصل منه فعل، بل وجدت المخلوقات بلا فعل، ومعلوم أنه إذا كان الخالق قبل خلقها ومع خلقها سواء وبعده سواء، لم يجز تخصيص خلقها بوقت دون وقت بلا سبب يوجب التخصيص .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٣٥٢/١/رقم٤٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٠٨٠/٤-٢٠٨١/رقم٢٧٠٨) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢٩/٦-٢٣٠) .

(٤) سورة الفرقان، آية (٥٩) .

وأيضاً: فحدوث المخلوق بلا سبب حادث ممتنع في بداية العقل، وإذا قيل: الإرادة والقدرة خصصت. قيل: نسبة الإرادة القديمة إلى جميع الأوقات سواء، وأيضاً فلا تعقل إرادة تخصيص أحد المتماثلين إلا بسبب يوجب التخصيص، وأيضاً فلا بد عند وجود المراد من سبب يقتضي حدوثه وإلا فلو كان مجرد ما تقدم من الإرادة والقدرة كافياً، للزم وجود قبل ذلك، لأنه مع الإرادة التامة والقدرة التامة يجب وجود المقدور)[١].

فقول القاري بأن التكوين غير المكون صحيح وهو الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة وقد دل على ذلك صحيح المنقول وصريح المعقول كما سبق بيانه.

* * * * * *

القضية الثانية: القول بأزلية التكوين وعدم تعلقه بمشيئة الله وقدرته.

القاري يرى أن التكوين أو الفعل قديم أزلي لازم لذات الرب تعالى، وأنه لا تعلق له بمشيئة الرب وقدرته، وأن المتجدد إنما هو المفعول المخلوق فقط من غير تجدد الفعل، ولهذا جميع الصفات الفعلية عنده من متعلقات التكوين، وليست صفات حقيقية.

والشبهة عند القاري في منعه قيام صفات الأفعال بذات الرب هو أن إثباتها يستلزم قيام الحوادث بذات الرب، أو يلزم منه تكثير القدماء .

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢٣٠-٢٣١)، وجامع الرسائل (٢/١٩-٢١) .

الـــرد :

هذه الشبهة التي أوردها القاري تجاه الصفات الفعلية هي شبهة الكلابيـــة والأشاعرة والماتريدية من قبل. والجواب عن هذه الشبهة من وجوه :

الأول : يقال للقاري: نفيك للصفات الفعلية لا دليل عليـــه لا مـــن الكتاب ولا من السنة بل إن الكتاب والسنة على خلاف قولك .

فكتاب الله ﷻ قد دل على هذا الأصل في أكثر من مائة موضع [(١)].

فمن ذلك ..

قوله تعـــالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[(٢)].

وقولـــــه: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(٣)].

وقولـــــه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[(٤)].

وقوله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾[(٥)].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/٢٣٣)، ودرء تعارض العقل والنقل (٢/١١٦) .

(٢) سورة البقرة، آية (١٨٦) .

(٣) سورة البقرة، آية (١١٧) .

(٤) سورة البقرة، آية (١٧٤) .

(٥) سورة المجادلة، آية (١) .

وقوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾[١].

وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[٢].

وقوله: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[٣].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[٤].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها اتصاف الرب بالأفعال الاختيارية القائمة به[٥].

وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب ولكن لعلي أن أذكر بعض هذه الأحاديث التي فيها دلالة على اتصاف الرب بالأفعال الاختيارية القائمة به .

فمن ذلك.. ما جاء في الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني ﷺ قال: « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية -على أثر سماء كانت من الليلة- فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٨١) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٤٣) .

(٣) سورة طه، آية (٤٦) .

(٤) سورة الفرقان، آية (٥٩) .

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٢/١١٦-١٢١) .

قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب »[(١)].

ومن ذلك أيضاً.. ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في الشفاعة وفيه « ... فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ... »[(٢)].

ومن ذلك أيضاً.. قوله ﷺ: « إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة »[(٣)].

ومن ذلك أيضاً.. ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له »[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأذان باب يستقبل الناس الإمام إذا أسلم (٢٧٢/١/ رقم٨٤٦).

ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٨٣/١-٨٤/رقم٧١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (٢٥٠/٣-٢٥١/رقم٤٧١٢).

ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزله فيها (١٨٤/١-١٨٦/رقم١٩٤).

(٣) يأتي تخريجه قريباً.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (٤٠٣/٤/رقم٧٤٩٤).

ومسلم في صحيحه في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٥٢١/١/رقم٧٥٨).

والأدلة على هذا الأصل أكثر من أن تحصر، ولكن المقصود هنا أن نبين أن الكتاب والسنة فيها من الدلالة على هذا الأصل ما لا يكاد يحصر، فمن له فهم في كتاب الله يستدل بما ذُكر من النصوص على ما تُرك [١].

الثاني : يقال للقاري: إن نفي حلول الحوادث بذات الرب فيه إجمال، وهو من الكلمات المستحدثة المجملة التي أحدثها علماء الكلام وهي تحتمل معنى حقاً ومعنى باطلاً، وقاعدة السلف في مثل هذه عدم الحكم عليها نفياً أو إثباتاً حتى يعلم مراد قائلها [٢].

فيقال: إن أراد بنفي حلول الحوادث أن الله تعالى لا يحل في ذاته شيء من مخلوقاته كما لا يحل هو في مخلوقاته فهذا النفي حق وواجب .

وإن أريد به نفي صفات الله الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء متى شاء ولا يغضب ولا يرضى ولا أنه يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان ... ونحو ذلك، فهذا نفي باطل .

وهذا ما يزعمه القاري بنفيه حلول الحوادث ولهذا نفى صفة أن الرب يتكلم بحرف وصوت -كما سيأتي بمشيئة الله- في مبحث الكلام .

الثالث : يقال للقاري إن (التكوين القديم إما أن يكون بمشيئته، وإما أن لا يكون بمشيئته، فإن كان بغير مشيئته لزم أن يكون قد خلق الخلق بلا مشيئته، وإن كان بمشيئته لزم أن يكون القديم مراداً وهذا باطل.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١٢٣/٢) .

(٢) انظر: التدمرية (٦٥-٦٨)، وضمن مجموع الفتاوى (٤١/٣-٤٢) (٣٨/٦-٤٠)، ومنهاج السنة (٢٤٩/١)، ودرء تعارض العقل والنقل (٢٨٠/١) .

ولو صح لأمكن كون العالم قديماً، مع كونه مخلوقاً بخلق قديم بإرادة قديمة، ومعلوم أن هذا باطل، ولهذا كان كل من قال القرآن قديم يقولون تكلم بغير مشيئته وقدرته .

فالمفعول المراد لا يكون إلا حادثاً، وكذلك الفعل المراد لا يكون إلا حادثاً)[١].

الرابع : يقال للقاري -ومن سلك سبيلهم من الماتريدية- (إذا عرض على العقل الصريح ذات يمكنها إن تتكلم بقدرتها، وتفعل ما تشاء بنفسها، وذات لا يمكنها أن تتكلم بمشيئتها ولا تتصرف بنفسها البتة، بل هي بمنزلة الزَّمِن الذي لا يمكنه فعل يقوم به باختياره، قضى العقل الصريح بأن هذه الذات أكمل، وحينئذٍ فأنتم الذين وصفتم الرب بصفة النقص، والكمال في اتصافه بهذه الصفات، لا في نفي اتصافه بها)[٢].

الخامس : يقال للقاري: كل ما كان بعد عدمه فإنما يكون بمشيئة الله وقدرته، وهو سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فما شاء وجب كونه، وهو تحت مشيئة الرب وقدرته، وما لم يشأه امتنع كونه مع قدرته عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[٣]، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾[٤]، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾[٥]. فكون الشيء

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٣٧٨-٣٧٩) .

(٢) الفتاوى لابن تيمية (٦/٢٤٢). وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٢/٢٢٠) .

(٣) سورة السجدة، آية (١٣) .

(٤) سورة البقرة، آية (٢٥٣) .

(٥) سورة الأنعام، آية (١١٢) .

واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء على أنه لا بد من كونه لا يمتنع أن يكون واقعاً بمشيئته وقدرته وإرادته وإن كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه، فإن إرادته للمستقبلات هي مسبوقة بإرادته للماضي ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[١]، وهو إنما أراد هذا الثاني بعد أن أراد قبله ما يقتضي إرادته فكان حصول الإرادة اللاحقة بالإرادة السابقة [٢].

السادس : يقال للقاري -ومن سلك سبيلهم من الماتريدية إنه من المعلوم بصريح العقل أنه إذا خلق السموات والأرض، فلا بد من فعل يصير به خالقاً، وإلا فلو استمر الأمر على حال واحد - لم يحدث فعل- لكان الأمر على ما كان قبل أن يخلق، وحينئذٍ فلم يكن المخلوق موجوداً، فكذلك يجب أن لا يكون المخلوق موجوداً، إن كان الحال في المستقبل مثل ما كان في الماضي، لم يحدث من الرب فعل هو خلق السموات والأرض. وقد قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾[٣].

ومن المعلوم أنهم قد شهدوا نفس المخلوق فدل على أن الخلق لم يشهدوه وهو تكوينه لها وإحداثه لها غير المخلوق الباقي .

وأيضاً فإنه قال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾[٤]، فالخلق لها كان في ستة أيام، وهي موجودة بعد المشيئة، فالذي اختص بالمشيئة غير الموجود بعد المشيئة .

---

(١) سورة يس، آية (٨٢) .

(٢) جامع الرسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/٣٨-٣٩) .

(٣) سورة الكهف، آية (٥١) .

(٤) سورة الأعراف، آية (٥٤) .

وكذلك ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[(١)]، فإن الرحمن الرحيم هو الذي يرحم العباد بمشيئته وقدرته، فإن لم يكن له رحمة إلا نفس إرادة قديمة، أو صفة أخرى قديمة، لم يكن موصوفاً بأنه يرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، قال تعالى ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ۝٢١ ﴾[(٢)]، فالرحمة ضد التعذيب، والتعذيب فعله، وهو يكون بمشيئته، كذلك الرحمة تكون بمشيئته كما قال ﴿ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ ﴾ ...)[(٣)].

السابع : يقال للقاري: إن الملك هو الذي يتصرف بأمر فيطاع، ولهذا إنما يقال "ملك" للحي المطاع الآمر، لا يقال في الجمادات لصاحبها "ملك"، إنما يقال له "مالك"، ويقال ليعسوب النحل "ملك النحل" لأنه يأمر فيطاع، والمالك القادر على التصريف في المملوك .

وإذا كان الملك هو الآمر الناهي المطاع، فإن كان يأمر وينهى بمشيئته كان امره ونهيه من الصفات الاختيارية، وبهذا أخبر القرآن قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[(٤)].

وإن كان لا يأمر وينهى بمشيئته بل أمره لازم له حاصل بغير مشيئته ولا قدرته لم يكن هذا مالكاً أيضاً، بل هذا أولى أن يكون مملوكاً، فإن الله تعالى

---

(١) سورة الفاتحة، آية (٣) .

(٢) سورة العنكبوت، آية (٢٠، ٢١) .

(٣) الفتاوى (٦/٢٦٠-٢٦١) .

(٤) سورة المائدة، آية (١) .

خلق الإنسان وجعل له صفات تلزمه، كاللون والطول ... ونحو ذلك مما يحصل لذاته بغير اختياره، فكان باعتبار ذلك مملوكاً مخلوقاً للرب فقط، وإنما يكون ملكاً إذا كان يأمر وينهى باختياره فيطاع وإن كان الله خالقاً لعقله ولكل شيء .

ولكن المقصود أنه لا يكون ملكاً إلا من يأمر وينهى بمشيئته وقدرته بل من قال إنه لازم له بغير مشيئته أو قال إنه مخلوق له، فكلاهما يلزمه أن لا يكون ملكاً. وإذا لم يمكنْه أن يتصرف بمشيئته لم يكن مالكاً أيضاً، فمن قال: إنه لا يقوم به فعل اختياري لم يكن في الحقيقة مالكاً لشيء، وإذا اعتبرت سائر القرآن وجدت أنه من لم يقر بالصفات الاختيارية لم يقم بحقيقة الإيمان ولا القرآن) [1].

وبهذا البيان يتبين لنا أن الصفات الاختيارية ثابتة لله ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته خلافاً لما ذهب إليه القاري .

* *   * *   * *

---

(١) الفتاوى (٦/٢٦٢-٢٦٣)، جامع الرسائل (٢/٦١-٦٣) .